روايات LAITH AL-TAL

ليث التلّ

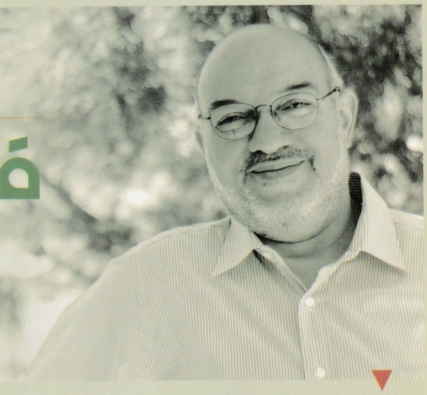
مَمر حرّان

الشيخ والسلطان

مكتبة ياسمين



الأهلية



ليث التلّ

قمر حرّان

الشيخ والسلطان

يَشُدُّ الزهدُ العلمَ من طرف، كما الطغيانُ يَشُدّ الحُكمَ من طرف مقابل، ليُبقياهما على مسافة تسمح للعالِم بالزهد وللحاكم بالطغيان، فإن التَّقيا؛ احتنَك الزهدُ الطغيانَ فَرَوّضَهُ، وأخرج السلطانُ الزهدَ من العجز فحرّرهُ، فيلتقي بذلك العلم بالحُكم والشيخ بالسلطان، ويعود بالبشريّة إلى أفضل أيّامها يوم تجسّد العلم والحُكم في شخص واحد، فتُخرج الأرض كنوزها بالعدل والعمران كسالف أيّام حُكم نبيّنا محمّد وسليمان وداود، وكلاحق أيّام عيسى آخر الزمان عليهم أفضل الصلاة والسلام، وفيما بينهما اجتمع العلم والحُكم في شخص الخلفاء الراشدين ثمّ انفكا عن بعضهما إلا لمامًا من الزمن، كأيّام الخليفة عمر بن عبد العزيز والسلاطين من أمثال يوسف بن تاشفين. وبقيا يقتربان ويبتعدان في شخصين لمئات من السنين حتّى بان طلاقهما، وما رواية الشيخ تقيّ الدين ابن تيمية والسلطان محمّد بن قلاوون إلا بسط لواحدة من تلكم التجاذبات سَطرها قلمٌ أرّقَهُ ذلك الفصام النكد.

ليث التلّ: من مواليد عمّان، عام 1968. حصل على البكالوريوس في الهندسة الميكانيكيّة، والدبلوم العالي في الهندسة الصناعيّة من الجامعة الأردنيّة. صدر له: **آخر الرجم** (رواية)؛ **تراتيل الخلود والفناء** (رواية).

مكتبة ياسمين

الأهلية
الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2024
الغلاف: ستوديو ® ☎ 95297109 7 00962

قمر حرّان

الشيخ والسلطان

يسعدنا انضمامكم إلى قناة



معكم نكبر ونستمر بكل جديد

الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail: alahia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية **12**
هاتف: ***4638688 6 00962*** ، فاكس: ***4657445 6 00962***
ص.ب: ***7855***، عمّان ***11118***، الأردنّ

الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية **34**
AlAhliaBookstore alahia_bookstore

◆

قمر حزان: الشيخ والسلطان / رواية عربيّة
ليث التل / الأردنّ

◆

الطبعة العربيّة الثانية، 2024
حقوق الطبع محفوظة
◆

تصميم الغلاف: **زهير أبو شايب**، عمّان، هاتف ***95297109 7 00962***

◆

الصفّ الضوئيّ: **إيمان زكريّا خطّاب**، عمّان، هاتف ***95349156 7 00962***

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2023/9/4796)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:

عنوان الكتاب	قمر حزان
تأليف	التل، ليث حطوق علي سازي
بيانات النشر	عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2023
الوصف المادي	205 صفحة
رقم التصنيف	813.03
المواصفات	/الروايات العربية//الأدب العربي //العصر الحديث/
الطبعة	الطبعة الأولى.

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الترقيم الدولي: ISBN 978 - 9957 - 39 - 520 - 9

روايات



telegram
@yasmeenbook

لِبنْ اللّيْ

مَهرجرّانْ

الشيخ والسلطان



إلى ستّ النعم

والدتي

نائلة عارف التل

مقدمة الكاتب

كما أنّ الرواية التاريخيّة عمل أدبي وصنعة لغويّة يعرض فيه الكاتب الأحداث التاريخيّة عرضا سلسا، يتناول فيها الأحداث تناول الحكواتي القاص لا تناول المؤرّخ الباحث، إلا أنّها من جانب آخر عمل تحليليٌّ مُضنٍ، يغوص فيه الراوي في التاريخ يجمع ما لا يلفت انتباه القارئ وما لا يتوقف عنده المؤرّخ من فلتات الكلام وشذرات المواقف، يملأ بها فراغات الأحداث والعلاقات البينيّة بين الأشخاص، ينفخ فيها الروح فتغدو شاخصة تنبض بالحياة تُنازع أحرفُ الرواية صفحاتها تخرج منها إلى واقع القارئ، فيعيش معها وتعيش معه في زمان غير زمانه ولغة غير لغته ومعاش واجتماع غير الذي يعيشه، هو جالس في حاضره على كرسيّه يتقلّب بين أماكن وأشخاص مضت، ونزاعات أنفس خبت، سترها التاريخ لم يكتب منها إلا أحرفا جامدة غاب عنها دوافع حرّكت وموانع أخّرت، ومن جهة أخرى فالأحداث في الماضي قابعة في الكتب والسير وأشخاصها في أجداثهم لم يبق منهم إلا عَجْب الذَّنَب.

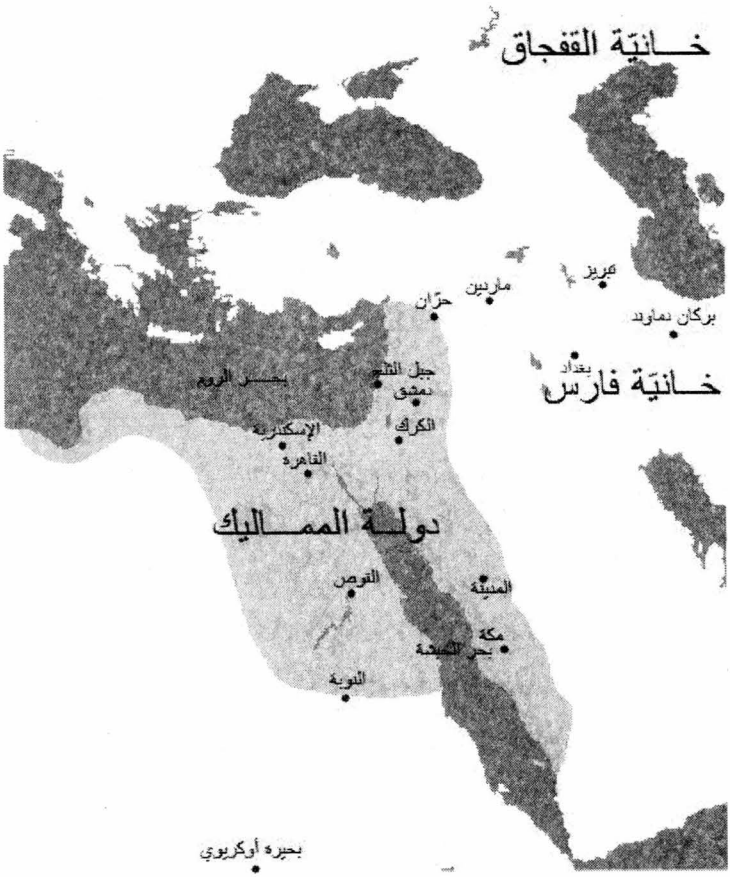
يُنازع الكاتبَ فيما يُسطّره الحقيقةُ المطلقة والخيالُ المُحَلِّق، فإنْ هو أحسن الجمع بينهما، فلم يُغيّر حقيقة ما جرى وانطلق منها

إلى الحكاية والقصّة التي تروي ما يشفي غليل القارئ ويشبع فضوله ويوصل إليه الحدث بتفاصيله ويزيد من رصيد معرفته، يكون بذلك قد أدّى ما عليه، إلا أنّ الضمير الحيّ والنّفس اللّوامة تبقيه على حذر من أن يُقَوِّلَ الأشخاص ما لم يقولوه، وأن يُحمِّل الأحداث ما لا تحتمله، فتقف له شخوص روايته يوم الدينونة الكبرى تتعلق برقبته تشكو ما زوَّره عليها على غير قصد منه، فيكون عمله وبالا عليه، فنسأل المولى عزّ وجلّ أن يلهمنا الصواب وأن يغفر لنا الخطأ، وأن يحمل عنا حقوق من ظلمه قلم عاش بعد من كتب عنهم بسبعمائة سنة، يعلم الله قصد صاحبه وهدف روايته.

أمانة اقتضت التّنويه، كما اقتضى تبيان أنّ الرواية ذكرت وصف أحداث وأماكن ونقلت نصوصا كما قالها أصحابها دون نقص أو زيادة في مواضع، وبتصرف في مواضع ثانية، وبافتراض تحليلات بُنيت عليها الرواية في مواضع أخرى وهي الأعمّ الأغلب، وحتى لا تنقلب الرواية إلى كتاب تاريخ؛ لم يتم التّنويه إلى مواضع هذه الاختلافات، لتبقى الرواية سلسلة متدفّقة، إلا أنّه يمكن للقارئ تمييز بعضها وليس كلها بإشارات التّنصيص (وليس كل مُنصّص منقولا) أو بالجمل المضبوطة شكلا أو من خلال الرجوع إلى المصادر التاريخيّة وهي في هذه الرواية قاربت ستّة مجلدات، فنصوص التاريخ مطلقة مشاع بريئة من حقوق مزعومة تكتم العلم كما تكتم التاريخ.

«اللهم أقم لدينك رجلاً يكسر العمود المُخلّق، ويخرب القبر الذي في جيرون»

الإمام محي الدين النووي الشافعي
(676) هجري


خـــانيّة القفجاق
تبريز
ماردين
حرّان
بركان دماوند
بغداد
خـــانيّة فارس
جبل الثلج
دمشق
بحـــر الروم
الكرك
الإسكندرية
القاهرة
دولـــة المـمـــاليك
الفيوم
المدينة
مكة
بحر القلزم
النوبة
بحيره أوكريوي

(1)

موقف الموت

مرج الصُّفَّر (سهل شقحب) جنوب دمشق (702) هجري

تمر بالمعارك العظيمة لحظات صمت وكأنها الدهر، تُطوى فيها الذكريات طيّ السجل للكتب، هي تلك اللحظات التي تسبق القتال يستعرض كل جيش فيها الآخر لا يُسمع فيها إلا حمحمة الخيول وحفيف الرايات، صعبة طويلة في انتظارها، مخيفة في توقع نتائجها، مؤلمة في استحضار ماضي حاضريها، لحظة تواطأ عليها الجند دون سابق اتفاق بين القادة والأمراء، هي استراحتهم الأخيرة قبل النصر أو القبر، هم بها يستحضرون ثقل ما أُوكل إليهم من مهمّة، لحظة خوف وفرح بما سيحل بحريمهم وأطفالهم من بعدهم ما بين أسر وسبي أو غنائم وعز، لحظة يقف على هامشها المؤرخ وقد أمسك قلم دواته ليكتب، ولحظة يسرج بها البريديّ خيله ينتظر لكزه مسرعا بالبشارة أو النذارة، لحظة يتوقف فيها التاريخ على مفترقات طرق يفتح بعضها ويغلق أخرى، لحظة زاغت فيها أبصار أكثر من أربعمائة ألف مقاتل في سهل مرج الصّفّر وبلغت قلوبهم الحناجر.

أول النظر ترسل فيه نظرات الجند تجاه قائد العدو، فهيبته من هيبة جيشه، وآخره يسرح الجند بطرف بعضهم ببعض يُناجزون بعضا بالعيون قبل مُناجزة السيوف، أهذا الماثل أمامي قاتلي أم أنا قاتله، أَلَهُ أولاد كما لي أولاد، أَلَهُ أمّ يُحزنها قتله كما ستحزن أمّي على قتلي، وبينهما نظر الأمراء والقادة يستعرضون بعضهم استعراض المُتأمّل لا استعراض المخطط، فسير المعركة رُسم، وخططها وضعت قبل هدنة النظر هذه.

ثم تُغمض العيون وتُشنّف الآذان فبعد لحظة النظر تأتي لحظة السماع، يُسمِعُ كل جندي نفسه يُتمتم بما اعتقده ويدعو بما آمن به، ما تلبث الأصوات تتعالى بالدعاء وتلهج الألسن بالذكر حتى تتحد اللحظتان؛ لحظة النظر ولحظة السماع بلحظة واحدة تجاه من ألقى عليه قومه وجيشه مهمة الخطبة الأخيرة والتعبئة النهائية قبل سلّ السيوف وصليل الصوارم والتحام الأجساد.

يتقدم السلطان الناصر محمد بن قلاوون مُعرّضا نفسه لسهام العدو، تهرول به فرسه مستعرضا جيش المسلمين من أقصى الميسرة إلى أقصى الميمنة لا يرميه العدو بسهم ولا رمح، فنائب سلطان التتار قازان، الأمير قطلغ شاه قائد التتار يستعرض جيشه في الجهة المقابلة، فالهدنة بينهما مستمرة يبذل فيها كل طرف جهده في الوقت القليل المتاح قبل الالتحام كي يعبئ جيشه، لا تعبئة السلاح والذخيرة بل تعبئة النفوس والعزمات وأنّى للذخيرة أن تغلب العزيمة وأنّى للسلاح القاتل أن يصدّ الحيّ إنْ لبس أكفانه.

تتوقف فرس السلطان الناصر أمام الجيش وراية المماليك الصفراء ترفرف فوق رأسه ويخطب قائلا:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وصحبه أجمعين

إن مبتدأ الأمر ومنتهاه النّيّة فجدّدوها، ما الذي ستقولونه لربكم غدا يوم تلقونه؟ أمتم في سبيل محمد بن قلاوون! فبئس ما ستقولون، وستأتون هناك تطلبون مني الجزاء ولا جزاء لكم عندي، فالأمر هناك لله وحده لا شريك له، فموتوا في سبيله فهو مالك يوم الدين وحده وعنده الجزاء ومنه النصر، نعى الناس الإسلام والمسلمين يوم زحف هولاكو قبل أربع وأربعين سنة على هذه الأراضي قاصدا الشام ومصر، هولاكو الذي لم يُقهر والتتار الذين لم يُهزموا، لم يتوقف زحفهم من قراقورم إلى بغداد، فبرز لهم المظفر قطز في عين جالوت وسطّر بسيفه تاريخا جديدا وأوصل الأمانة لنا ولكم؛ «أنّ الذي ظنّه الناس لا يُهزم هُزِم، وأنْ لا مستحيل مع الإصرار»، وإن غيّرت عين جالوت مسار الأحداث وأوقفت الزحف وقلبت الآية فإنها كانت البداية وهنا في مرج الصُّفَّر النهاية، فأروا الله من أنفسكم قوّة، فأمّة الإسلام تنتظر بشارتكم اليوم، اقطعوا دابر مغول فارس التتار الذين فرّ قائدهم قازان من الرحبة تاركا جيشه لكم لتسحقوه، وجيشكم على رأسه سلطانكم الناصر وخليفتكم المستكفي وشيخكم تقيّ الدين ابن تيمية، فليكن شعاركم بعد هذا اليوم المجيد، اليوم نغزوهم ولا يغزوننا، فأجهزوا على جريحهم وتتبعوا فارّهم وشدّوا وثاق أسيرهم.

هو النصر إن شاء الله أو الشهادة، فبأيّهما ستفرّطون ومن أيّهما ستفرّون؟

الله أكبر ... الله أكبر.

فردّدت وراءه مئتا ألف حنجرة بصوت عال تردّد صداه في سهل شقحب:

الله أكبر ... الله أكبر

وأنشد من حضر من الشعراء

اشفوا صدُورَكمُ إن كنتم غُيُرا
على نسائكُم يا قومُ وادّكِروا
كم من عجوزٍومن شيخٍ ومن مُكتَهَل
ومن فتاةٍ نماها الحُسنُ والخَفَرُ
وكم أراقُوا وكم ساقُوا وكم هتكُوا
وكم تَملَّوا بما نالوا وكم فَجَرُوا
وسارِعوا واقتلوهم إنهم قَتلوا
وبادِرُوا وأَسِروُهم مثلما أسَرُوا
سَجْلاً بِسَجْلٍ إن الدّهر ذو نُوَبٍ
من ذا يُغالبُ ما يأتي به القدرُ

في الطرف المقابل من سهل شقحب تَحَزَّب العدو من مغول ونصارى وأرمن وكرج وترك وفُرس ومُستعربة ومُتأسلمة يتبختر قائدهم التتري الأمير قطلغ شاه على فرسه بين الجند يصيح فيهم:

نحن الذين طُرقت وجوهنا بمجان الحرب فتسطّحت، ونحن الذين ضُربت جلودنا بالنصال فتدرّعت، لقد اعتدنا كثيرا على أمور رائعة، تلفت أقدام أجدادنا من السير في السهوب وفطست أنوفنا من الرياح العاتية، لدينا الآن طعام يزيد عن حاجتنا، ودفء أكثر مما تتحمّله أجسادنا، ولذلك تسألون لماذا الآن؟ لماذا نحتاج إلى المزيد من البلاد ومن الأراضي؟ سأقول لكم، لأن هذه هي المرحلة التالية لدولة أجدادنا. ولد جنكيز خان من رحم الذئبة وقهر شعب مركيت، قام بتوحيد رجال قبائلنا وكأمّة احتلوا شمال الصين، أنجب أبناء أقوياء والذين بدورهم أنجبوا أبناء، ومعا استولوا على خراسان وفارس والمجر وبحر قزوين والقفجاق والعراق والروم والترك ولم ننته بعد، المزيد من أراضي الشام ومصر وإفريقيّة، هذا وعد الخان قازان لكم، يوما ما سيرى كل واحد منكم أمّتنا على أكمل وجه، وحتى تحقيق تلك الغاية سنهزم اليوم الغلام الأعرج ذا الثمانية عشر عاما محمد بن قلاوون وجيشه

واعلموا أنّ من كان مبتدأ دولته مجرّد امرأة اسمها شجرة الدر ... مهزوم

وأن من كان مبتدأ دولته القائد العظيم الخالد جنكيز خان ... منتصر لا يستويان، اليوم سنثأر لعين جالوت ... اليوم سنثأر لعين جالوت

يردد الجيش من ورائه

اليوم سنثأر لعين جالوت ... اليوم سنثأر لعين جالوت

ثم يسير بفرسه فرسخا من الأرض مقتربا من جيش المسلمين مخاطبا المغول المسلمين الذين يقاتلون مع جيش السلطان الناصر محمد بن قلاوون: «أيّ إله هذا الذي يطلب منكم الاختيار بينه وبين الذين من دمكم ولحمكم» ويعود إلى جيشه ويهتف به: كونوا جميعا على قلب جنكيز خان ثم آمنوا بما شئتم.

فتتعالى هتافات أكثر من مئتي ألف مقاتل ويعلو صياح جيش التتار وتُصدِر السيوف أصواتا مرعبة وهي تدق الدروع على الصدور، يتبعها الغناء الذي يسبق أي معركة كتقليد متبع منذ أيام جنكيز خان وصراخ بهيميّ مرعب يتردد صداه في سهل شقحب أعاد للأذهان التاريخ الطويل المخيف لهولاكو جد السلطان الحالي لمغول فارس قازان خان:

«أغا أغا أغا أغا ... أرر تشوو أرر تشوو أرر تشو

مُبارك من السماء الأزلية ... وليد السهوب الواسعة ... في كل مكان تحت سماء منغوليا ... تردد اسمه في جميع أصقاع الأرض ... قائد المغول الشجاع جنكيز ... القائد الأسمى جنكيز

أغا أغا أغا أغا ... أرر تشوو أرر تشوو أرر تشو

حتى في الجروح المحترقة ... بِعقلٍ قويٍ كالفولاذ ... مثل سيفٍ روحي ... قوي مثل طائر نجمي ... قائد المغول الشجاع جنكيز ... القائد الأسمى جنكيز

أغا أغا أغا أغا ... أرر تشوو أرر تشوو أرر تشو

متجه نحو السماء ... امتلك نصف الأرض ... منقوشٌ على روحه ... في جلال وعظمة هذا العالم ... قائد المغول الشجاع جنكيز ... القائد الأسمى جنكيز

أغا أغا أغا أغا ... أرر تشوو أرر تشوو أرر تشو»

دُقّت الطّبول وضُربت بوقات وكوسات السلطان فرجفت الأرض بحسِّها، وعلت أصوات التتار البهيميّة. احتدمت المعركة، وشنّ قطلغ شاه بميسرة جيش التتار هجوما كاسحا على ميمنة جيش المسلمين فتفرقت، وبلغت القلوب الحناجر فرأى الشيخ تقيّ الدين أحمد ابن تيمية الهزيمة في وجوه العساكر فأسرع إلى أمير أجناد الحلقة وسأله:

- أوقفني موقف الموت أيها الأمير؟
- لماذا يا شيخنا؟
- مَن لم يُقَد ويُدسّ في خيشومه ... رَهْجُ الخميس فلن يقود خميسا

أخذه الأمير وذهب به إلى مقدمة الميمنة حيث تنحدر ميسرة التتار على جيش المسلمين كالسيل الجارف تبرق سيوف التتار وتلوح وسط الغبار كالعاصفة الهوجاء وتقدح حوافر الخيول التترية الحصى تحتها فيتطاير الشرر وكأنه إعصار فيه نار قادم لا يقف بوجهه شيء فارتعدت له أوصال المسلمين وخُلعت قلوبهم فبدأ بعضهم بالفرار.

أوقَفَهُ الأميرُ هناك وقال له:

- هذا موقف الموت يا سيدي، هنا أول ما ستحصد ملائكة الموت الأرواح فدونك وما طلبت.

يقف الشيخ كالطود الشامخ ويرفع رأسه إلى السماء:

- اللهم هذا عهدي معك على أستار الكعبة، فاربط على قلبي وثبت قدمي، اللهم صَفَتْ نيّة الجند، واكتمل إعداد العساكر، وتوحّد الأمراء، وتواضع السلطان، وخضع الخليفة، ونهى العلماء عن المنكر وأمروا بالمعروف، اللهم إنّ المسلمين اليوم نصروك وأنت القائل إن تنصروا الله ينصركم ...

يصيح بعض تلامذة الشيخ من المتطوعة:

- يا شيخنا اقتربت العساكر التتريّة فاحذر.

لا يلتفت الشيخ إلى الصوت وينظر إلى السماء:

- اللهم نصرك للمسلمين الذي وعدتني عند البيت الحرام.

تتعالى الأصوات:

- يا تقيّ الدين ... يا أحمد.

يترقرق الدمع في عينيّ الشيخ:

- اللهم أنا المذنب المقصّر العاصي وهؤلاء المجاهدون لا يشقى بهم جليسهم، اللهم فارحمني بهم ولا تهزمهم بي.
- يا أحمد والله إنك هالك، تَحَيَّز إلى فئة السلطان في قلب الجيش.

تتحول ميسرة التتار إلى إعصار تراب فيه لمعان السيوف المسلولة تبرق من خلف الغبار منحدرة تفصلها عن الشيخ تقيّ الدين خطوات قليلة فينزل رأسه ويرفع سيفه ويركض باتجاه التتار بشجاعة خالديّة وفِداويّة علويّة ويختفي بينهم.

- يا أحمد ... يا أحمد.
- هلك والله الشيخ.

تتعالى الأصوات تناديه:

- يا تقيّ الدين ... يا أحمد.

غاب رسمه في الغبار فلم يعد يراه أحد لكن نداء التحذير استمر:

- يا تقيّ الدين ... انسحب.
- يا أحمد ... عد.
- يا شيخنا ... لا تفجعنا بنفسك.

وما من مجيب

- يا تقيّ الدين ... يا أحمد.

الصوت يَرِنُّ في أذن الشيخ تقيّ الدين ابن تيمية وكأنّه سمعه من قبل في موطن مشابه، فالزمن خيط أثيري يربط بين الأحداث حاضرها وماضيها يبعث في النفس ذكريات غابت، ويحفّز في العقل مواقف تناسخت، ويحرّك في القلب مشاعر ماتت، يقشع غبار الواقع، يعود بالمرء إلى ماضيه، يبدّدُ أوهام حاضره ومخاوف مستقبله ...

- يا تقيّ الدين ... يا أحمد.



telegram
@yasmeenbook

(2)

حرَّان

حرّان (667) هجري قبل 35 سنة

- يا تقيّ الدين ... يا أحمد.
ماذا تفعل!!

الشيخ عبد الحليم بن عبد السلام يصرخ بابنه:

- يا أحمد تعال هنا لا يراك العسكر.

ست النعم بنت عبد الرحمن تستجدي ابنها:

- يا أحمد لا تفجعنا بنفسك، يا حبيبي يا تقيّ الدين تعال.

يزحف والده باتجاهه ويمسك بيده ويجره إليه وينخفض به تحت المنحدر على الطريق الخارج من حرّان باتجاه دمشق جنوبا، ويخفيه مع إخوته فخر الدين وشرف الدين وزين الدين وأمّهم ست النعم عن أعين جنود التتار الذين يبحثون عن الهاربين من حرّان بعد أن اجتاحوها، يطاردون أهلها الفارّين بأنفسهم وأموالهم طمعا بما بين أيديهم من النفائس والمتاع وشهوة في إراقة المزيد من الدماء التي ألفوا سفكها بحاجة أو بغير حاجة.

مرت العساكر فوق المنحدر دون أن يلحظوا شيئا، ابتعدوا وتماهت صورتهم مع سراب الأفق، صرخ عبد الحليم بابنه وأخرج كل القلق الذي كبته خوفا من تهلكة صغيره التي كانت قاب قوسين أو أدنى منه، وينفجر فيه صائحا:

- ماذا فعلت يا أحمد هل جننت؟
- لا يا والدي إنما أردت أن أحميكم من التتار.
- وكيف ستحمينا وأنت صبي صغيرٌ ابن سبع سنوات! وبماذا ستحمينا! ومن طلب منك أن تحمينا؟
- خفت أنْ يروكم، فأردت أنْ ألفت انتباههم وأهرب بالاتجاه المعاكس حتى تتمكنوا من الاختباء.

تأخذه أمه ست النعم وتضمّه إلى صدرها وهي تشير بعينيها إلى أبيه أن يهدأ وألّا يعاتب الصغير، وتخاطب أحمد:

- هذا تهور يا أحمد، لا تعد إلى مثله أبدا فلا طاقة لي بفقدك وقد نجَّانا الله من شر التتار في حرَّان.
- ليس تهورا بل شجاعة يا أمّي... وإن عادوا عدت.

تحضنه أمّه وتشعر بدفء رأسه وهو يتفلت من بين يديها متمتما محتجّا بلهجة حادّة:

- أنا لست صغيرا ولا متهوّرا.

تنظر إلى شفتيه ترطنان وإلى قسمات وجهه وقد عَلتها تلك

القسمات التي خبرتها عنه عند كل موقف آمن به أو استقرّ عليه رأيه، تتذكر كيف كان رضيعا في حجرها، وكيف كانت دائمة الدعاء له أن يكون شجاعا ذا شأن وجاه وأن يكفيه الله شر العين والحسد.

سبع سنوات مرت مرورا سريعا وكأنها اليوم، تعود بست النعم الذكريات يوم أرسلت أخاه فخر الدين يوم الأثنين من عام واحد وستين وستمائة إلى جامع حرَّان الكبير حيث يُلقي والده الشيخ عبد الحليم درسه على التّلاميذ، يحدث النّاس عن مدينتهم حرّان أول مدينة بُنيت في الأرض بعد الطوفان كما ذكر ياقوت الحمويّ في كتابه معجم البلدان، هي مدينة إبراهيم عليه السلام التي قال الله فيها (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) حيث انطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة، وابن أخيه لوط بن هاران، من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين فنزلوا حرّان فمات فيها تارخ، وفي حرّان حاور إبراهيم قومه حواره الشهير في القرآن، وأخبرهم أن سبب تسميتها ب(حرّان) هو نسبتها إلى (هاران) بن تارخ أخو إبراهيم عليه السلام.

يسترسل الشّيخ عبد الحليم بالكلام؛ أنَّ قمر إبراهيم أشرق وسطع في حرّان يوم دعا أهلها إلى التوحيد وكانوا يعبدون الكواكب السّبعة والأصنام، وما من مؤمن على وجه الأرض حينها سوى إبراهيم الخليل، وامرأته، وابن أخيه لوط عليهم السلام.

يلتفت عبد الحليم يمنة ويسرة، يحيط بنظره كل الحضور مسترعيا انتباههم، فأول الفعل انتباه، ولا تغيير بغير فعل، ولا نصر

بغير تغيير، ويقول: ألم تعلموا أن إبراهيم هبّ لنصرة لوط من هنا من حرّان لمّا تسلّط عليه طَائِفَةٌ مِنَ الْجَبَّارِينَ فَأَسَرُوهُ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُ وَاسْتَاقُوا أَنْعَامَهُ فسَارَ إِلَيْهِمْ إبراهيم فِي ثَلَاثِمِائَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ رَجُلًا فاستنقذه واسترجع أَمْوَالَهُ وَقَتَلَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ خَلْقًا كَثِيرًا وَهَزَمَهُمْ وَسَاقَ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى وَصَلَ إلى شرق دِمَشْقَ وَعَسْكَرَ بِظَاهِرِهَا عِنْدَ مكان يقال له برْزَةَ وَما مَقَامُ إبراهيم هناك إلا لأنّه كان مَوْقِف جَيْشِهُ.

اشرأبت الأعناق وتوسّعت الأحداق وهي تنظر للشّيخ عبد الحليم وقد أسهب على خلاف دروسه الفقهيّة السّابقة في الكلام عن حرَّان، مذكّرا الحضور أن خطر التتار ما زال ماثلا تهددهم خانيّة فارس وتغزوهم بين الفينة والأخرى، كما خطر الصّليبيين الذين ما زالت إماراتهم وقلاعهم في عكا وطرابلس وغيرهما قائمة على ساحل الشام المتاخم لبحر الروم تحلم بإعادة بيت المقدس إلى حكمها، وحضّهم الشيخ على التطوع في جيش الظاهر بيبرس البندقداري سلطان دولة المماليك لقتال التتار كما قاتل انطلاقا من حرَّان إبراهيم عليه السلام من قبل. دبَّ الخوف في قلوب البعض من ذكر قتال التتار، فما كانت تخوّفهم به أمّهاتهم وهم صغار جسّده لهم الشيخ واقعا قريب الحدوث بسؤاله:

– أليس فيكم يا أهل حرّان من يكتمل قمره فيصير بدرا ...

يشير بعض التلاميذ إلى شيخهم المنهمك بالحضّ والتّحريض يستحضر الماضي يسقطه على الحاضر غافلا عن ابنه

الصغير فخر الدين الواقف خلف رأسه يريد أن يُحدِّثهُ ولا يستطيع.

يلتفت عبد الحليم إليه وقد علت الحمرة خدوده خجلا من هيبة الحضور وفي عينيه رهبة الخبر الذي سيخبر به والده:

- تكلم يا فخر الدّين أقلقتني ما وراءك.

ينحني بفمه على أذن والده:

- أرسلتني أمي ست النعم كي أخبرك أنّ المخاض أتاها، وتستعجلك الحضور لأن الولادة تبدو أنها ستكون سريعة كما كان حملها سهلا خفيفا.

(3)

الشيخ

حرّان (661) هجري

لا أذكرُ ذلك اليوم الذي ولدت فيه، لكنهم حدثوني عنه كثيرا وعن الأحداث والوقائع التي رافقت تلك الحقبة الزمنية التي كانت من الفترات الصعبة التي مرت على الأمة الإسلامية، ولا أذكر ذلك الدرس الذي ألقاه والدي في ذلك اليوم، المشهود بالنسبة لأمي ست النعم بنت عبد الرحمن الْحَرَّانِيَّة، فهو اليوم الذي سأخرج فيه من أمان رحمها إلى خوف الدنيا ومصائبها.

أنا أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الملقب بتقيّ الدين ابن تيمية، أخذنا لقب (ابن تيمية) لأن جدي محمد بن الخَضِر حجّ على درب مدينة تيماء، فرأى هناك جارية طفلة قد خرجت من خباء فلما رجع إلى حرَّان وجد جدتي قد ولدت بنتا فلما رآها قال: يا تيمية يا تيمية، تيمُّنا بجارية مدينة تيماء، فلُقّب بذلك.

ولدت يوم الإثنين العاشر من ربيع الأول من عام واحد وستين وستمائة، جاء أبي بعد أن استدعته أمي على عجل ليشهد مولدي وليطمئن على صحة أمي التي كانت ولادتها سريعة وسهلة،

وما هي إلا لحظات من وصوله إلى البيت حتى سمع صوت بكائي، لَفُّوني بقطعة من الصوف الخشن بعد أن قطعت الدّاية حبليَ السرّي الذي كان مصدر رزقي وكفايتي من الشراب والطعام وغسلتني بالماء الدافئ، لم تغسلني من الدم وماء النفاس فقط بل من راحتي وسكوني الذي نعمت به في بطن أمي، لتتكاثر عليّ الأيدي بعد ذلك يتناولوني واحدا تلو الآخر حتى انقطع بكائي على صوت الله أكبر يصدح في أذني، فسكنت نفسي بين يدي والدي، ثم رضعت من بعد الحليب ثدي العلم منذ فطمتني أمي ست النعم.

والدي الذي قالوا فيه بعد أن تبوأت مكانتي بين أهل العلم، أنه كوكب ضاع بين قمر وشمس، فقد كان عالما عاملا ولكن جدي عبد السلام كان أعلم منه وأحفظ فوُصف بالشمس وكنت كما قالوا قمرا، فخبا كوكب أبي بيننا.

كنت القمر الذي وُلد بعد سقوط بغداد بيد التتار بخمس سنوات، ثم زحفت جحافلهم إلى دمشق ودخلوها متحالفين مع النصارى بعد ذلك بسنتين، وروى لي أبي كيف سقطت دمشق، حيث أحضرت التتار منجنيقا يحمل على عجل والخيول تجره، والمغول التتار راكبون على الخيل وأسلحتهم على أبقار وبغال، فنصب المنجنيق على قلعة دمشق من غربها، وخربوا حيطانا كثيرة وأخذوا حجارتها ورموا بها القلعة رميا متواترا كالمطر المتدارك. فهدموا كثيرا من أعاليها وشرفاتها، وذهب طائفة من نصارى دمشق إلى هولاكو وأخذوا معهم الهدايا والتحف، ثم عادوا لدمشق

ومعهم فرمان من جهة هولاكو بالأمان، ودخلوا من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس، وهم ينادون بشعارهم، ويقولون: ظهر الدين الصحيح دين المسيح. وأخذوا يذمون دين الإسلام وأهله، ورشّوا المساجد بأواني وقماقم ملآنة خمرا ورشّوا منها على وجوه الناس وثيابهم، وأمروا كل من اجتازوا به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم، ثم وقف خطيبهم في ذلك اليوم المشؤوم إلى دكة دكان في عطفة السوق عند كنيسة مريم العذراء فمدح دين النصارى وذم دين الإسلام وأهله.

لم يهنأ التتار بذلك طويلا، إذ برز لهم المظفر قظز سلطان مصر فهزمهم شرّ هزيمة في عين جالوت عام ثمان وخمسين وستمائة، وزحف بعدها السلطان الظاهر بيبرس البندقداري على دمشق وحلب فحررهما.

يا لها من طفولة يستقبل بها الإنسان حياته، وكأنّ التحديات والصعاب هي التي تصنع الرجال لا حياة الدعة والراحة، وحدثني والدي أنه بعد تحرير دمشق همّت طائفة من أهلها بنهب اليهود، فقيل لهم إنه لم يكن منهم من الطغيان كما كان من عبدة الصلبان فتركوهم وشأنهم ونهبوا النصارى دون غيرهم.

ولد بعدي بسنتين أخي زين الدين عبد الرحمن وبعده بأربع سنوات عام ستة وستين وستمائة أخي شرف الدين عبد الله، وهو العام الذي فتح فيه سلطان المماليك الظاهر بيبرس البندقداري إمارة أنطاكية وأخرج الصليبيين منها للأبد. سيكبر أخي شرف

الدين ليكون رفيق دربي في محنتي وسيتولى هو الإنفاق عليّ يوم أنقطع عن الدنيا وعن الزواج من أجل العلم، وسيموت قبلي بسنة تقريبا وسأدفن بجانبه في المقبرة الصوفية في دمشق.

كنت كلما عرضت عليّ أمي ست النعم الزواج وعدتها أني سأتزوج قريبا حالما أفرغ مما بين يدي من كتاب أقرأه أو كتاب أكتبه أو سجن أقضي خلوتي فيه أو نفي أنتظر العودة منه أو معركة أقاتل فيها أو موعد للجهاد أحضّ الناس فيه، حتى أن إبليس أتاني يوم احتضاري وقال لي:

- غلبتك يا تقيّ الدين.

فرددت عليه:

- خسئت لن تعدوَ قدرك.

فقال والابتسامة تملأ شدقيه:

- لقد مت على البدعة لا على السنة يا شيخ.
- بل على السنة.
- أليست سنة محمد الزواج ومن رغب عنها فليس منه يا تقيّ الدين.

فتذكرت حينها أني لم أتزوج ورددت عليه:

- والله لقد نسيت، وقد رُفع الخطأ والنسيان عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

فقد أشغلني جهاد التتار والنصيرية، وخبو التوحيد وانتشار البدع، والرد على النصارى والمنطقيين والرافضة والجهمية والمبتدعة، والقيد والسجن عن الزواج حتى نسيته، وما ذلك لي بعذر فنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أكثر شغلا مني، ومن أنا حتى أقارن نفسي به وقد تزوج النساء، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لتزوجت.

(4)

دمشق

دمشق (680) هجري

تخلصت بصعوبة من حضن أمي وهي تشدني إليها تخشى عليّ العودة مرة ثانية لمواجهة العساكر التَّتَريّة، نفضت نفسي نفض الذي أصابه مس من جان وصحت بها غفر الله لي:

- لست صغيرك يا ست النعم.
- بل أنت كذلك وستبقى كذلك ولو بلغت مئة عام.

ضحكت أمي بوجهي، هي فريدة المثال بين الأمهات وهي تعلم أن ابتسامتها تقتلني وتجعلني مطواعا بين يديها حتى لو كنت كهلا كبيرا، لله درها كانت دائما تعرف من أين تؤكل الكتف، فأحسنت بذلك سياسة البيت وتربية تسعة ذكور من أولادها، بلا أي أخت بيننا ترقق ما صلب من طباعنا، تبسمتْ وقالت لي:

- هيّا يا أحمد وبما أنك رجل كبير كما تزعم اذهب وساعد أباك في إخراج عجلة الكتب من تحت المنحدر لنستأنف مسيرنا إلى دمشق قبل أن تعود عساكر التتار.

كانت عربة الكتب التي أدلجنا بها بالإضافة إلى ميرة الطريق والأموال اللازمة لسفرنا هي الشيء الأهم الذي أخذه أبي معنا لمّا خرجنا من حرّان هاربين من التتار لا نلوي على شيء، كانت عربة قديمة بعجلتين يجرها بغل أو حصان ولكن بسبب ضيق ذات اليد وسرقة التتار لكل الدواب من حرَّان سوى بقر الحرث، لم نكن نملك دابة لنجرّ العربة بها.

كنا نحن حملة العلم الذي حوته العجلة نتناوب على جرها أنا وأبي وفخر الدين وبعض من رافقنا من أصحاب والدي، وضع فيها والدي كل مكتبته فقد كانت أغلى ما يملك، كانت المسافة من حرّان إلى دمشق جنوبا مسيرة تسعة أيام، ورغم بعض الدعوات الخجولة من هنا وهناك تدعوننا لترك الكتب أو التخفّف منها قدر الإمكان إلا أن والدي لم يرضخ وكان يردّ عليهم:

- العلم هو رأس المال، وهل يتخلى الإنسان عن رأس ماله؟

خرج الناس من حرّان وِحْدَانا متفرقين خائفين ودخلوا دمشق زرافات مطمئنين، رأوا على أطرافها شطوط الأنهار والمياه الجارية ودوحات الأشجار المنتظمة والفواكه الكثيرة بين البساتين الملتفة النضرة والأزهار والورود التي يُصنع منها ماء الورد الدمشقي الذي لا نظير له في العطارة والطيب، دمشق المدينة التي تفضل جميع البلاد حسناً وتتقدمها جمالاً تقع على بسيط أفيح فسيح. وكل وصف وإن طال فهو قاصر عن محاسنها.

تسير بالقادمين الجمال والركائب والبغال المسرجة وغير المسرجة يعبرون قنطرة فوق المقسم الذي يحدث عنده انقسام الماء الخارج من دمشق إلى سبعة أنهار، كل نهر آخذ في جهة، يعبرون القنطرة فيجدون دمشق قد مُلئت بالأسواق والمساجد الجامعة والحمامات، والمصطبات في كل مكان في الشوارع والأزقة تحت القسيّ، والدّكات تحت المشربيّات، يجلس عليها الدمشقيّون يتبادلون أطراف الحديث، يظن الناظر إليهم الوالد ولدا والولد والدا لنضارة وجوههم وحسن هيئتهم ولين كلامهم.

كان الجهد قد أخذ منَّا كل مأخذ، لكن حلاوة النجاة من التتار كانت تطغى على أي شعور آخر، كان أهل دمشق قد أعدوا أَخْبِيَة وطعاما لاستقبال الهاربين من فتك التتار في الشمال لتكون لهم مأوى مؤقتا حتى يستبين كل إنسان وجهته، إما بالبقاء في دمشق أو الذهاب إلى الأرياف أو القلاع حيث تقل الخطورة بعيدا عن التتار وأعينهم، ومن القادمين من يستريح عدة أيام ثم يتابع مسيره إلى مصر حيث الأمان وبعد المسافة عن عساكر التتار التي تعيث في بلاد الشام والترك فسادا، والحرب بينهم وبين السلطان الظاهر بيبرس البندقداري سجال.

سمع بقدوم أبي مجموعة من أصدقائه القدامى الذين يعلمون مكانته وعلمه، ففرحوا لنجاته ونجاتنا، وفرحوا لعلمه الذي يحمله بين جنباته وفي كتبه التي تحملها عربته التي حطت على أطراف دمشق بالقرب من أسواق الجمالين والأغنام، ولم نلبث إلا أياما

حتى خصصوا له حلقة أسبوعية في دار الحديث السكّريّة المجاورة لحمّام نور الدين الشهيد في البزوريّة.

اكترى والدي دارا قديمة بالقصاعين مليحة البناء بدراهم معدودات نستعين بها على حياتنا الجديدة في مستقرّنا الجديد، فيها خمس غرف في ركن كل منها منافس ممتدة للسقف يصعد منها دخان الموقد، تحيط بحوش كبير في وسطه بحرة ماء جافّة، وفي جانب منه تنّور مقبب وجرة ماء كبيرة وحوله شجر تين وزيتون مُعمّر، وقد استعنّا بجارنا الشجري ليقلمه لنا بعد أن امتدت أغصانه فأعاقت حركتنا ومزقت ملابسنا، زرعت أمي فيه اللجون والنارنج والفل والقليل من الحبأ وكان فيه قبل قدومنا شجرة ياسمين صغيرة والمستحية والإضالية. وضع أبي كتبه بواحدة من الغرف واقتسمنا أنا وإخوتي الأربع وأمي وأبي ما تبقى من الغرف بعد صراع مرير تباطح فيه الصغيران زين الدين وشرف الدين وتعاركا، ولمّا طال الصراع دون أن يغلب أي منّا الآخر رضينا بأمي حكما عدلا بيننا.

كنت شابا يافعا لا نبات بين عارضيه لم أتجاوز السابعة عشرة عندما كتبت أول مؤلفاتي التي وُصِفت أنّ فيها نفائس جليلة، ونكتا دقيقة، ومعاني لطيفة، وكان من المشايخ والفقهاء الذين سمعت منهم ودرست عندهم الشيخ ابن أبي اليسر والشيخ الزين بن عبد الدايم والكمال ابن عبد والشيخ المجد ابن عساكر والجمال يحيى ابن الصيرفي وأبو الغنائم ابن علان والشيخ شمس الدين الحنبلي

وابن أبي بكر الهروي وعلماء كُثر بلغ مجموعهم أكثر من مئة، وتعلمت الخط والحساب والجبر والمقابلة واللغة فتأملت كتاب سيبويه ففهمته، ونظرت في علم الكلام والفلسفة وعلم الرجال، ونشأت في تصوّن تام وعفاف وتألُّه واقتصاد في الملبس والمأكل، وصدقت فراسة والدي فيّ يوم كان يستعد هو وإخواني لنزهة إلى غوطة دمشق، فاعتذرت من الخروج معهم وانكببت على كتاب (روضة الناظر وجُنّة المناظر) أقرأه فأنهيت حفظه مع عودتهم من رحلتهم القصيرة على صوت أبي ينادي على أمي:

- السلام عليكم يا ست النعم.
- وعليكم السلام ورحمة الله.
- هل أعددتِ لنا ما نأكله؟
- اشربوا هذا السويق الساخن وما إن تغتسلوا وتستريحوا حتى تكون المائدة جاهزة.

جلسنا جميعا على الأرض حول طبق من اللوبياء المطبوخة بالمرق والقرعيّة وأنا أراقب أمي وهي تملأ الطست بالجمر الذي أخرجته من التنّور وأحضرته إلى جانبنا لنتدفأ عليه فمد والدي يديه فوقه وفركهما والتفت إلى أمي التي وكزته، وفهمتُ من نظراتها إلى أبي أنها لا تريد منه أن يعاتبني على تخلُّفي عن مصاحبتهم، لكنه تجاهل نظراتها ونظر باتجاهي معاتبا:

- إنّ عزلتك هذه يا بني تضرك ولا تنفعك.
- بل هي نافعة إن شاء الله.

- لا بد للشباب من الخروج ومخالطة الأقران واللعب معهم.
- لا أحب إضاعة الوقت يا أبي.
- وهل في خروجك مع إخوتك شرف الدين وزين الدين إضاعة للوقت؟ عوضا عن الخروج مع والدك؟
- عذرا يا والدي فربما أنتم من أضاع وقته لا أنا.

تتدخل ست النعم:

- حاذر مما تقول يا أحمد.
- قلتُ الصدق، وهل في الصدق حذر؟
- لستُ أعني الصدق يا أحمد، إنما أعني الأسلوب والطريقة، فأنت تتكلم مع والدك.
- وهل أخطأتُ بحقك يا أبي؟

يحوقل أبي في نفسه ولا يبدي لي انزعاجه من قلّة مداراتي وعدم تؤدتي، وينتقل بحلمه بالنقاش معي إلى الأمام:

- وبماذا استثمرت وقتك في غيبتنا يا بني؟ هل ذهبت إلى زيارة القبور في الجبّانة كعادتك؟
- بل حفظت كتاب (روضة الناظر وجُنّة المناظر) عن ظهر قلب.

يتبرم زين الدين من كلامي موجها كلامه لشرف الدين:

- وهل تصدق ذلك يا شرف الدين؟

يُعدّل شرف الدين من جلسته ويجيب:

- نحن يلزمنا كذا وكذا يوما لقراءة الكتاب الذي ذكرت وأنت تزعم أنك حفظته في شطر يوم!!

يقاطعهم والدي ويقول لي:

- أحضر الكتاب لأسألك فيه، فالابتلاء يفضح صدق الخبر من كذبه.

أقفز من مكاني إلى مكتبة والدي مسرعا وتقف ست النعم بعدما وضَّبَت السفرة وتحاول إقناع والدي عدم تعريضي لهذا النوع من الاختبار فتنكسر نفسي أمام إخواني، فتخفض صوتها حتى لا أسمعها وتقول:

- يا عبد الحليم، أنت تعرف مبالغة الصغار فربما قصد أنه قرأه ولم يقصد حفظه.
- دعيني يا ست النعم فأنا أرى في هذا الصبي ما لا ترون، فدعيني أختبره لأرى هل أصابت فراستي فيه أو خابت؟

تحضر أمي مرطبانا فيه زنجبيل وأجاص عثماني طازج وتضعه أمامنا وأحضر أنا الكتاب، فيبادر والدي بالقول:

- اجلس يا أحمد.

أجلس بين يدي والدي جلسة التلميذ بين يدي شيخه وأسند ركبتي إلى ركبتيه.

- كيف تحب أن أسألك يا أحمد؟

يتمايل زين الدين وشرف الدين على بعضهم يتضاحكون بصوت خفيض بانتظار مصير ي الأسود كما حسبوه أمام أمي التي كانوا دائما ما يشعرون بميلها نحوي دونهم، فتشير إليهم أمي إشارة غاضبة أنْ اسكتوا، وفي محاولة لتفريق جمعهم المزعج تقول لزين الدين:

- اذهب واغسل أواني الطعام.
- النوبة على شرف الدين لا عليّ.
- إذاً اسكت حتى ينهي والدك حديثه. وأحضر لنا دُبَّةَ الكرز الأحمر من نمليَّة الخشب في المطبخ.

يبدأ والدي الشيخ عبد الحليم بسلسلة لا تنقطع من الأسئلة شجعه على الاستمرار فيها دقة إجاباتي التي يقارنها بما هو مكتوب أمامه، أصيبت أمي ست النعم بذهول مما سمعته من دقة الحفظ وحسن الإجابة، وتحَوَّلَ حسد أخويّ إلى تعظيم وإجلال، يقطع والدي أسئلته وينتقل إلى سؤال واحد حازم جاد:

- هل استظهرت كل الكتاب عن غيب في غيبتنا يا أحمد، أو في وقت سابق؟ اصدُقني القول.

أقف وقد علت قسمات وجهي نظراتي المعهودة، وأمسك بالكتاب وألقيه أرضا وأقول غاضبا وقد هممت بالخروج:

- ألم أقل لكم أني حفظت الكتاب في غيابكم، لماذا لم تصدقوني من أول الأمر؟

يستوقفني والدي بنبرة حازمة:

- ما أنت إلا جريء ترمي الكتاب من يدك وهو كتاب علم.

فأرد دون تردد:

- أيّما خير أنا أم موسى عليه السلام؟

فيقول شرف الدين وزين الدين مجتمعين وكأنهما وقعا على غنيمة: طبعا موسى.

- أيّما خير هذا الكتاب أم ألواح الجوهر التي كان فيها العشر كلمات؟
- الألواح.
- إنّ موسى لمّا غضب ألقى الألواح من يده.

ثم أخرج مسرعا من الغرفة حتى لا يستوقفني والدي ثانية وأقف خلف الباب أستمع لما يقولونه.

تتبعني نظرات الجميع وأنا أخرج من الغرفة ثم يحولون نظرهم إلى والدي الذي قال:

- لأن صدقت فراستي بهذا الصبي، الذي لا أبحث عنه إلا وأجده ببطن كتاب أو في المسجد، ليكونن له شأن أعظم من شأن والدي عبد السلام ابن تيمية رحمه الله، فقد جَرَت آباؤُه لِشَأْوٍ ما قَنِعَ به.

تفرك ست النعم يديها وقد بدى عليها التوتر وهي تقول:

- بسم الله ما شاء الله ... تبارك الله، لا تُهَوِّل الأمر يا عبد الحليم (ما يحسد الولد الا أبوه).
- تبارك الله يا ست النعم، لا أبالغ، أرأيتِ إلى اليهودي الذي كان يعترض تقيّ الدين في طريقه إلى الكُتَّاب كل يوم ويخبره ويسأله عن أشياء مما تدل على بطلان ما عليه اليهودية ليرى رأي ابنك فيها لما يلوح عليه من الذكاء والفطنة، فيجيبه تقيّ الدين بذهن حاضر ومعلومات وافرة.
- نعم كان يحدثني تقيّ الدين عنه دائما.
- لقد أسلم على يد ابنك، ففيما المبالغة والتهويل. وقد عرض عليه اليهودي أربعين درهما بالشهر ليعلم أولاده القرآن فقال له: «يا سيدي إني عاهدت الله تعالى أن لا آخذ على القرآن أجرا».
- تبارك الله ... تبارك الله، بسم الله أرقيك ... بسم الله أرقيك، الله يحفظك يا أحمد.

تذهب أمي إلى غرفتها وتختلي إلى نفسها وتدعو:

«اللهم كما نجّيت تقيّ الدين من التتار في حرّان فنجّه من العين والحسد، اللهم إنك تعلم مقدار حبي له فلا تحرمني منه، اللهم إنك تعلم أني بذلت وسعي في تعليمه وفي حضّه على العلم منذ صغره وربيته على ما كان عليه أبوه وجدّه فوفقه لما تحب وترضى، اللهم رغم خوفي عليه وحبي له لكني أشهدك أنّي نذرته لك خالصا فتقبله مني، إنك أنت العليم الحكيم».

***

داهمنا سيل عظيم في دمشق في زمن الصيف في أيام المشمش فأتلف شيئا كثيرا، وغرق بسببه خلق كثير، لا سيما الحجاج من الروم الذين كانوا نزولا بين النهرين في الجزيرة الفراتيّة، أخذهم السيل وجمالهم وأحمالهم فهلكوا، وغُلِّقت أبواب دمشق ودخل الماء إلى البلد من مراقي السور، ومن باب الفراديس فغرق خان ابن المقدم وغيره، وتلفت مجموعة كبيرة من كتب والدي بسبب ارتفاع مستوى الماء لأكثر من شبر في كثير من الدور ومنها الغرفة التي يحتفظ فيها أبي بكتبه، فحزنَ لذلك حزنا كبيرا، كنت أحب أبي حبا كبيرا ويزعجني حدّتي معه إذا اختلفنا في الرأي، فأحببت أن أُسَرِّي عنه وأعوض بعض تجاوزي عليه في طريقة كلامي بحكم كوني شابا صغيرا يأخذني طيش الفتوة أحيانا، فدخلت عليه في مكتبته وهو يتمتم:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- السلام عليكم يا أبي.

- وعليكم السلام يا أحمد، اللهم أجرنا في مصيبتنا لقد تلفت النسخ النفيسة والمستنسخات الخطية النادرة.
- لقد أجارك الله وعوضك يا أبي.
- ونعم بالله يا أحمد والحمد لله على كل حال، ولكن لا تهزأ بمصيبتي فبعض هذه الكتب نادر لا مثيل له.
- سأعيد كتابة ما ضاع من كتبك يا أبي وسأرمم لك ما تلف من الصفحات.

يقف وقد كان جالسا وينظر إليّ نظرات الشك والريبة:

- أعد ما قلت يا أحمد!
- لقد حفظت كُتبك يا أبي واستظهرتها عن غيب ...

يقفز أبي ويضمّني إلى صدره ضمة كادت تقتلني ثم يخر ساجدا وهو يقول:

- الحمد لله ... الحمد لله

***

كانت دمشق من أهم حواضر المسلمين يدخلها السلطان الظاهر بيبرس البندقداري في أبّهة الملك كلما عاد من معركة من معاركه التي استمرت أكثر من ستة عشر عاما، يصارع فيها التتار والنصارى، كان آخرها عام خمسة وسبعين وستمائة يوم انتصر على التتار في بلاد الترك بمعركة سميت بمعركة البستان كان عمري

حينها خمسة عشر عاما، وكانت المرة الأولى والأخيرة التي أشاهد فيها الظاهر بيبرس البندقداري فقد كانت وفاته بعد ذلك بعام واحد، قيل أنه مات مسموما.

- رحم الله السلطان لقد كان نعم السلطان ونعم المجاهد الفاتح. قال أبي.

ست النعم وهي تقدم لنا الكستناء المشوي وبعضا من الفواكه المجففة:

- رحمه الله رحمة واسعة، سمعتُ أنه مات مسموما هل هذا صحيح يا عبد الحليم؟
- الله أعلم، ولكن إن كان كذلك فقد اتُّهم هو من قبل أنه سمّ السلطان المظفر قطز وقتله.
- غفر الله لهما نعم الفاتحان هما.
- أنعم بهما وأكرم.

دب الخلاف على الحكم بعد وفاة السلطان الظاهر بيبرس البندقداري كعادة الأمراء المماليك عبر تاريخهم العامر بالجهاد والعمران ورعاية العلم والعلماء، ما يلبثون حتى يتغلب عليهم أقواهم فيستقر الحكم من جديد وتهدأ النفوس وتعود الخطبة للسلطان الجديد مع الخليفة العباسي في القاهرة الذي طال بقاؤه في منصب الخلافة، تموت السلاطين وهو على عرشه متوج خليفة بلا خلافة. ولم تكن فاجعتنا بموت الظاهر بيبرس البندقداري

كفاجعتنا بموت العالم الفاضل الجليل الشيخ محيي الدين أبي زكريا النووي العلامة شيخ المذهب الشافعي، وكبير الفقهاء في زمانه.

فرح الناس بخبر قدوم السلطان المنصور قلاوون إلى دمشق بعد أن استتب أمرها وأمر كافة الديار المصرية والشامية له، وجاءني أخي زين الدين يحضّني على الذهاب لمشاهدة موكب السلطان حين يدخل دمشق، لكني اعتذرت منه بأن الوقت أثمن من مشاهدة المواكب، وقد اكتفيت من مشاهدة موكب الظاهر بيبرس البندقداري فما المواكب السلطانيّة إلا مراسيم يتكرر فيها مشهد الخيول والبغال والأعلام والرايات، تصدح فيها الأبواق وتدق فيه الطبول، لا يتغيّر فيها غير ذاك الجالس على سرير السلطنة.

دخل السلطان المنصور قلاوون دمشق ثم ما لبث أن فجع الناس بقراراته التي ضُمِّنَ فيها الخمر والزنا، وجُعل عليهما ديوانا ومشدّا، فوثب العلماء وتلامذتهم وثبة واحدة وأبطلوا ذلك بعد عشرين يوما.

كنت أجلس مع أخي شرف الدين على الدّكة أمام بيتنا ذات يوم مشمس فقال لي:

- غريب أمر هؤلاء السلاطين يا تقيّ الدين يجاهدون العدو ويعرضون أنفسهم للموت، ثم هم بعد ذلك لا يتورعون عن تضمين الخمر والزنا لكسب المزيد من الأموال.

- الحمد لله يا شرف الدين فقد أبطل سادتنا العلماء في دمشق قرار السلطان المنصور قلاوون.
- ألا ترى في ذلك تناقضا يا تقيّ الدين؟
- بل الأعجب من ذلك أن جهاد السلطان المنصور قلاوون ما زال مستمرا، فبعد أن جمع له أبغا خان سلطان التتار في حمص خيله ورجله من عساكر المغول التتار ومن حالفهم من الروم والعرب، هزمهم المنصور قلاوون شر هزيمة وهو يستعد الآن للعودة إلى دمشق.
- سمعت أن موكبه اقترب من دمشق وأن نائبها يهيئها لاحتفال عظيم.
- حق للمسلمين أن يحتفلوا بالنصر على هؤلاء الكفار ومن والاهم من بني جلدتنا.
- هل سمعت يا أخي بفاجعة إخواننا بقاسيون رحمهم الله؟
- لم أسمع، خيرا إن شاء الله؟
- لقد أُخبرت أن مئذنة مسجد مدرسة أبي عمر بقاسيون وقعت على المسجد العتيق ومات أناس تحتها، هل هم شهداء يا تقيّ الدين أو مجرد قتلى؟
- من مات تحت الهدم من المسلمين فهو شهيد كما ورد عن نبينا صلى الله عليه وسلم.
- وأولئك الذين ماتوا بحريق سوق اللبادين هل هم شهداء أيضا؟
- نعم هم كذلك إن شاء الله.

- وما السبب في ذلك دون غيرهما من الميتات؟
- الحكمة من جعل هؤلاء شهداء: أن موتتهم كانت شديدة، فكُفِّرت عنهم ذنوبهم، ورفعت درجاتهم حتى ألحقتهم بدرجة الشهداء، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الشَّهَادَةُ سَبْعٌ سِوَى الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: الْمَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالْغَرِقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ، وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ الْحَرِيقِ شَهِيدٌ، وَالَّذِي يَمُوتُ تَحْتَ الْهَدْمِ شَهِيدٌ، وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدٌ» رواه الإمام مالك في الموطأ.
- وكأن الصفحات ماثلة أمامك يا تقيّ الدين تستحضر منها ما تشاء وتستشهد منها كيفما شئت.
- معاذ الله يا شرف الدين إنما أستشهد منها ما وافق الحق وما شاء الله ثم رسوله لا ما شئت أنا، فمن أنا حتى يكون لي قول على الله بغير علم.

ينضم إلينا زين الدين ووجهه يتهلل من البشارة التي يحملها ويقول:

- جِئْتُكَم مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ، ها هو بشير على أثري من ساحة معركة حمص طلبت منه الحضور ليحدثنا.

يقول شرف الدين:

- الحمد الله نعم ما فعلت، ولكن قبل قدومه أخبرني يا تقيّ الدين، ماذا تسمي من مات غمّا من هؤلاء الكفار؟

- هو كافر في النار إن مات على ما هو عليه، سواء أمات غما أم مات هما. وما شأننا بذلك.
- لقد وصلت بعض الأخبار غير المؤكدة أن ملك مغول فارس أبغا بن هولاكو مات غما بعد المعركة الأخيرة.
- الحمد لله على هلاكه.
- بشارات تتلوها بشارات.

يحضر البشير الذي استعجل القدوم إلى دمشق قبل جيش السلطان، فأجلسناه بيننا وأخذ يحدثنا فقال:

- ثبت السلطان المنصور قلاوون ثباتا عظيما جدا في ألف من عساكره، وقد انهزم أغلب جيشه، والتتار في آثارهم حتى وصلوا بحيرة حمص فقتلوا على أسوار المدينة خلقا كثيرا من العامة، وأشرف المسلمون على خطة عظيمة من الهلاك، ثم إن أعيان الأمراء من الشجعان تعاهدوا على الموت فيما بينهم لما رأوا ثبات السلطان وعادوا بعد فرار، وحملوا حملات متعددة صادقة، فكسر الله بحوله وقوته التتار، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ولولا ثبات السلطان في مكانه تحت السناجق والرايات السلطانية، والكوسات تضرب خلفه لكان التتار الآن على أبواب دمشق.

الجميع:

- الحمد لله.

- وقد تركت السلطان في طريقه إلى دمشق وبين يديه الأسارى بأيديهم الرماح عليها شقف رؤوس القتلى.

(5)

البسملة

دمشق (682) هجري

أرسلتْ أشعتها من الأفق مارة بمرج السلطان والنشّابيّة فكان أول ما داعبتها بدفء حرارتها طيور دير العصافير، ثم ارتفعت فمدت ظلا طويلا لمقدم العمران فبدا طويلا ما لبث أن انقبض فأخلى دمشق من العتمة وحلّاها بالضياء، يتسلل بين البيوت والدور يقرعها مؤذنا بيوم جديد، كان أول من استيقظ فيه الخبَّازون الذين وقف ببابهم خادم اشترى فطوره خبزا ساخنا أسرع به إلى وظيفته بدار القضاء التي تقسمت إلى أربع نواحٍ كما المساجد، لكل مذهب منهم ناحية، أُطفئت السرج والقناديل في نواحيها وسادت شمس ذلك النهار وحدها.

جلس قاضي القضاة بهاء الدين بن الزكي الشافعي، والشيخ تاج الدين الفزاري شيخ الشافعية، والشيخ زين الدين بن المنجا الحنبلي في دار القضاء على بسطة مستديرة مفروشة بوسائد كتان محشوة بالصوف، يتداولون بينهم أمور القضاء وما استشكل عليهم من قضايا فقهية عند تنزيلها على الواقع، إذ الفتوى الشرعية غير الحكم القضائي.

قال قاضي القضاة بهاء الدين:

- انظروا مثلا إلى التيس المستعار، يكون عقد زواجه سليما إذا خلا من أي شرط ناقض فنجيزه في دار القضاء ونحن لا نعلم ما ضمر من نيّة مُبيّتة بالتحليل.
- لك الظاهر والبواطن عند الله. أجاب تاج الدين الفزاري.
- لكن ترك توضيح هذا الأمر يوقع الناس بالحرام. علق زين الدين بن المنجا.

يدخل عليهم الشيخ زين الدين بن المرحل:

- السلام على السادة العلماء.

فيجيبون مجتمعين:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- ما هي أحوال شيخنا قاضي القضاة وشيوخنا الأفاضل.

يعتدل الشيخ بهاء الدين في جلسته يتوسع في المجلس ليجلس الشيخ زين الدين بجانبه:

- أحوالي بخير تفضل اجلس بجانبي أيها الحبيب.
- لا وقت للجلوس أحببت أن ألقي عليكم السلام قبل ذهابي.

يسأل الشيخ زين الدين بن المنجا:

- ما وراءك يا ابن المرحل إلى أين ستذهب؟

- سأذهب إلى دار الحديث السكّريّة بالقصاعين.
- لماذا؟ يسأل القاضي متعجبا.
- سأحضر درس الفتى تقيّ الدين، ابن الشيخ عبد الحليم ابن تيمية رحمه الله.

مجتمعين:

- رحمه الله رحمة واسعة.
- لقد كان نعم العالم المُحقق وكانت حلقته في دار الحديث السكّريّة حلقة عظيمة الفائدة كثيرة النكت.
- لقد لفظت حرّان خيرة علمائها إلى دمشق، وهذه أيضا زينب بنت مكي الحرّانيّة أسند من بقي من نساء الدنيا تجود علينا بعلمها.
- كم مضى على موت الشيخ عبد الحليم رحمه الله؟ يسأل الشيخ بهاء الدين.
- ربما عام أو أقل.
- وهل استلم ابنه تقيّ الدين مكانه بدار الحديث.
- نعم.
- وما سبب اهتمامك بحضور درس الفتى ولم يبلغ من العمر كثيرا.
- لقد بلغ الثانية والعشرين من عمره وسمعت أنه واسع العلم غزير المعرفة منقطع النظير في حفظه، فقد حدثني أحد مشايخ حلب أنه سمع عن تقيّ الدين في حلب وهو صبي صغير يتردد إلى الكُتّاب وحضر إلى دمشق ليراه

ويختبره، فأملى عليه عدة أسانيد ومتونا انتخبها فلم يزد تقيّ الدين على أن نظر فيها فقال له الشيخ أسمعها عليَّ فقرأها تقيّ الدين كأحسن ما أنت سامع، فقال الشيخ إن عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم فإنّ هذا لم يُر مثله.

- أهو كذلك!!
- وقد سمعت أيضا أنه تمكن من حل لغز الرشيد الفارقيّ المكوّن من مائة بيت شعر عجز عن حله أكابر العقلاء.
- ما شاء الله.
- وقد أردت أن أتأكد من نباهته بنفسي فعزمت على حضور درسه.
- ومنذ متى وهو يدّرس مكان والده؟
- هذا درسه الأول.

يتحمس قاضي القضاة ويقف مستحثا الجلوس الوقوف معه:

- هلم بنا نحضر درسه، فلعل دمشق تفجؤنا بفلذة من كبدها يكون له شأن عظيم، فلم تحظ دمشق بذلك منذ وفاة شيخنا محي الدين النووي الشافعي طيب الله ثراه قبل سبع سنوات.

يسبقهم ابن المرحل إلى خارج دار القضاء قائلا لهم:

- سأبحث عن مكاري يحضر لنا بغالا توصلنا إلى القصاعين.

***

بلباس الفقهاء، فرجية ودَلَق وعمامة لا يزيد سعرهم عن ثلاثين درهما يتربع على الكرسي وفي قلبه رهبة العلم وهيبة كرسي والده الذي أخلاه له بموته، وما زالت تعتصر قلبه ذكرى وفاته والمرارة التي تركها غيابه في قلب أمه ست النعم، كان يحب والدته حبا جما وكم تمنى لو أنه أمضى وقته تحت قدميها يرنو برّها ورضاها، لكن انشغاله بالقراءة والعلم كان ينسيه كل شيء حتى الأكل، فإن غابت أمه عن البيت لسبب أو لآخر كان يمضي يومه دون طعام ولا يتذكر أنه جائع إلا إذا ذكره أحد بذلك، فقد كان في حاجاته الشخصية كالطفل بحاجة إلى رعاية وتذكير بخلاف حاله مع العلم والقراءة فقد كان فيها كالحكيم جهبذا لا يُبز، ما إن يترك القراءة أو الكتابة في استراحة قصيرة على كرسيه في مكتبة أبيه من أجل أن يصبّ شمع النحل المذاب بالقنديل أو ليرجع بظهره إلى الخلف يتمطّى ليريح رقبته وجذعه، حتى يتذكر تلك الصيحة التي دوت في حوش البيت يوم وفاة والده، صيحة ست النعم التي أخرجته من معتكفه مسرعا، فرأى الحزن تجسد على وجه ذاهل ورأى الخرس وقد ربط على لسان إلا من «إنا لله وإنا إليه راجعون». أدرك السبب فضمّها إلى صدره ضمة الثكل المواسي ثم أسرع إلى غرفة نوم والده فرآه مسجّى هناك فغطى وجهه بالدثار الذي كان يتقي به الحمى التي أصابته. هو لغاية هذه اللحظة لا يعرف أيهما أشد عليه، حزنه على والدته التي ترمّلت أو حزنه على والده الذي مضى، إلا أن جلوسه على الكرسي في دار الحديث السكّريّة في هذا اليوم حرّك في نفسه ذكر والده الغائب أكثر من ذكرى والدته الثكلى.

سكن لفترة فظن الحضور أنه أُغلق عليه وأنه أقل من منصبه الذي تبوأه بهذا العمر، وظن الآخرون أن صوت الدلّال بالسوق خارج المدرسة هو السبب فخرج ليطلب منه أن يخفض صوته، ولعل بعض القائمين على دار الحديث ندم على تقديمه مكان والده وحسبه دون الكرسي، تبادل الحضور النظرات فيما بينهم مستغربين محتارين، فبادر أحدهم قائلا:

- السلام عليك يا تقيّ الدين ورحم الله من كان غيابه سببا في اعتلائك هذا الكرسي.

أفاق تقيّ الدين على وقع الكلمات وعاد بذاكرته إلى كرسي السكّريّة، الذي كان آخر عهد والده عبد الحليم بحديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الآن أول عهده به، تذكر مكانته من ذلك، فاستحضر وقوفه بين يدي الله فيما أوجبه عليه من الأداء، بعد أن قطع شوطا من التَّحَمُّل، فسكنت نفسه المضطربة وارتخت جوارحه، فَفُتح أمام عقله طاقة، وكأنها قِرَب السحاب وقد انهمرت بغيث من العلم، وبركات من السماء هطلت، كذا سيكون دأبه لمَّا يُحَدِّث، حضور بديهة وسيلان ذهن:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، رحم الله الميت وأطال عمر الحاضرين بالصحة والصلاح.

لو سلّم الأمر لنفسه فلربما ارتبك، لكنه منذ اليوم سيسلم نفسه للعلم إذ يتدفق، لتسير نفسه معه سير السحاب مع الرياح،

ويسيل الكلام من لسانه سيل النهر المُتدفّق، ربما أسرع قليلا في الكلام، فحجم ما يتدفق على ذهنه أسرع مما يخرج من فمه، مشكلة رافقته طوال عمره خاصة عندما يكتب لذلك كانت حروفه معجمة يصعب قراءتها:

- الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين أما بعد، فدرسنا اليوم عن البسملة، وهي قولنا (بسم الله الرحمن الرحيم) «اتفق المسلمون على أنها من القرآن في قوله: «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم» وتنازعوا فيها في أوائل السور حيث كتبت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ليست من القرآن وإنما كتبت تبركا بها وهذا مذهب مالك وطائفة ....»

بدت مخايل الذكاء على الشيخ تقيّ الدين وكان درسا هائلا عظيما، وقد كتبه الشيخ تاج الدين الفزاري بخطه لكثرة فوائده، وكثرة ما استحسنه الحاضرون. وقد أطنب قاضي القضاة بهاء الدين بن الزكي في شكره على حداثة سنه وصغره. وأصبح يجلس صبيحة كل جمعة على الناس يُفسر القرآن فَانْتُفِعَ بمجلسه، وبموافقة قوله لعلمه، وأناب إلى الله بسببه خلق كثير، ثم أُقرّ له بعد ذلك درس بالتفسير بالجامع الأموي سارت به الركبان.

(6)

السلطان

القاهرة (684) هجري

بخلاف السُّنَّة كان خِتاني عام اثنين وتسعين وستمائة وأنا بسن الثامنة، كان يوما مشؤوما، كلما تذكرته دب الرعب في أوصالي وارتجفت أطرافي، أمسكوا بي من أطرافي الأربعة كل يشد باتجاه حتى كادوا يمزقوني إلى أربعة أجزاء، حرصا منهم ألّا يتحرك وسطي حيث سيعمل مشرط الحلاق وستتم هناك المجزرة، كنت صغيرا لا أفهم ما قالوه لي من أن جزءا من عضوي الذكري سيُقطع، ولماذا ستقطعونه يا أمي؟ هل لذنب أذنبته أو هو من رسوم السلطنة التي ما زلتم تعلموني إياها منذ أبصرت النور في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من عام أربعة وثمانين وستمائة، بت أكره ذلك اليوم وتمنيت أني لم أولد فيه أو لم أولد أصلا، فإن قطعتم ما ستقطعونه فماذا سيحل بي وكيف سأتبول بعدها؟ وهل هناك استخدامات أخرى ستتأثر بهذا القطع كما قالت لي مُرضعتي ومُربيتي الست حدق، ما ضرّكم لو قطعتم ما ستقطعون على السنة النبوية وأنا بعمر سبعة أيام لا أحس بشيء ولا أخاف من شيء، فانتظار الألم أشد على النفس من الألم ذاته، والطفل عند ختانه بعد

سبعة أيام لا ينتظر ألم القطع لعدم إدراكه، بل يهوي عليه مشرط الحلاق بغتة فيتألم لساعات ثم يستقر أمره وينسى، وأنتم ما زلتم منذ أيام تمهدون لي الطريق وتهيئونني لهذا الحدث الجلل الذي أُعدّ له احتفال ضخم عمّت أخباره السلطنة كلها من مشرقها إلى مغربها، وسيُكتب عنه في صفحات التاريخ وفي جنبات الروايات، أن هذا اليوم هو يوم ختان السلطان الناصر محمد بن قلاوون، أي فضيحة هذه التي سيشهدها الملأ ويتحدث عنها التاريخ وأي حدث هذا حتى يُحتفل به، لو كان الشيخ تقيّ الدين حاضرا معكم لما سمح لكم بذلك ولأخبركم أن السنة هي إخفاء الختان لا إعلانه والاحتفال به وكأنه فتح من الله ونصر مبين.

ما حيلتي وأنا ولد صغير لا أملك من أمر ي شيئا، استجمعت ذاتي فحتى الصراخ منعوني منه بحجة أن ابن السلطان المنصور قلاوون أقوى الرجال على البسيطة، ما ينبغي له أن يُظهر الضعف إذا رأى السكين فوق ذَكَرِهِ، لأن قدره منذ ولد أن يكون سلطانا ابن سلطان وأخا سلطان وستكون بارقة السيوف دائما حاضرة فوق رأسه، فإن ثبت في هذه سيثبت في تلك، يعارك بها جيوش التتار التي ما فتئت تسعى لإكمال حلم جنكيز خان بالسيطرة على كامل الشام ومصر تمهيدا لدخول إفريقيّة، وستبرق السيوف فوق رأسي أيضا في ملاحقة فلول النصارى الذين ما زالت بقايا حصونهم المنيعة حاضر ة في الشام وفلسطين.

كان ختاني في الثاني والعشرين من ذي الحجة يوم الاثنين

وعُمل مَهَمٌ وحفل عظيم، ولعب أخي الأشرف خليل بالقبق وتمت للأمراء فرحة هائلة وعمت الاحتفالات عاصمة دولة المماليك القاهرة.

فتح أبي السلطان منصور قلاوون طرابلس التي عجز عن فتحها الظاهر بيبرس البندقداري عام ثمانية وثمانين وستمائة، ذلك أن أبي قدم بالعساكر المصرية إلى دمشق، فدخلها ثم سار بهم وبجيش دمشق وصحبه عدد كبير من المتطوعة وخلق من أهل القدس وما حولها، فنازل طرابلس يوم الجمعة، وحاصرها بالمجانيق حصارا شديدا، وضيق على أهلها تضييقا عظيما، ونصب عليها تسعة عشر منجنيقا، ففتحت عنوة، وشمل القتل والأسر جميع من فيها، وغرق كثير من أهلها الذين هربوا إلى البحر وسبيت النساء والأطفال، وأخذت الذخائر والحواصل، وقد كان لها في أيدي الفرنج ما يقارب المائة وثمانين عاما وقد كانت قبل ذلك في أيدي المسلمين من زمان معاوية رضي الله عنه فأعادها أبي إلى حاضرة المسلمين مرة أخرى.

وقبل عام من فتح طرابلس وأنا في الثالثة من عمري وقبل ختاني بخمس سنوات توفي أخي ولي العهد الملقب بالملك الصالح علاء الدين بالدسنطارية فوجد عليه أبي وجدا شديدا، وقد كان عهد إليه بالأمر من بعده وخطب له على المنابر من مدة سنين، فدفنه في تربته وجعل ولاية العهد من بعده إلى أخي الأشرف خليل وخُطب له على المنابر بعد ذكر أبي يوم الجمعة، ودقت البشائر

وزينت البلد سبعة أيام، ولبس الجيش الخلع وركبوا، وأظهر الناس سرورا لشهامته.

كان أخي جاد الهيئة حاد القسمات مستريب النظرات غير محبوب بادئ أمره، لكن أبي كان على دراية كاملة بمشكلة دولة المماليك الرئيسية، فمع أنها تميزت بالجهاد ووحّدت الأجزاء الرئيسية من الأمة الإسلامية من الشام ومصر والحجاز واليمن وفتحت الأمصار وحفظت البيضة ونشرت العلم وبزت الأمم الأخرى بالعمران، إلا أنها فقدت تلكم العصبيّة التي قامت عليها ما سبقها من دول المسلمين، فلا حكامها عرب نزل عليهم القرآن بلغتهم، ولا هم قريشيون أخذوا شرعية الحكم من أحاديث نبيهم، ولا هم سلالة ملوك يتوارثون الحكم كابرا عن كابر، أدرك أبي هذا المقتل والعيب في دولتنا فما إن يُقتل سلطان حتى يتقاتل الأمراء على الحكم من بعده، وتاريخنا حافل بذلك من قبل يوم ختاني ومن بعده.

فإن ترك أبي ولاية العهد فارغة بعد موت علاء الدين ولم يأخذ البيعة لأخي خليل فإن ذلك يعني حتما القتال بين الأمراء، عجيب أمر الإمارة هذه كيف يذبح الأمراء بعضهم البعض ويدسون السم لبعضهم من أجل الظفر بها، وهم في ذلك بين أمرين إما القصر وإما القبر، فهذا أمر لا توسط فيه، فإن لم تغلب وتصل إلى كرسي الإمارة فالنتيجة الحتمية هي قطع رأسك بتهمة الخيانة. ومع ذلك فإنك تجدنا بعد ذلك فرسانا في المعارك نفتح

البلاد ونعمر الحواضر ونحفظ بيضة المسلمين، سياحتنا ما بين الجهاد والحج.

تولى أخي ولاية العهد وكان في نفسه يكرر مقولة امرئ القيس «اليوم خمر وغدا أمر» فما لبث أن استلم الحكم بعد والدي حتى بدأ باستكمال فتح عكا سيرا على خطى والدي الملك المنصور قلاوون.

كان فتح عكا عام تسعين وستمائة أي قبل ختاني بعامين، فقد استطاع أخي السلطان الأشرف خليل بن قلاوون تحقيق ما لم يحققه السلاطين العظماء من آل زنكي والأيوبيين فلا صلاح الدين ولا المظفر قطز ولا الظاهر بيبرس البندقداري ولا غيرهم، استطاع فتح عكا أحصن المدن وأقوى الإمارات الصليبية التي قامت على أراضي المسلمين منذ الحملات الصليبيّة الأولى.

تشاءم بعض الناس من ولادتي خاصة في الشام يوم انعقدت زوبعة قبل ختاني بسبع سنوات بأرض حمص ثم ارتفعت في السماء كهيئة العمود والحيّة العظيمة، وجعلت تختطف الحجارة الكبار، ثم تصعد بها في الجو كأنها سهام النشاب وحملت شيئا كثيرا من الجمال بأحمالها، والأثاث والخيام والدواب، وفقد الناس من ذلك شيئا كثيرا، وفي هذا اليوم أيضا وقع مطر عظيم في دمشق وجاء سيل كثير ولا سيما في الصالحية وأتلف كتب الشيخ عبد الحليم ابن تيمية.

كنت بريئا مسكينا قبل ختاني بثلاث سنوات يوم سمعت أن القاضي أمر بحرق نصراني علنا بعد كبسه مع مسلمة يشربون الخمر في رمضان، وكعادة الأطفال لا تستسيغ عقولهم ولا تتحمل عواطفهم سفك الدماء، إلا أن الدم الذي سال من بين فخذيّ بذلك اليوم المرعب يوم ختاني وطهوري كان بداية إدراكي أن هناك أمورا في الحياة لا يصلح معها إلا الدم، لم أتجاوز الخامسة عشرة من عمري يوم سالت لأول مرة دماؤنا في معركة وادي الخازندار وهرب الجيش الذي كنت على رأسه من الشام إلى مصر بعد أن هَزَمَنَا جيش قازان ملك التتار هزيمة نكراء. وأسلتُ الدم ثانية يوم قتلت من عزلني عن الحكم، كذلك هو الملك وتلك هي السلطنة، فبغير الحزم والعزم لا تقوم للمسلمين قائمة، وما قتال علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما إلا من جنس هذا القتال، فمبغيٌ عليه وباغ، أمرٌ كتبه الله على العباد منذ قَتَل قابيلُ هابيل.

(7)

فتح عكا

عكا (689) هجري

لم تكن النار التي ظهرت في المدينة المنورة واستمرت لثلاثة أيام عام اثنين وتسعين وستمائة كتلك النار التي ظهرت قبل ثمانية وثلاثين عاما هناك واستمرت لثلاثة أشهر وأضاءت لها أعناق الإبل في بصرى الشام، إلا أن بداية ظهور هذه الجديدة أعاد للناس أهوال تلك النار القديمة، وظنّ الناس أنّ هذه الثانية ربما تكون النار التي تجمع الناس إلى محشرهم في بلاد الشام، ولكنها ما لبثت أن خمدت بعد ثلاثة أيام، فاطمأن الناس أنها ليست من علامات القيامة، لكن القيامة الحقيقة كانت على الصليبيين في الساحل الشامي قبل ذلك بعامين حيث سقطت أعظم وأقوى إماراتهم إمارة عكا، الإمارة التي يحتفظ فيها أقوى فرسان النصارى شكيمة وأشرسهم قتالا وأصلبهم عقيدة؛ فرسان الهيكل بالكأس المقدّس، وهي الكأس التي يعتقدون أن عيسى عليه السلام شرب منها في العشاء الأخير يوم أنزل الله عليهم مائدة من السماء قبل أن يُصلب شبيهه.

جاء البريد إلى دمشق في مستهل ربيع الأول لتجهيز آلات الحصار، ونودي في دمشق الغزاة في سبيل الله، وتضمن بريد والدي السلطان المنصور قلاوون عمل مجانيق لحصار عكا، ودبابات مكسوة بجلود الأنعام غير القابلة للاحتراق تتسع كل واحدة لستين فِداوي مدرب لاقتحام أسوار عكا العالية، وكباش ضخمة مصنوعة من جذوع الشجر المعمر العريض لاستخدامها في دك الأبواب المُترسة يحملها عشرة جنود مدربين خمسة عن يمينها وخمسة عن شمالها يستظلون من فوقهم بالتروس والجلود يحتمون بها من السهام ومن الماء أو الزيت المغلي الذي سيمطرهم به حماة السور من فوقهم.

ركب نائب السلطنة إلى أراضي بعلبك، لما هنالك من الأخشاب العظيمة التي لا يوجد مثلها بدمشق، وهي تصلح لبناء المناجيق، والدبابات والكباش، فكثرت لأجل ذلك الجنايات والجبايات والسُّخَر في كل مدن الشام، وهذا شيئ لن أفعله يوم أصبح سلطانا، وكلفوا الناس تكليفا كثيرا، وأخذوا أخشاب الناس، وأحضروا معهم النجارين والبنائين والصناع، وحملت الأخشاب إلى دمشق بكلفة عظيمة وشدة كثيرة.

أما السلاح الأهم فكان النار الإغريقية التي أحضر لها والدي خبراء متخصصين من بلاد ما وراء النهر وأشرف بنفسه على صناعتها، حيث يتم إحضار اللباد وأنواع خاصة من الأقمشة ذات قدرة امتصاص عالية للسوائل، ويصنع منها كرات بقُطر ذراع وتربط

إلى بعضها وتُشدّ ثم تُنقع بخليط من النفط والقطران والزفت وزيت الحوت، وأحيانا يُستخدم في صناعتها النافتا والجير الحي، تُخلط بنسب مختلفة حسب الاستخدام للأهداف المتعددة وللمسافات المختلفة، تقذفها المناجيق بعد إشعالها وتمتاز أنها لا تُطفأ بالماء وتلتصق بالحجارة والدور والمعرشات والأبواب الخشبية إذا ما وقعت عليها، فتحدث دمارا هائلا ،كما أنها تضعف الأسوار الحجرية إذا تم قذف نفس المكان مرارا وتكرارا كما تؤدي إلى ذوبان الأبواب الحديدية حسب سماكتها.

خرج والدي السلطان المنصور قلاوون عام ثمانية وثمانين وستمائة من مصر وأوكل إلى ولي عهده أخي الأشرف خليل نيابة مصر، وتركني وأنا لم أتجاوز الخمسة أعوام في حضن مرضعتي ومربيتي الست حدق، توجه بعدها إلى الشام ليجمع هناك العساكر المصرية والشامية لطرد النصارى من كافة السواحل الشامية، ومن أجل التجهيز للمعركة الكبرى معركة حصار عكا وفتحها، وكان مما استفزه واستعجله أن النصارى من أهل عكا في هذا الحين اعتدوا على من عندهم من تجار المسلمين فقتلوهم وأخذوا أموالهم.

سبقت السلطان المنصور قلاوون إلى حواضر الشام كتبه ورسله التي أمر فيها الأمراء بالاستعداد للمعركة وحض الناس على التطوع في واحدة من أكبر المعارك التي سيقودها في حياته وربما أهمها بعد حطين وعين جالوت، معركة لم يتطوع الشيخ تقيّ الدين ابن تيمية للمشاركة فيها، لكن الموت كان أقرب إلى أبي من ذلك

الشرف ومن تلك المكانة فمات بعد فتح طرابلس وقبل فتح عكا. ركب أخي بعد وفاة والدي من الديار المصرية بعساكره قاصدا عكا، ورفض مقابلة وفد عكا المحمل بالهدايا برئاسة فيليب ماينبيف لإقناعه العدول عن خطته، وضرورة الحفاظ على المعاهدة القديمة التي نقضوها هم بأنفسهم، وكنت حاضرا هناك في القلعة أنظر من خلف الستارة أنا والست حدق يوم قام أخي بحبس الوفد.

عزم أخي على استكمال ما أقدم عليه والدي السلطان المنصور قلاوون فحسم بحكمته وشجاعته وإقدامه أي نزاع محتمل على السلطنة، فتمت بيعته على ظهر جواده والجهاد مشتعل، فلا فسحة هناك لكبراء المماليك للتفكير في السلطة كعادتهم عند فراغ منصب السلطان سُنَّتهم منذ موت المظفر قطز.

أبرزت المناجيق من دمشق إلى ناحية الجسورة، وخرج عامة الناس والمتطوعة يجرّون في العجل حتى الفقهاء والمدرسون والصلحاء، وخرجت العساكر بين يدي نائب الشام، وخرج هو في آخرهم، ولحقه صاحب حماة وخرج الناس من كل صوب، واتصل بهم عسكر طرابلس واجتمعوا جميعا مع أخي السلطان الأشرف خليل حول عكا بانتظار وصول الأسطول المصري لمحاصرة عكا من البحر.

توافدت الجيوش من كل مكان حول عكا ونازلها أخي في ربيع الآخر من عام تسعين وستمائة ونصب عليها المناجيق من كل ناحية يمكن نصبها عليها، واختار لها بُعدا دون مرمى سهام

الصليبيين، وتقدم المناجيق؛ المنجنيق المنصوري تجره مائة عجلة واستغرق جرّه شهرا كاملا.

اجتهد الجند غاية الاجتهاد في حصار عكا والتضييق على أهلها، وأمطرت عكا وأسوارها بالنار الإغريقية فكانت أكبر مفاجأة للصليبيين وارتعدت أوصال حراس السور فرسان المعبد، والإسباتريه، وفرسان التيوتون الألمان من منظر المنجنيق المنصوري يتقدم على رأس اثنين وتسعين منجنيقا تجرها الثيران السوداء ومن ورائهم الدبابات والكباش والعرّارات وآلات الحرب والحصار غير المسبوقة، وأربعة جيوش يقودها نواب السلطان الأشرف خليل، جيش دمشق، وجيش حماة، وجيش طرابلس، وآخرها جيش الكرك.

تكاثر الدعاء لأخي ولآل قلاوون يوم الجمعة في دمشق والقاهرة واجتمع الناس بالجوامع لقراءة صحيح البخاري كعادة الناس عند النوازل، فقرأه في المسجد الأموي بدمشق الشيخ شرف الدين الفزاري كما أُخبرت لاحقا، وحضر القضاة والفضلاء والأعيان. وارتفعت الأيدي وسالت العيون واجتمع الختميّون في المساجد يختمون القرآن، وأصخت المسامع بانتظار أي خبر يأتي به البريد اليومي بين دمشق وبين جيش السلطان حول عكا، وفي الأذهان فشل جيش صلاح الدين الأيوبي في استعادة عكا وعودته خائبا منها رغم انتصاره في حطين وتحريره لبيت المقدس قبل ما يقارب المائة عام، تحولت عكا بعد فشل وإخفاق صلاح الدين إلى

أهم مراكز النصارى على ساحل الشام، وصارت تمثل تهديداً كبيراً لدولتنا وللمسلمين في الشام ومصر، حيث اعتبرها النصارى نقطة انطلاق لتحقيق حلمهم بالاستيلاء على بيت المقدس من جديد.

نصب الأشرف خليل دهليز السلطان الأحمر فوق التلة المواجهة لبرج المندوب البابوي على أسوار عكا على مسافة غير بعيدة من شاطئ البحر، وراقب المكان المحدد المختار من السور الذي تساقطت عليه مقذوفات المنجنيق المنصوري لا يتوقف عن القذف إلا للتذخير أو للتفقد والصيانة، وكان كلما زاد حجم المقذوف أُحضرت الأثقال لتثبيته في الأرض حتى لا يقلب، ويتم تغطيته باللباد المبلل بالماء حتى لا يصيبه شرر من النار الإغريقية فيحترق.

سَيَّر أخي المعركة من دهليزه وصمم على الهجوم الكاسح بعد الحصار ودكّ الأسوار والحرق بالنار العادية والإغريقية والتي لم تفرق بين المقاتلة والعوام من سكان عكا، فرتب الكوات ثلاثمائة حمل، ثم زحف يوم الجمعة بعد أربعين يوما من بدء المعركة، ودقت الكوات جملة واحدة عند طلوع الشمس، وطلع المسلمون على الأسوار مع طلوع الشمس ونصبت السناجق والرايات المملوكية فوق الأسوار، وفرَّ فرسان المعبد بكأسهم المقدّس قبل الناس وولت النصارى الأدبار، وركبوا هاربين في مراكب التجار. وقتل جيش المسلمين منهم عددا لا يعمله إلا الله، وغنموا من السلاح والأمتعة والبضائع والرقيق شيئا كثيرا جدا، كثيرٌ منهنَّ أصبحن الآن جواري في القصر.

أمر السلطان الأشرف خليل بهدم سور عكا وتخريبها، بحيث لا ينتفع منها النصارى بعد ذلك إن فكروا غزوها بحرا، وعلى إثر هذه المعركة سلَّمَ أمراء صور وصيدا قيادتهما إلى أخي ثم فُتحت طرطوس وبيروت وجبيل، فاستوثقت السواحل التي كانت بأيدي الصلبيين مددا طويلة لدولتنا، وتنظفت من الصليبين ولم يبق لهم فيها حجر واحد.

دخل السلطان الأشرف خليل بن المنصور قلاوون أخي الكبير، دمشق عزيزا منتصرا في أبّهة الملك، وحرمة وافرة، وفي صحبته الجيوش المنصورة، وبُسط له -حسب ما وصفه لي لاحقا الشيخ ابن تيمية- بدعة وسرفا مما لم يفعل لأسلافه، وتابع أخي بعد ذلك أخبار الانتهاء من بناء قلعة حلب بعد ما خربها هولاكو عام ثمانين وخمسمائة، وقام بنفسه بالإشراف على عمارة قلعة دمشق والدور السلطانية والطارميّة والقبة الزرقاء.

وسار السلطان نحو الديار المصرية في أواخر رجب بعد أن وصلتنا الرسائل المختصرة بذلك عن طريق الحمام الزاجل، ودخلها في تاسع شعبان في أبّهة عظيمة جدا، وكان يوما مشهودا وكنت في غاية الفرح أنظر إلى أخي وكأنه جبل ضخم لا تكاد عيني تحيط به، وأفتخر على الست حدق وأقول لها: هذا أخي السلطان الفاتح فمن أخوك.

***

لم يكن فراغ الشام من الصليبيين هو نهاية مطافها وختام أحداثها وأحزانها بل كانت على موعد مع صراع جديد بين مملكتين من أهم الممالك السبع التي تحكم العالم وهي الدولة المرينيّة في المغرب الإسلامي، وخانيّة مغول القبيلة الذهبية في القفجاق، وخانيّة مغول الجاغاطي ما وراء النهر، وسلطنة الهند وسلطنة الصين، وآخرها خانيّة فارس ودولة المماليك.

وسأكون أنا محمد بن قلاوون سلطان دولة المماليك من طرف وسلطان خانيّة مغول فارس قازان ابن أرغون حفيد هولاكو من طرف آخر قطبي الرحى منذ الآن في الصراع على الشام بعد فراغها من الصليبيين، لتلتقي على أرض الشام القوتان العظيمتان التترية والإسلامية في معركة كبيرة فاصلة نهائية يلتحم فيها أكثر من أربعمائة ألف مقاتل، تعلن نهاية المهزوم منهما.

مكتبة ياسمين

telegram
@yasmeenbook

(8)

بـغداد

تبريز (690) هجري

سالت مياهُ ينابيعَ حارةٍ على مسيرة أربعة عشر يوما شرق بغداد وشرق تبريز على ارتفاع يزيد عن اثني عشر ألف ذراع فوق قمة بركان جبل دماوند، تغلي الحِمَمُ بباطنه ترفع حرارة الينابيع فتُبَخِّرُ ماءها مؤذنة بثوران عهدته البلاد مُنذ اجتاحها جنكيز خان فأحرقت حممه الأخضر واليابس، تتطاير ذرات الماء الساخن تعلو في سماء التتار الزرقاء الأبدية تهطل على تبريز فَتؤجج فيها ثارات قديمة وتضرب بغداد بحرارة عهدتها منذ كانت عزيزة بالعرب فذلت بالأعاجم.

دار السلام بغداد عاصمة الخلافة العباسية لمئات السنين وحاضرة الإسلام، ذات القدر الشريف، والفضل المنيف، مثوى الخلفاء وبلد الفضلاء، مقر العلماء وحاضرة الدنيا، هي المدينة العتيقة ومثابة الدعوة القرشيّة، ذهب رسمها ولم يبق إلا اسمها. هي كالطلل الدارس رغم ما كانت عليه من العز والغلبة قبل إنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها، أصبحت كالخيال الشاخص، فلا تُشَدّ

إليها الرحال، لا مهوى للأفئدة فيها، ولا حسن فيها يستوقف الناظر، إلا نهر دجلة بين ضفتيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين، تُجلي من اقتات عليها باسم الدين وباسم النسب الشريف.

وقف الشاعر على أطلالها الخربة فأنشد:

لقد أقـام على بغـداد نـاعـيهـا
فليبكها لخراب الدهر باكـيهـا
كانت على ما بها والحرب موقدة
والـنـار تطفئ حسنا فـي نواحيها
تُرجى لها عـودة في الدهر صالحةٌ
فـالآن أضمر منها اليأس راجيها
مثل العجوز التي ولّـت شبيبتـهـا
وبـان عنها كمال كـان يُحظـيهـا

بغداد دار الخلافة عاصمة العراق وفارس وخراسان وأذربيجان وأرمينيا والبلاد الإسلامية كلها، ذلّت بعد عزّ وخربت بعد عمران، تلفحها نيران الحرائق كلما عنَّ ببال خانٍ من التتار تجديد مجد أجداده بالوصول إلى مغرب الشمس، أهلُها وقود جيوشهم، وشيوخها مادة حكمهم، عبث بتاريخها المجيد أصاحب

الأغراض ولوَّث طهرها كلّ ذي هوى، بأحرف العربية زَوَّروا تاريخها وبالأشعار خدعوا أهلها، فغدت في عهد خانيّة مغول فارس مدينة مهملة متهالكة تابعة لتبريز عاصمة خانيّة مغول فارس التي أصبحت تحكم البلاد التي كانت تحت بغداد، فباتت مَسُوُدَةً بعد أن كانت سائدة.

***

مات أرغون بن أبغا التتري خان دولة مغول الفرس القوي في نفس العام الذي فتحت فيه عكا فاختار الأُمراء ابنه قازان إلخانًا عام خمسة وتسعين وستمائة، وكان اعتلاؤه لِلعرش نُقطة فاصلة في تاريخ مغول فارس، لأَنَّهُ جاهر باعتناق الإسلام. واقتدى به مُعظم أُمرائه وضُبَّاطه وجُنده، لكن تحوُّل قازان إلى الإسلام كان شكليا، فقد رأى فيه أمرًا ضروريًّا لنيل ولاء عامة المسلمين تحت حكمه من أجل استمرار الحُكم المغولي الإيلخاني الذي آل إليه في بلاد أغلب سكانها مسلمون، وكانت الشريعة التي يحكم بها الناس ويسوسهم بها خليطا من الأديان والأحكام مرجعها جميعا شريعة جنيكز خان المسماة (الياسق)، وقدَّم له دخوله في الإسلام المخرج الأنسب من المأزق الذي أثقل بوطأته البلاد على أثر التطوُّرات الاجتماعية والسياسيَّة والمعاشيّة السلبيَّة التي ظهرت في عهد من سبقه، إذ عندما اعتلى العرش كانت علائم الانهيار قد أضحت واضحة في جسم الخانيّة.

ركب قازان في عساكره ودخل العاصمة تبريز سلطانا

جديدا ترافقه الخاتون زوجته في عربتها ومعها عساكرها، وحضر معهم الملوك والأمراء والنبلاء والفقهاء، دُقت بين أيديهم الأطبال ورُفعت الأعلام. وخُطب للسلطان أحسن الخُطَب، انتهى موكب السلطان إلى برج خشبي يسمى الكشك، فجلس فيه ومعه الخاتون، ونُصب برج ثانٍ دونه فجلس فيه ولي عهده أخوه خربندا بن أرغون، ونصب برجان دونهما عن يمينه وشماله فيهما أقارب السلطان وأبناؤه، ونصبت كراسي الصندليات للأمراء وأبناء الملوك عن يمين برج السلطان وشماله فجلس كل واحد على كرسيه ثم نصبت طبلات للرمي لكل أمير تومان طبلة مختصة به، وكل تومان يشمل عشرة آلاف جندي ينتظرون من أجل العرض على أميرهم، وحضر من أمراء التوامين عشرة يقودون مائة ألف من العساكر، وباقي عساكر التتار متفرقة في أمصار الخانيّة تحرس الحدود وتحفظ الأمن الداخلي للخانيّة حتى يتم تنصيب الخان الجديد.

نُصِبَ لكل أمير تومان منبر فقعد عليه، وعساكره يستعرضون بين يديه فكانوا على ذلك مدة، ثم خلع السلطان على كل أمير خُلعة، يلبسها ويأتي أسفل برج السلطان فيخدم. وخدمته أن يجثو أمام السلطان على ركبتيه ويقبل الأرض ويعلن بيعته، ثم أوتي بفرس مسرج ملجم لكل أمير فيرفع حافره فيمتطيه ويقوده بنفسه إلى منبره، ثم نزل السلطان عن البرج وركب الفرس المحلى بالذهب وعن يمينه ولي العهد وعن شماله الخاتون وخلفهم حريم السلطان من أقاربه في عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب، والخيل التي تجرها مجللة بالحرير المذهب. ونزل جميع الأمراء الكبار

والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة يمشون بين يدي السلطان على أقدامهم إلى أن وصل إلى قصر الحكم حيث نُصبت هناك باركة عظيمة، وهي بيت كبير له أربعة أعمدة من الخشب مكسوة بصفائح الفضة وفي أعلى كل عمود تاج من الذهب له بريق وشعاع، مُطلة على ساحة القصر الفسيحة ووضع عن يمينها ويسارها سقائف من القطن والكتان. وفرش ذلك كله بالحرير. ونصب في وسط الباركة السرير الأعظم يسمونه التخت، وهو من خشب مرصع وأعواده مكسوة بصفائح فضة مذهبة، وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة، وفوقه فرش عظيم.

جلس السلطان قازان الذي أخذ اسمه بناء على تقليد قديم عند التتار في تسمية أبناء الملوك، إذ يسمون المولود على اسم أول من يدخل عليهم بعد الولادة مباشرة، وكان حامل (قدر الطبخ) هو أول من دخل على أمه يوم ولدته ويعني بالتترية قازان، أما وليّ عهده خربندا فيعني (خادم الحمار) لأنه كان أول من دخل عليهم، جلس السلطان قازان على عرشه في أبهة عظيمة أعادت للحضور تاريخ جنكيز خان وهيبته التي أرعبت العالم، رُفعت الرايات مع صيحات الأمراء معلنة بعدها عن صمت رهيب عمّ ساحة القصر الواسعة امتد برهة من الزمن، ثم تحت دقات الطبول أحضرت مجموعة من الغلمان تابوتا من خشب الصندل أطرافه مرصعة بالياقوت والأحجار الكريمة ويتدلى من أطرافه الديباج، يحملونه على أكتافهم فوضعوه أمام السلطان فقام الوزير الأكبر بخلع التاج عن رأس قازان فبانت صلعته وبرقت، ثم انحنى السلطان بكل

إجلال أمام التابوت وأخرج منه صندوقا من الذهب الخالص وبداخله كتاب الياسق فتناوله بيديه وقبله ووضعه على رأسه تبركا ثم وضعه على منصب خاص على يمين عرشه ووقف يخطب بالملوك والأمراء والجند، وخاصّة أهل تبريز وأعيانها:

الحمد لله ربي ورب المسلمين، والشكر لتنغري إله أجدادي هولاكو وجنكيز خان رب السماء الزرقاء الأبدية التي أظلت سهوب منغوليا وحاضرتها وعاصمتها (قراقورم)، مبتدأ أمرنا ومنطلق دعوتنا، والمجد لرب النصارى رب عمّي وحلفاء والدي أرغون.

نحن الذين امتدت دولتهم من مشرق الشمس إلى مغربها ونحن رحمة الآلهة وغضبها، رحمة على من يتبعنا وغضب على من يخالفنا، لقد علم العالم وعلمت التتار أننا أحرار في اختيار الإله الذي نعبد سنّة جدّنا مؤسس الدولة جنكيز خان، سنّة استمرت إلى يومنا هذا، وكانت دولتنا وما زالت موئلا لكل الأديان يأتيها الناس من كل الأصقاع يعبدون فيها ما يشاؤون، وقد تَوَّجَ آباؤنا أسماء قتلى المغول بالتاريخ السري للتتار المحفوظ في (قراقورم)، ليكون شرفا للأبناء والزوجات فهم من بفضلهم سادت دولة جنكيز خان المعمورة.

يلتفت السلطان إلى الياسق ويشير إليه بيده ويقول:

ولقد حفظنا عهد جنكيز خان الذي ولد من رحم الذئبة، فحين رمى جنكيز خان أخاه بسهم في ظهره وحين لوى جسد أعز

أصدقائه حتى شطر عموده الفقري وحين أعطى الأمر بدس السم لابنه لم ينكفئ بعدها ولم يتقهقر في مسيرته ولم يدع صلة الدم قط تحجب نظره عن أعدائه...

يجول قازان برأسه بين حاشيته وينظر إلى أمرائه وقادة جيشه يُذكّرهم بمصير من يخون ويستكمل:

في مرحلة ما يجب أن تختار بين قلبك وبين فكرك وهدفك، فأنت إما معنا وإما ضدنا، بهذا يُحفظ الملك ويستقر الحكم، فنحن من سيمهّد الطريق لشعبنا الذي سيأتي بعدنا بمئات السنين، كي يذكرونا ويشكرونا على أفعالنا، لذلك عشنا نصف عمرنا فوق ظهور الخيل، فطُرقت وجوهنا بمجان الحرب فتسطّحت.

ستكون أفعالنا نابعة عن دراسة وسياسة لا عن غضب وانفعال، فالأفعال النابعة عن الغضب محكوم عليها بالفشل، سنحكم العالم وننعم على الشعوب لنضمن ولاءها، فالطيور المعششة والكلاب التي تحظى بتغذية جيدة تعود دائما إلى أسوار سيدها.

لقد قال جنكيز خان مقولته العظيمة «لا خير في أي شيء قبل إتمامه» وإن حالت الظروف دون تحقيق حلم جنكيز خان فقد جاء اليوم الذي سيتحقق فيه حلمه أخيرا، لقد كان حلم جدنا فتح العالم، ووقفت الشام دون إتمام مسيرتنا نحو الخلود، نحو مصر وإفريقيّة لنعبر منها إلى أقصى بلاد الفرنج والإنجليز ونعود ملتفين حول بحر الروم.

ها هو سلطان المسلمين الأشرف خليل بعد هزيمتنا في معركة عين جالوت قبل ثلاثين سنة قد نادى الآن في الأقاليم بعد أن انتصر على النصارى حلفاء والدي في عكا أنه سيغزو العراق، فهل سنبقى في خلافاتنا ننتظرهم حتى يصلوا إلى تبريز، نحن خسرنا معركة عين جالوت لكننا لم نخسر الحرب، وسنعود إلى الشام من جديد، فالهجوم خير وسيلة للدفاع وهو وسيلتنا لتحقيق حلم جدنا الأكبر والخان الأعظم جنكيز خان.

لقد أهدى سلطان مصر إلى ملك الدولة المارينيّة في المغرب خمسة عشر تتريا بعد أن استرَقَّهم، فأجيبوني؛ أتريدون أن تصبحوا عبيدا يتهادى بكم الملوك؟ أم تريدون أن تصبحوا ملوك مصر وملوك ساحل إفريقيّة والمغرب وبحر الروم؟

بعد أيام ستبدأ احتفالات عيد القمر الأبيض، وبعدها ستأتينا الأخبار بالقضاء على البقية الباقية من الممالك السلجوقية المتهالكة، ثم سنعيد سيرة أجدادنا ونغزو الشام ومصر.

فاستعدوا لما هو قادم، فعدم إصابة الهدف بفارق صغير لا يختلف عن عدم إصابته بفارق كبير فاعرفوا هدفكم وصوبوا سهامكم.

ستصدر الأوامر بغزو الشام ومصر قريبا باسم السلطان وباسم الخواتين.

***

متعلق بأستار الكعبة بعد أن أدى شعائر الحج يحمد الله أن نجى الله موكب الحج الشامي الذي خرج معه الشيخ تقيّ الدين من دمشق قبل أشهر حين ضربتهم في معان ريح صرصر عاتية فمات منهم جماعة من الناس وحملت الريح جمالا عن أماكنها ومجموعة من الحجيج ممن خف وزنهم أو ممن لم يتمسك بثابت من الأرض أو لم يحتم ببناء يُظله، وطارت العمائم عن الرؤوس والملابس عن الأجساد وسدت الرمال الأنوف والآذان وفقد الحجيج الكثير من المتاع والميرة.

يدعو تقيّ الدين ربه بصوت خافت: اللهم ارحمنا برحمتك فقد أقبلت الفتن وأقبلت العواصف، ريح في الصحراء تنذر بشر أسود قادم، جحافل تزحف من الشرق لا تبقي ولا تذر، نسألك اللهم العافية، وما حيلتي بما هو آت وأنا العبد الفقير، أنا المسكين الضعيف بين يديك يا رب، أُمرِّغ وجهي ببابك، لا قبل لي بما لست أهله من البأس والقتال، فأعني واربط على قلبي، اللهم أنت أعلم بحالي مني، ربما أُفلح بالقراءة والتأليف ولكن أين أنا من غيرهما، اللهم أنت تعلم أني تخلّفتُ عن الخروج إلى عكا يوم نادى السلطان الأشرف خليل في الأقاليم بخروج المتطوعة مع الجيش، فاربط على قلبي وثبت قدمي إن نادى المنادي مرة أخرى، اللهم إن تخلفت عن حرب النصارى والصليبيين فاكتب لي في حرب التتار والمغول نصيبا، ولترَيَنَّ ما أفعل ... فأعنِّي.

ثم يُناجي ربه بكلمات في سرّه لا يعلمها إلا الله.

(9)

الست حدق

القاهرة (693) هجري

بعد عشرين سنة من الهجرة باضت يمامة على فسطاط فاتح مصر عمرو بن العاص بالقرب من النيل، فترك فسطاطه قائما حتى تفقس، رحمة بها وخوفا من الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب الذي لم يُفرّق في عدله بين من دبَّ على الأرض أو ما طار في السماء، فقامت مدينة حول فسطاطه سُمّيت الفسطاط، طارت عن أسوارها من ذرية هاتيك البيضة يمامة حملت الرياح أجنحتها بعد ثلاثمائة وثلاثين سنة حطّت في عهد المعز لدين الله الفاطمي على أول حجر وضعه في بناء القاهرة التي آل حكمها على أنقاض الدولة الأيوبية إلى آل قلاوون في عهد دولة مماليكَ على طريق المجد وضعت أولى خطواتها لمّا تنكَّب عن الطريق أصحابه العرب.

تطير بين أشجار الحدائق والبساتين في قلعة الجبل تتقلب بين الشرفات والأسوار، انتهى بها المُقام على شرفة أمير صغير خائف، تُسرّي عنه بالهديل والتغريد، فَزَّعها جلبة في القصر وخوف انتشر في أرجائه، فبعد موت السلطان أو قتله تصبح الحاشية القديمة

بحكم العادة كالواقف على شفا جرف هار، فكل مكتسباتها في ظل السلطان القديم قد تصبح وبالا وعذابا في ظل السلطان الجديد، وصل الخبر من الإسكندرية حيث ذهب السلطان الأشرف خليل في رحلة صيد يستجم فيها قليلا بعد ثلاث سنوات أمضاها على ظهر الخيل شاهرا سيفه عالية همته عزيزة نفسه، فطهر الساحل الشامي من الصليبيين ولم يبق لهم فيها أي موطئ للقدم وتابعهم حتى وصل أرض الروم فأخرجهم من قلعتي الروم وبهنسا أذلة صاغرين.

تركض مربية الأمير محمد بن قلاوون الست حدق إلى غرفته فزعة بعد سماعها خبر مقتل الأشرف خليل تاركة الكحّال الذي جاء ليداوي الرمد الذي أصاب عينيها ينتظر في الرحبة، فتفزع لفزعها اليمامة وتطير مبتعدة عن الشرفة ثم تعود وتهبط مرة ثانية تكرر ذلك ثلاث مرات تؤنس وحشة الأمير الصغير الخائف.

حاشية الأشرف خليل وقرابته أصبحت إلى الموت أقرب من أي وقت آخر، فالصبي البالغ من العمر ثماني سنوات هو المرشح الأول للقتل بعد أن أقدم بعض الأمراء بقيادة بيدرا ولاجين المنصوري على قتل الأشرف خليل، وذلك أنه خرج إلى الصيد فلما كان بأرض تروجة بالقرب من الإسكندرية، حمل عليه جماعة من الأمراء الذين اتفقوا على قتله حين انفرد عن جمهور الجيش، فأول من صوب إليه سهما كان نائبه بيدرا، وتمّم عليه لاجين المنصوري، ثم اتفق الأمراء على تمليك بيدرا، وسمّوه الملك القاهر، لكن قاهر اللذات كان له أقرب فلم يتم له الأمر وقُتل في اليوم الثاني بأمر

الأمير القوي زين الدين كتبغا، الذي جمع بالاتفاق مع الأمير علم الدين الشجاعي الأمراء واتفقوا على أن يُملّكوا محمد بن قلاوون الأخ الأصغر للمغدور الأشرف خليل.

***

يدخل الأمراء عنوة إلى غرفة محمد بن قلاوون فتضمه الست حدق ثم تضعه خلف ظهرها وهي تصيح بهم:

- لا تقتلوه هو مجرد طفل صغير.

يتقدم الأمراء تجاه الصبي فتهرب به الست حدق وتختبئ معه تحت السرير، وهو يرتجف بين يديها هامسا في أذنها: يا دادة مِسْكَة لا تتركيني.

فيصيح بها زين الدين كتبغا:

- أخرجي السلطان يا ست حدق.

تكرر كلامه بعجب:

- السلطان؟!

يجيبها الأمير علم الدين الشجاعي:

- نعم السلطان.

تخرج الست حدق ومعها الصبي ممسكة به بقوة وتقف

أمام الأمراء والذهول يتخبطها، فيتقدم الأمراء وينحنون جميعا أمام محمد بن قلاوون ويقولون بصوت واحد:

- مولانا السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون.

ترتبك الست حدق وتفلت السلطان من قبضتها ثم تتدارك وتقف بجانب الأمراء أمام السلطان وتنحني وتقول بلسان حُلَّت عقدته بصعوبة:

- مولاي قلاوون آآآ... بن الناصر إم إم إم ... السلطان حبيبي آآآآ .... محمد.

***

أُحضر جسد الأشرف خليل إلى القاهرة ودفن هناك في مقبرة السلاطين وتألم الناس على موته لأنه كان طيب النفس حسن النظر وكان قد عزم بعد أن طهّر الشام من الصليبيين أن يغزو العراق ويطهرها من التتار، واستعد لذلك ونادى به في البلاد كما نادى والده من قبل لتحرير عكا والساحل من الصليبيين فتم الأمر الأول وتعطل الثاني بقتل الأشرف خليل.

مذهولا لا يُدرك ما يُفعل به ولا يدري كيف يتصرف، غير تلك الوصايا التي علمته إياها الست حدق والتي لا يذكر منها إلا أن يخاطب الناس بصيغة الجمع (نحن) ولا يقول (أنا)، يُقَلِّد ما كان يُشاهده من حال أخيه الأشرف خليل حين يخرج

في موكبه من القصر، ينتقل حاله داخل القصر من ذلك الرجل العادي الذي يلاطف أهله ويمازحهم منحني الظهر مبتسما إلى ذلك الرجل الصارم الحازم خارج القصر، يشد ظهره إلى الخلف كأنه نخلة باسقة، لا يلتفت برأسه لا ذات اليمين ولا ذات الشمال، عيناه كأنهما عينا صقر تنظر فريستها في الأفق، ركب الملك الناصر في أبهة الملك مستحضرا هيئة أخيه الأشرف خليل ملتزما بها، غير مدرك لأهميتها، يشق القاهرة في أول ركوب له وفوق رأسه تطير يمامة تُؤنسه وتبدد وحشته، كان يوما مشهودا فرح فيه الناس بعودة الملك إلى آل قلاوون الذين رفعوا شأن البلاد وأعزوها.

جاءت بيعة الملك الناصر محمد بن قلاوون ودقت البشائر في مدن الشام وجاء المرسوم من السلطان إلى دمشق، فقرئ على المنبر بالجامع الأموي فيه الأمر بنشر العدل وطي الظلم، وإبطال ضمان الأوقاف والأملاك إلا برضى أصحابها، اجتمع الأمراء وأدوا الخدمة ثم خُطب له على المنابر، واستقر الحال على ذلك.

أصبح الأمير زين الدين كتبغا أتابك السلطان ووكيله، وعلم الدين الشجاعي مشاوره الكبير ثم ما لبث أن قُتل علم الدين الشجاعي، فلم يبق لزين الدين كتبغا منازع، ومع هذا كان يشاور الأمراء تطييبا لقلوبهم وضمانا لولائهم ثم ما لبث أن خَلع السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وألزمه بيت أهله، وألّا يخرج منه،

وجلس على سرير الملك وسمى نفسه الملك العادل زين الدين كتبغا وبايعه الأمراء على ذلك، وهنّؤوه ومد سماطا حافلا، وسارت البريديّة بذلك إلى أطراف البلاد، فبويع له وخطب له مستقلا، وضربت السكة باسمه. وتم الأمر وزينت البلاد، ودقت البشائر، وكان عمره إذ ذاك نحوا من خمسين سنة.

***

هولاكو في بغداد يسأل مُنَجِّمَه قبل خمسة وثلاثين سنة:

- استخرج لي من هؤلاء المقدمين من عساكري من الذي سيملك مصر.
- أمرك يا مولاي.

ضرب المنجّم بالرمل وطرح وجمع ثم قال:

- أجد من التتار رجلا يملكها اسمه كتبغا.

ظن هولاكو أن صهره القائد كتبغا نوين هو المقصود بالنبوءة فقدمه على العساكر وأرسله إلى حتفه قائدا للتتار في معركة عين جالوت من أجل فتح مصر وحكمها، فالتقى بالمظفر قطز فقُتل وهُزم هنالك.

ثم حكم مصر بعد خمس وثلاثين سنة زين الدين كتبغا وهو من الغويرانية وهم طائفة من التتار من سبي وقعة حمص الأولى أيام السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، فكان هو النبوءة لا قائد

معركة عين جالوت كتبغا نوين، كان الملك العادل زين الدين كتبغا من خيار الأمراء وأجودهم سيرة وعدلا، وقصدا في نصرة الإسلام وسيكون من أمراء المسلمين الذين سيقاتلون قازان حفيد هولاكو في المعركة القادمة المنتظرة.

(10)

الصارم المسلول

دمشق (693) هجري

كان وقع السوط على ظَهْرَيّ تقيّ الدين أحمد ابن تيمية والشيخ الفارقي مؤلما، فالموضع من الجسد يكون في غفلة عن النعمة التي يرفل فيها إذ هو معافى من الأعراض والحوادث، فيكون أول ألم يحل به بكرا مؤلما غير مسبوق، يصيح الفارقي بالجلاد:

- أُنضرب لأجل نصراني؟

بوجه ذي ملامح حجريّة يجيبه الجلاد بجلافة:

- اسكت أيها الشيخ، هذه أوامر نائب السلطنة وفي طاعة الأمير أجر.
- الطاعة في المعروف لا في معصية الله.
- وهل ضرب من يحرض العامة معصية أيها الشيخ؟!
- النهى عن المنكر ليس تحريضا.
- اسكت أيها الشيخ، لا علاقة لي.

ينتهي الجلاد من الضرب فيُؤخذ الشيخان إلى سجن

العذراوية بعد أن رسم عليهما نائب السلطنة بذلك، يُرمى بهما داخل السجن ويغلق عليهما الباب مع الفُتَّاك والسراق والشطار وأراذل أهل دمشق يتلهون باللعب بالشطرنج والنرد، يضع أحدهم حجر الشطرنج من يده وينظر إلى القادمين الجدد ويقول:

- لا يبدو عليكما أنكما من أهل الصنعة فما أتى بكما إلى هنا؟

فيجيبه الشيخ تقيّ الدين:

- السلام عليكم ورحمة الله، تلك سنة نبينا محمد نبدأ بها
- اللهم صل وسلم على نبينا محمد، عليكم السلام يا شيخ.
- أي صنعة تقصد؟
- أقصد صنعة أهل السجون، فلا يبدو على هيئتكما أنكما من أهلها.
- لا تجعلها لنفسك صنعة فتُكتب عليك وتلقى عليها ربك.
- هي واقع حالنا هنا، نخرج من السجن اليوم ثم نعود غدا بجُرم جديد من أجل عمر في السجن مديد.
- وهل يرضيك هذا الحال يا أخي.
- يا أخي!!!
- نعم، يا أخي.
- لم ينادني بهذا اللقب أحد منذ مدة، فأنا للناس إما عدوٌ أو في أحسن الأحوال منبوذ.
- ومن أغلق عليك الباب لتكون أخا للمؤمنين؟

- عملي وصنعتي.
- وهل من سبيل إلى تغييرها؟
- النية موجودة والعزيمة مفقودة.
- ما اسمك يا أخي؟
- اسمي عمّار.
- ونعم الأسماء، هل لك أم؟

يتردد قليلا ويجيب والدمع يترقرق في عينيه:

- هي في البيت تبكي حالي.
- هل تحبها؟
- أفديها بالدنيا كلها.
- فافعل إذاً، وَافْدِهَا بصنعتك وشرورك.
- كلما عزمت على ذلك تذكرت أعمالي ولم أجد لي مفرا منها فعدت إلى ما كنت عليه.
- هل قتلت نفسا؟
- حاشا لله، لم أصل لهذا الحد.

يتردد قليلا ثم يُتبع:

- لم أصل إليه بعد.
- فهل تعلم أن بعض صحابة رسول الله وصلوا إلى هذا الحد وأكثر.
- صحابة رسول الله!!

- نعم، هل سمعت بالمغيرة بن شعبة رضي الله عنه؟
- نعم سمعت.
- لقد كان المغيرة رضي الله عنه قاتلا مطلوبا بدم بضعة رجال من قومه ثقيف، لكنه أسلم وتاب وأصبح بعد ذلك حارس رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- حقا؟
- ولعلك سمعت بحديث قاتل التسعة وتسعين نفسا كيف قبل الله توبته.

أثار الحديث اهتمام المساجين فالتفوا حول الشيخ ذو الثلاثة والثلاثين عاما يستمعون ويسألون، وبعد أن أخذ كل منهم مراده منه تقدم أحدهم سائلا:

- وما سبب حبسكما وضربكما يا شيخنا.
- الحبس ضريبة القيام بأمر الله، وقد نهيت أنا والشيخ الفارقي عن منكر عظيم فاتهمونا بتحريض العامة وضربونا وحبسونا.
- وما الذي نهيتم عنه.
- شهد جماعة من الناس على رجل نصراني اسمه عساف من أهل السويداء أنه سبَّ النبي صلى الله عليه وسلم.

تتعالى أصوات المساجين مستنكرة:

- أستغفرُ الله العظيم
لعنه الله ... لعنه الله.

يستكمل الشيخ تقيّ الدين:

- وقد استجار عساف هذا بابن أحد أمراء آل علي، فاجتمعت أنا والشيخ.

يشير بيده إلى الشيخ الفارقي ويكمل:

- اجتمعنا بدار الحديث، فدخلنا على نائب السلطنة فكلمناه في أمره فأجابنا إلى ذلك، وأرسل ليحضره فخرجنا من عنده ومعنا خلق كثير من الناس، فرأى الناس النصراني حين قدم ومعه رجل من البدو قد أجاره فسبوه وشتموه، فقال لهم: هو خير منكم. يعني عسافا، فرجمهما الناس بالحجارة، وأصابت النصراني، ووقعت خبطة عظيمة فأرسل النائب في طلبنا فضربنا ورسم علينا في العذراوية.

ردد أحد المساجين:

- لا حول ولا قوة إلا بالله

وقال آخر:

- ويُفعل هذا بكما!!

فيرد الشيخ الفارقي:

- الحمد لله على كل حال.

فيسأل عمار الذي وقع في نفسه حب الشيخ تقيّ الدين بعد حوارهما معا:

- وما حكم هذا النصراني يا شيخنا؟
- حكمه أن يقدم فتضرب عنقه، بل لو فعل ذلك مسلم تضرب عنقه فجناب الرسول محفوظ لا يحق لأحد أن يتنازل عنه.

ثم يلتفت الشيخ تقيّ الدين حوله سائلا:

- هل يوجد عندكم هنا أدوات الكتابة، قلم ومحبرة وكاعد ورق؟

يضحك بعض المساجين، ويجيب عمار مبتسما:

- وهل ترى في حالنا ما يُنبِئُك بذلك، ولكن سنطلب ذلك من الحرس.

تتعالى أصوات المساجين تصرخ على الحرس أن يحضروا الأقلام والكاغد، ثم يلتفت الشيخ الفارقي إلى الشيخ تقيّ الدين مستغربا من طلبه وهم على هذا الحال مسجونين لم تبرأ ظهورهم بعد من جروح الجلد:

- وماذا تريد بالقرطاس والقلم يا تقيّ الدين؟
- سأكتب في المسألة، مسألة شتم الرسول صلى الله عليه وسلم؟

- اصبر قليلا حتى تخرج من السجن، ويكون بين يديك حينها المراجع والكتب التي تلزمك فيكون توليفك أحكم وأجود.
- أمّا الوقت، فمسألة حفظ جناب الرسول لا تَحتمل التأخير، وأما الكتب والمراجع فهي موجودة.

يلتفت الشيخ الفارقي حوله ويشير بيديه مستنكرا:

- وأين هي الكتب يا تقيّ الدين؟
- هي هنا في رأسي أحفظها عن ظهر قلب، اقترح اسما للكتاب يا شيخنا.
- هو كتابك فسمه ما شئت.

يفكر الشيخ تقيّ الدين قليلا ثم يقول:

- سأسميه (الصارم المسلول على شاتم الرسول).

يأتي الحارس فيصرخ به بعض المساجين:

- أين الكاغد والقلم.
- اسكتوا لا أقام الله لكم قائمة لم آت لهذا، أين المدعوان تقيّ الدين ابن تيمية والفارقي؟
- ها نحن هنا.
- تعالا معي فقد طلبكما الأمير.

يقف المساجين يودعون الشيخين وقد شعروا أن سجنهم

هذا أصبح أفضل حالا من بعض الزوايا والربط والخوانق، يضم عمارا الشيخ تقيّ الدين ويقول له:

- سأُرضي أمي يا شيخنا، سأُرضيها إن شاء الله، فلا تنسني من الدعاء.

استدعى النائب الشيخين فسارا مع الحارسين اللذين كانا يتحاوران:

- من المرأة التي كانت بباب السجن؟
- اسمها ست النعم وجاءت تسأل عن ابنها أحمد بين المساجين، فسألتها ما جنايته فقالت ككل الأمهات «ابني بريء ولا جناية عليه» ولكن الأمير لم يمهلني أن أكمل حديثي معها فقد أرسل في طلبي لهذا الذي نحن فيه؟
- مساكين هاتي النسوة، كل منهنَّ تظن أن ابنها في الحبوس العمومية بريء وهو على الحقيقة من النهّابين أو من أرباب الجنايات.
- الله المستعان.

أسرها الشيخ تقيّ الدين في نفسه ولم يبدها لهم وسار مع الشيخ الفارقي حتى وصلا الأمير في مجلس الحكم ومعه قضاة المذاهب الأربعة ومحتسب البلد وكاتب السر ومشدّ الدواوين فقال لهما الأمير:

- هؤلاء السادة المحتسب والقضاة ومفتش الدواوين هم المسؤولون في مثل هذه الحالة، ولقد قدم النصراني فأسلم، وعقدنا مجلسا بسببه، وأثبت بينه وبين الشهود عداوة، فحقنا دمه وأطلقنا سراحه.

يتقدم الشيخ خطوتين ويقول:

- أنت أدرى بصدق الشهود من كذبهم فهذا من شأن القضاء، أما شأن العلماء فالنهي عن المنكر.
- هذا واجبي وذاك واجبك يا تقيّ الدين، وأرجو منكما أن تعذراني، فتعدي العامة على نائب السلطنة وأخذ الأمر بيدهما بتحريض منكما لا يسعني السكوت عنه.

ترتسم قسمات الغضب على جبين الشيخ تقيّ الدين ويرد بصوت عال:

- نهينا عن المنكر ولم نُحرّض، «والمؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى، وقد لا ينقلع الوسخ إلا بنوع من الخشونة، لكن ذلك يوجب النظافة والنعومة ما يُحمد معه ذلك التخشين ...»

يتدخل الشيخ الفارقي مقاطعا تقيّ الدين قبل أن يتصاعد حديثه إلى ما لا تحمد عقباه:

- قمت بما عليك أيها الأمير وقمنا بما علينا.

فيقول الشيخ تقيّ الدين:

- دعك منه أيّها الشيخ، هل ستأتي معي إلى المارستان؟
- ألك هناك أحد؟
- لا، إنما هو ورد يومي من مواساة المساكين والمرضى والضعفاء.

يخرجان من عند نائب دمشق دون أن يلتفتا إليه وهو يضرب أخماسا بأسداس على بَلْوَتِهِ فيهما ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

***

لم يمض عام على حادثة عساف النصراني حتى ذاع صيت الشيخ تقيّ الدين في دمشق واشتهر كتابه في المسألة وكثر عليه الطلب عند الوراقين والنُّسَّاخ، ثم إنّ الشيخ أُذن له بالإفتاء بعد أن شهد له مجموعة من الفقهاء والقضاة، ولحق عساف بعد ذلك ببلاد الحجاز، ثم قتله ابن أخيه قريبا من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(11)

الحمويّة

دمشق (698) هجري

قدم الشيخ تقيّ الدين من سوق الوراقين الذي كان يكثر من زيارته يشتري منه أجود أنواع الحبر والورق إلى المدرسة الحنبلية وجلس بعيدا عن كرسي التدريس الذي اعتلاه قبل ثلاث سنوات بعد خلوه بوفاة ابن المنجي يتبادل هناك أطراف الحديث قبل موعد درسه مع تلاميذه ومن حضر من العامة، يَسألُ عن أحوال البلاد والعباد ويُسأل عن أحكام الفقه والمعاملات.

أحد التلاميذ بادر سائلا:

- شيخنا ما رأيك بهذا التقلب بأحوال الإمارة؟ كل فترة أمير وكل بضعة أشهر سلطان.
- هذا حالنا مع المماليك رغم حسن سيرتهم على العموم في الحكم ورعاية العلم والجهاد الذي لم يتوقف منذ عين جالوت لغاية الآن.
- وهل لهم علينا طاعة؟
- ما لم يأمروك بمعصية.

- ألم تر إلى لاجين المنصوري كان نائبا للسلطنة في دمشق ثم هو اليوم السلطان في القاهرة وغدا ربما يُقتل ويأتي غيره.
- له حق الطاعة حتى لو كان متغلبا بالسيف ما لم يأمر بمعصية وما لم يظهر كفرا بواحا.
- ألم يساهم بقتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون؟
- حتى وإنْ.
- يُقال أنّ بيدار هو الذي قتل الأشرف خليل ولم يهنأ بعدها بالسلطنة إلا يوما واحدا، ثم قتله زين الدين كتبغا أتابك السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ثم خلعه وتسلطن بعد ذلك قبل أن يأخذها منه لاجين المنصوري.
- كان الناصر محمد بن قلاوون صغيرا لم يتجاوز الثماني سنوات.
- ولكني يا شيخنا كنت أُفضّلُ أن يبقى الأمر في بيت قلاوون لما أظهروه من طيب سيرة وحسن تدبير وجهاد مستمر وفتوحات غير مسبوقة.
- لقد كان الأشرف خليل ينوي غزو العراق وتحريرها من التتار لولا الغدر به وقتله.
- لعل أخاه يستكمل سيرته وسيرة أبيه المنصور قلاوون.
- هناك احتمال كبير لذلك فقد جرت العادة أن إرث الملوك يسير في دماء أبنائهم.

يدخل أحد العامة مسرعا إلى المدرسة وعلى وجهه خوف

وفرح، خوف من الخبر الذي يحمله؛ ربما يكون من علامات القيامة، وفرح كونه هو ناقل الخبر إلى الشيخ قبل غيره، يقف لاهثا أمام الشيخ ومن حضر من التلاميذ.

- ما بالك؟ أخبر. يسأله أحدهم.

يسترد بعضا من أنفاسه قبل أن يجيب:

- لقد ظهرت الآية.

يجيبه الشيخ تقيّ الدين بعبوس ظاهر:

- أي آية؟!
- لقد التقيت بالسوق قبل ساعة مع بعض سكان الغوطة وقالوا لي أن تنينا عظيما ظهر بجسرين وابتلع رأسا من المعز كبيرا صحيحا.

بعض الحضور:

- يا لطيف.
- وقد عم الجزع في الغوطة وخاف الناس وهربوا.

فيسأله الشيخ تقيّ الدين:

- وهل تصدق كل ما تسمع، وتُحدّث به؟ ألم تعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّث بكلِّ ما سمع.

- صدقت يا شيخنا، لذلك لم آت إلى هنا إلا بعد أن تأكدت من الحادثة.
- وماذا يقولون؟
- يقولون أنّها ربما تكون الدّابة التي حدث الله عنها في كتابه.

يبتسم الشيخ ويفرد جبينه بعد تقطيب ويوضّح:

- ليست الدابة وليست من علامات القيامة فطمئن الناس.
- ولماذا يا شيخنا؟ سأل بعض التلاميذ.
- هناك ميزان عدل للتعامل مع الأخبار والحوادث للفصل بين الممكن والمستحيل، ثم بعد ذلك نحكم ببطلان أو صدق الحادثة ونعطي التفسير المقنع لأصل القصة، وخروج الدابة الآن يتعارض مع ما ورد في الأثر، أما هذه القصة إن ثبتت فلا بد لها من تفسير.
- وما هو برأيك يا شيخنا؟
- إن التنين وهم من الأوهام كحال الغول يكثر كلام الناس عنهما ولم يشاهدهما أحد.
- وما الذي شاهدوه في الغوطة؟
- لعل ما رآه الناس حنيشا كبيرا وهو وارد ومُشاهد، فربما اشتبه على الناس ما رأوا وغلب عليهم المبالغة والخيال فرأوا الأفعى تنينا.

يلتفت الشيخ إلى أحد تلاميذه وبستأنف نقاشهم السابق:

- أين توقفنا؟
- كنا نتكلم عن عزل الناصر محمد بن قلاوون.
- سمعت أن أخبار مصر هذه الأيام صعبة وأن الغلاء بها ربما يؤدي لثورة الناس على لاجين المنصوري بعد خلعه لزين الدين كتبغا، هل من الحضور من جاء من مصر حديثا فيحدثنا عن أحوالها؟
- أنا كنت هناك قبل شهر. يجيب أحدهم.
- هل صحيح ما نسمع؟
- إن الغلاء بالشام هذه الأيام ما هو إلا امتداد للغلاء في مصر بل هو هناك أعظم، ففي مستهل هذه السنة كان الغلاء والفناء هناك شديدا جدا، وقد تفانى الناس ومات الكثير منهم، وكانوا يحفرون الحفرة في الجبانة فيدفنون فيها الفئام من الناس، والأسعار في غاية الغلاء، والأقوات في غاية القلة، فمات فيها مائة ألف ونحو من ثلاثين ألفا، فبلغت الغرارة إلى مائتين وبيع الفروج بالإسكندرية بستة وثلاثين درهما، وبالقاهرة بتسعة عشر، والبيض كل ثلاثة بدرهم، وأفنيت الحمر والخيل والبغال والكلاب من أكل الناس لها، ولم يبق شيء من هذه الحيوانات يلوح إلا أكلوه.
- إنا لله وإنا إليه راجعون.
- وقد تشاءم الناس من سلطنة زين الدين كتبغا ولاجين المنصوري من بعده وتذكروا أيام المنصور قلاوون والأشرف خليل وعزوا ما أصابهم إلى قتل الأشرف خليل وعزل الناصر.

يقف الشيخ تقيّ الدين ويمشي إلى كرسيه وقد اكتمل الحضور وفيهم الصغير والكبير والجليل والحقير والحر والعبد والذكر والأنثى ويختم نقاشه مع أصحابه:

- حسبنا الله ونعم الوكيل نسأل الله اللطف بعباده.

يعتدل الشيخ في جلسته ويتربع على الكرسي، فيجري الكلام على لسانه كما يجري السيل ويفيض كما يفيض البحر ويصير مثل الغائب عن الحاضرين مغمضا عينيه من غير تعجرف ولا توقف ولا لحن وكأنه فيض إلهي، فيقع على الحضور مهابة له تجعلهم كالأموات بين يدي مغسلهم:

- «الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، بعث لي بعض أهل مدينة حماة استفتاءً يسألوني فيه عن تحقيق السادة العلماء في الصفات التي وصف الله بها نفسه في قوله «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» وفي قوله «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ» وما أشبههما، وعن تحقيق حديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ»، وسألوني عمّا يذهب إليه أهل السنة والجماعة في باب صفات الله، فأقول والله المستعان قولنا فيها ما قاله الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وهذا هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وغيره، فإن

الله بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وشهد له بأنه بعثه داعيًا إليه بإذنه وسراجًا منيرًا، فمن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وأمر الناس أن يردُّوا ما تنازعوا فيه من دينهم إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة، وقد أخبر أنه أكمل له ولأمته دينهم، وأتم عليهم نعمته محال مع هذا وغيره أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسًا مشتبهًا، فلم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا، وما يجوز عليه وما يمتنع عليه، وملخص القول قول الإمام مالك «فالاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة» .... ومذهب أهل السنة والجماعة والسلف الصالح من القرون الثلاثة الأولى وسط بين التعطيل وبين التمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، فيعطلون أسماءه الحسنى وصفاته العلى، ويحرّفون الكلم عن مواضعه، ويلحدون في أسماء الله وآياته .... وذلك إيمان عامة المسلمين إن لم يكن كلّهم، يفهمونه بفطرهم السليمة بمجرد قراءة آيات الله وأحاديث نبيه .... وخلاف ذلك إيمان نُخَب ظَنَّت أنها أفهم من الصحابة والتابعين ...»

أنهى الشيخ درسه وفتح عينيه، فإذا بِقيّم المدرسة قد أحضر يهوديا إلى الشيخ، وقد نظم سؤالا عن القدر بثمانية أبيات من الشعر، فوقف الشيخ عليه وفكّر لحظة يسيرة وأنشأ يكتب جوابه، وظنَّ أصحاب الشيخ أنه يكتب نثرا فلمّا فرغ تأمّله من حضر فإذا هو نظم في بحر أبيات السؤال وقافيتها من أربعة وثمانين بيتا أبرز فيها من العلوم ما أذهل الحضور الذين لم يستفيقوا إلا على صوت قيّم المدرسة يصرخ مُحوقلا:

- لقد سرق الشُطَّار النعال والكشاكل.

فيرد عليه الشيخ:

- تلك منتهى أمانيهم وغاية قصدهم، وغاية من حضر هنا الثريا، ومن طلبها نالها. ومَدَاسي رخيص لا يُؤسف على سرقته، ولا بأس بالمشي حافيا ففي ذلك صحة وعافية، فامشوا اليوم حافين ضريبة حضور مجالس العلم.

***

صنف الشيخ تقيّ الدين ابن تيمية في المسألة مصنفا أسماه (الفتوى الحمويّة الكبرى) وقد اقترب في تلك السنوات أنْ يكون عالم دمشق الأول، سمع بعلمه القاصي والداني، وَوُصِف بأنه بحر لا ساحل له وكنز لا نظير له وأن جوده في العلم حاتمي، فأثار ذلك الحُسّاد وأشعل غيظ الأقران، وحدث له إثر انتشار مصنفه الأخير بين طلاب العلم وعامة الناس فتنة قام عليها جماعة من الفقهاء،

وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضي جلال الدين الحنفي، فلم يحضر، فنودي في البلد بتشويه العقيدة المسماة بالحمويّة وشهّرَ به كل صاحب غرض، فانتصر له أمير دمشق، وأرسل يطلب الذي أثاروا الفتنة، فاختفى كثير منهم بعد أن حاججهم الشيخ تقيّ الدين وانفلج عليهم بالأجوبة المُسْكِتة، وضرب الأمير جماعة ممن نادى على العقيدة، فسكت الباقون.

***

في حوش البيت جلس الشيخ تقيّ الدين وأخوه زين الدين يتناقشان، وست النعم تراقبهما من الغرفة المجاورة وتختلس السمع بعد أن تأكدت أن العين قد ضربت ابنها تقيّ الدين فأخذت تقرأ آية الكرسي على ماء فيه عسل وقدمته دافئا للشيخ فأخذه من يدها وقبّل رأسها وقال:

- والله لقد فتنوا الناس في العقيدة الحمويّة وهي عقيدة الرسول وصحابته، وقد تحديتهم أن يأتوا بأي نص منها خالفت فيه آية أو حديثا فلم يأتوا.

زين الدين:

- توكل على الله يا تقيّ الدين فقد أديت ما عليك.
- ألم تسمع بالأخبار، فسلطان التتار الجديد قازان المسمي نفسه زورا محمودا يحشد الحشود للهجوم على الشام، وقد فتن الناس في بلاد المسلمين التي تقع تحت حكمه

في العراق وفارس وخراسان إذ ادعى الإسلام وسمى نفسه بخير الأسماء وجمع حوله كل صاحب هوى وغرض من المسلمين وجعلهم حاشيته ووزراءه، ففتنوا عامة الناس، وادّعى أنه سلطان المسلمين وطاعته واجبة عليهم، بل ويتهم أهل الشام بأنهم خوارج إذ خرجوا عليه بزعمه، بينما حال دولته أنها ما زالت تُحكم بشريعة جنكيز خان، وهو ما زال على ظهر خيله يحتل بلاد المسلمين ويقتل رجالهم وأطفالهم ويسبي نسائهم، وآخر حروبه مع الممالك السلجوقية في بلاد الترك والروم لم تجف دماؤها بعد.

يقاطعه زين الدين:

- سمعت أن عثمان بن أرطغرل أقام للأتراك دولة جديدة على أنقاض ممالك السلاجقة وحّد بها بعض القبائل تحت إمرته وهو يستعد للتصدي للتتار.
- صحيح ولكن شؤون دولته الجديدة أشغلته، وذلك لن يمنع قازان من تحقيق حلم جده هولاكو باحتلال مصر، وإني والله أرى دخول التتار إلى الشام رأي العين وأرى انكسارنا أمامهم ونحن على هذا الحال، فالنصر يلزمه حسن الاعتقاد والجهاد، ومشايخنا هؤلاء شوهوا اعتقاد الناس، فلا هم جاهدوا ولا هم حافظوا على ما كان عليه نبينا صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام. وأمراؤنا ما

زال يقتل بعضهم بعضا، سبحان الله أين عقول القوم؟! أعميت أبصارهم وبصائرهم!! أفلا يرون ما الناس فيه من العمى والحيرة في الزمان المظلم المدلهم الذي قد ملكت فيه الكفار معظم الدنيا؟!

- وماذا أنت فاعل؟

- سأعمل ميعادا بالجهاد يوم الجمعة في الجامع الأموي فهو أولوية الساعة، وعقيدة الناس واضحة وسليمة لولا فتنة العلماء لهم بعلم الكلام والجدل. والإتيان بما لم يأت به أحد من قبلهم، فهم إمّا جاؤوا بأفضل مما جاء به محمد أو إنهم لعلى ضلال كبير.

- صلى الله عليه وسلم.

(12)

قازان

دمشق (699) هجري

اتخذ محمود قازان سلطان خانيّة فارس من قيام نائب حلب التابع لدولة المماليك بِالإغارة على ديار بكر وحصار ماردين التابعتين للتتار ذريعةً لِتنفيذ مآربه وحُلم آبائه وأجداده في السيطرة على الشَّام ومصر، وتحطيم أي فرصة للتحالف بين دولة المماليك وبين القبيلة الذهبية مغول القفجاق الذين تحولوا للإسلام قبل فترة، فمالت قلوبهم مع المماليك لا مع أولاد عمهم مغول فارس.

غادر قازان تبريز في مُحرَّم تسعة وتسعين وستمائة على رأس جيشٍ كثيف مُتوجهًا نحو الشَّام، وانضمَّ إليه ملك الأرمن حيطوم الثاني ومعه خمسة آلاف مُقاتل، بالإضافة إلى جنود من الأرمن والكرج من رعايا خانيّة فارس فوصل إلى حلب، مستغلا حالة الضعف التي سادت الدولة المملوكيَّة بعد اغتصاب عرش السلطان الناصر مُحمَّد بن قلاوون، على يد كُلٍّ من زين الدين كتبغا ولاجين المنصوري، وسلطنتهم الواحد تلو الآخر بعدما قتلوا بيدرا قاتل الأشرف خليل بن المنصور قلاوون.

إلا أن الأقدار في القاهرة كانت تسير باتجاه آخر، إذ قُتل لاجين المنصوري وأُلقي نائبه على مزبلة بعد أن قُتل صبرا على يد مجموعة من الأمراء وأعادوا ابن أستاذهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى الحكم مرة ثانية وقد بلغ من العمر أربعة عشر عاما فأرسلوا وراءه وكان بالكرك، فخُطب له على المنابر وأرسلت الكتب بذلك إلى الشام ففر نائبها الأمير قبجق الذي كان ممن تآمروا على قتل الأشرف خليل فالتجأ إلى التتار، فتم تعيين الأمير آقوش نائبا لدمشق وعُيّن الأمير سيلار نائبا لمصر.

وما إن وصلت أنباء الزحف التتري إلى الشام حتى عهد السُلطان الناصر مُحمَّد بن قلاوون إلى بعض أمرائه بِالخُرُوج إلى الشَّام لِلتصدِّي لِجيش قازان، ثُمَّ ما لبث أن تبعهم على رأس جيشٍ كبير ونزلوا بِحمص. وأرسل جيش المسلمين كشَّافةً من العربان لاستطلاع أخبار التتار، فبلغهم أنهم يحتشدون عند مجمع المُرُوج، المعروف بِوادي الخزندار، فاستأنف جيش المسلمين تقدُّمه حتَّى ظهرت أمامه طلائع الجيش التتري. والتقى الجيشان شرقيّ حمص، ودارت بينهما معركة ضارية أسفرت عن هزيمة جيش المسلمين هزيمة نكراء، وهرب السُلطان الناصر محمد بن قلاوون مع قلة من حرسه الخاص إلى بعلبك ومنها إلى دمشق ومنها إلى القاهرة، وتفرق الجيش المملوكي ولم تكن مشكلة فلوله مع جيش قازان الذي لم يتبعهم خوفًا أن يكون المماليك أعدُّوا له كمينًا، إنما كانت مشكلتهم مع سكان جبال الجرد والكسروان الذين تبعوهم وقتلوهم ونهبوهم.

سيطر قازان على حِمص وواصل زحفه نحو دمشق وامتدَّت غاراته إلى بيت المقدس والخليل والكرك، فنهب ودمَّر وأسر، ودخل غزَّة.

علم أهل دمشق بزحف قازان إليهم فسارعوا إلى الهُرُوب من المدينة خوفًا من إقدام قازان على مجزرة في دمشق كمجزرة جده هولاكو في بغداد، ففرَّ إلى جهة مصر كثيرٌ من الدماشقة، وخرجت النساء مُنتهتّكات لا يلوون على شيء، وأحرق المحابيس أبواب السجون وفروا، وكأن دمشق لا متولي فيها والناس رعاع، وتنادى من بقي في المدينة إلى الجامع الأُموي واجتمع هناك القضاة والفقهاء والعلماء واتفقوا على إرسال قاضي القُضاة بدر الدين بن جماعة، والشيخ تقيّ الدين ابن تيمية في عدَّةٍ من أعيان وعُلماء دمشق لِلاجتماع بِقازان، وطلب الأمان منه، فاجتمعوا به خارج دمشق، وتكلم الشيخ تقيّ الدين مع قازان بكلام قاطع كأمضى السيوف قوي مثل ريح صرصر عاتية، ولم يأبه لحاشيته من المستعربين والمتأسلمين كوزيره رشيد الدين الهمذاني، والشريف قطب الدين ناظر خزانته، و شيخ شيوخه نظام الدين محمود، وأصيل الدين بن نصير الطوسي ناظر الأوقاف.

وعد قازان الوفد بما طلبوا لكنَّهُ أخلف وعده بِمُجرَّد دخوله دمشق، فعاث جُنُوده فسادًا في ظاهر المدينة وقتلوا السُكَّان ونهبوا أموالهم، حاول قازان ضبط جنوده كي يظهر كسلطان المسلمين (محمود قازان) ليكسب بذلك رضى العامة لاستكمال خطته في الزحف إلى مصر فتم كبح جماح جنوده إلى حين.

استعصت قلعة دمشق الحصينة على التتار بحض مستمر من الشيخ تقيّ الدين بالمحافظة عليها وعدم التفاوض على تسليمها لعل الله يجعل لأهل دمشق مما هم فيه مخرجا، فثبت فيها نائب دمشق الأمير آقوش وبقيت تحت سيطرة العساكر الشامية.

بدأ قازان ببناء منجنيق من أجل دك أسوار القلعة، وأقنعه قائد جيشه بولاي أن أمر دمشق والشام سيستقر في يده حالما ينتهي من أمر القلعة، فجمع قازان جيشه وخطب بهم: «إنّا تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل بقيادة بولاي، وقد عزمنا العودة إليها في زمن الخريف والدخول إلى الديار المصرية».

أناب قازان على دمشق الأمير المملوكي الخائن قبجق، وحُمل لقازان من خزائن دمشق ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم سوى ما تحقق من التراسم والبراطيل بخلاف المبالغ التي أخذها وزراؤه وأمراؤه، فأخذ ابن نصير الطوسي مائتي ألف وحصل شيخ المشايخ نظام الدين محمود على ستمائة ألف، وعاد قازان إلى بلاده مُنتشيا منتصرا.

عاث الأمير قبجق نائب قازان في دمشق فسادا، وصادر أموال الناس وأخذ أموالا من أوقاف المدارس وغيرها. وضمن الخمارات ومواضع الزنا من الحانات ودور البغاء وصار له على ذلك في كل يوم ألف درهم.

رجع قائد جيش التتار بولاي إلى دمشق من جهة الأغوار بعد جولة في فلسطين عاث في أرضها فسادا، ونهب البلاد والقرى وخربها وقتل من أهلها وسبى خلقا من أطفالها، وجُبي له من دمشق جباية أخرى. بعد أن نهب الصالحية ونكب دار الحنابلة وقتل خلقا من رجال دمشق وسبى من نسائها كثيرا، ثم رابط بجنوده خارج دمشق، فخرج له الشيخ تقيّ الدين واجتمع به وحدثه في فكاك أسارى المسلمين، فاستنقذ منهم عددا كبيرا وعاد بهم معززا مكرما، وخرج بموازاة ذلك بعض الأعيان والفقهاء والمشايخ لإعطاء بولاي الولاء والطاعة، فرجعوا في شر حال، وعلم الناس مقصدهم فأقدموا على تشليحهم وأخذ ثيابهم وعمائمهم عند باب دمشق الشرقي وهم يصيحون بهم: «استنقذوا الأسير وفكوا العاني». وعندما طلبهم بولاي مرة ثانية اختفى أكثرهم ولم يجيبوه خوفا من الناس بعد أن ظهرت منهم عورات أجسادهم وعورات أخلاقهم.

لم تستمر سيطرة نائب قازان الأمير قبجق على دمشق طويلًا، إذ أدى صمود الأمير آقوش في قلعة دمشق وتعبئة الشيخ تقيّ الدين للعساكر والعامة، يدور كل ليلة فوق الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلوا عليهم آيات الجهاد والنصر، فأثمر ذلك بخروج طوائف من عسكر القلعة بشكل متكرر في جنح الليل ومهاجمة قوات التتار وقتلهم ونهبهم، فرسم الأمير قبجق إلى خطيب دمشق وجماعة من الأعيان أن يدخلوا القلعة فيتكلموا مع الأمير آقوش في المصالحة، فدخلوا عليه فكلموه وبالغوا معه فلم يجب إلى ذلك وطردهم خائبين.

أدت أخبار خروج العساكر المصرية إلى دمشق إلى انسحاب بولاي من نواحي دمشق، وفر الأمير قبجق بمن بقي معه، وعادت الخطبة على المنابر للسلطان الناصر محمد بن قلاوون بعد أن خُطب لقازان عليها لمئة يوم، وفي بكرة يوم الجمعة بعد خروج التتار دار الشيخ تقيّ الدين وتلاميذه ومجموعة من العامة على الخمارات والحانات ودور البغاء، فحطموا آنية الخمور وأراقوها وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش، ففرح أهل دمشق بذلك فرحا عظيما، وقام الأمير آقوش بالقبض على المواليين للتتار ومن تعاون معهم، فشنق طائفة منهم وسمر أعين آخرين وقطع ألسن من كانوا عونا للتتار في دخول دمشق بفتوى من الشيخ تقيّ الدين.

نودي بعد ذلك بأيام بأن تزين البلد لقدوم العساكر المصرية، وفتح لهم باب الفرج وباب النصر والتقت العساكر المصرية مع العساكر الشامية التي نزلت من القلعة بقيادة نائب دمشق الأمير آقوش ففرح الناس بذلك وانفرجوا، وعادت العساكر المصرية إلى مصر بعد أن استقرت الأمور بالشام.

***

ركب نائب السلطنة الأمير آقوش في جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان لتأديبهم على خيانتهم ووثوبهم على جيش السلطان الناصر الفار من معركة وادي الخزندار، وبسبب فساد نيتهم وكفرهم وضلالهم، وخرج معه الشيخ تقيّ الدين ومعه خلق كثير من المتطوعة والحوارنة.

قال الأمير آقوش يُخاطب الشيخ:

- ما رأيك يا شيخنا تقيّ الدين؟
- أرى أن نستتيبهم هذه المرة ونبين لهم بطلان عقيدتهم.
- لكنهم وثبوا على جيش المسلمين وقتلوا منهم.
- أنت في الخيار، إما أن تقتلهم أو أن تستتيبهم.
- وإن عادوا بعد الاستتابة.
- نعود عليهم بالقتل والسبي.

جاء رؤساء الجبل وأعيانهم إلى الشيخ تقيّ الدين بن تيمية فاستتابهم، وبين لهم الصواب، وحصل بذلك خير كثير، وانتصار كبير عليهم، والتزموا برد ما كانوا أخذوه من أموال الجيش، وقرر عليهم الأمير آقوش أموالا كثيرة يحملونها إلى بيت المال، وأقطعت أراضيهم وضياعهم، ولم يكونوا قبل ذلك في طاعة الدولة ولا يلتزمون أحكام الملة، فأقام الشيخ تقيّ الدين عليهم الحجة وأخضعهم الأمير بالقوة. وعاد جيش دمشق وعلى رأسه الشيخ والنائب فتلقاه الناس بالشموع من طريق بعلبك إلى دمشق.

يقترب الشيخ تقيّ الدين بفرسه من فرس الأمير آقوش في طريق عودتهما ويقول له:

- أرى أن تنادي في البلد عند وصولنا أن يعلق الناس الأسلحة بالدكاكين، وأن يتعلم الناس الرمي.

- الآن وقد هدأت الأمور يا شيخنا؟
- لا أظنها تهدأ فقازان لم يتوقع أن ينسحب قائده بولاي بهذه السرعة وسيعيد الكرة مرة ثانية وثالثه فقد عزم منذ تولى الحكم أن يحقق حلم جده جنكيز خان بالسيطرة على مصر وبحر الروم.
- صدقت فهذا دأبه وهذه نيته، غفر الله للأمير بيدرا لو لم يقتل الأشرف خليل فربما نحن الآن على أبواب بغداد، أليس كذلك يا تقيّ الدين؟
- لو تفتح عمل الشيطان، وأسأل الله أن يعامله بعدله فقد أعماه حب الرياسة عن مصالح المسلمين، قدّر الله وما شاء فعل.
- ها قد عاد أخوه السلطان الناصر محمد إلى الحكم فلعله يجدد أمجاد آل قلاوون من جديد.
- ما زال فتى صغيرا وما أظن أن تمر هزيمته النكراء في أول معركة خاضها مرورا كريما.
- ليس بالضرورة يا شيخنا، أنت أعلم مني بشؤون الدين وأنا أعلم منك بشؤون الحكم والحرب فهي صنعتي منذ صغري.
- لا أخالفك بذلك فلكل صنعته.
- ألا تعلم شيخنا كيف كان يتم إعدادنا كعساكر مملوكية لنكون نواة جيش المسلمين؟
- سمعت طرفا من ذلك فزدني.

- كانوا يأتون بنا ونحن أطفال أو شبان صغار وينزلوننا القلعة في جزيرة الروضة في النيل فى أجنحة خاصة اسمها الطباق، ثم ندرس اللغة و الدين منذ نعومة أظفارنا على يد فقهاء وعلماء مقتدرين، ولمّا يشتد عودنا نبدأ بالإعداد البدني والتدريب على كافة الفنون العسكرية وبالذات الفروسية، ومن كان يتفوق منا كان يترقى ويصبح أميرا ويتم تدريسه تاريخ الملوك والأمم وسنن الحكم ورسوم السلطنة، ومن تميز بعد بذلك بالجد والعمل والولاء والقتال يصبح من كبار الأمراء.
- ما شاء الله، أسأل الله أن يحفظكم ويجعلكم من الطائفة المنصورة التي لا يخلو منها زمان حتى يقاتل أخرهم الدجال كما قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.
- صلى الله عليه وسلم، لذلك يا شيخنا ومن تجربتي في القتال فإن الأمير لا يعرف طعم النصر إلا إن عرف طعم الهزيمة، فذلك يولد بداخله دافعا جديدا للقتال ورغبة جامحة لاسترداد كرامته وكرامة عساكره التي هُزمت معه.
- ذكرتني بقول أنس بن النضر رضي الله عنه لما تغيب عن بدر «غِبْتُ عن أوَّلِ قِتَالِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لَئِنْ أشْهَدَنِي اللَّهُ مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ ما أُجِدُّ»
- رضي الله عن صحابة الرسول أجمعين.
- رضي الله عنهم وأرضاهم.

- لذلك شيخنا فإرث مولانا السلطان الناصر محمد بن قلاوون وهزيمته الأولى سيكونان دافعا ومحركا لنصر جديد نُخرج فيه التتار من بلاد الشام نهائيا.
- قل إن شاء الله.
- إن شاء الله، وإن شاء الله سآخذ بنصيحتك فور دخولنا دمشق وسآمر بتعليق الأسلحة بالأسواق وسأطلب من قاضي القضاة أن يرسم بعمل الإماجات في المدارس، وأن يتعلم الفقهاء الرمي ويستعدوا لقتال العدو إن حضر، والله المستعان.
- ونعم بالله.

***

في شتاء السنة التالية، عاد قازان على رأس حملةٍ إلى الشَّام، لكنَّهُ لم يتمكَّن من فعل شيءٍ سوى الإغارة على بعض المناطق بِفعل سوء الطقس واشتداد البُرُودة. ثم انتشرت الإشاعات عن حملة ثانية يقودها بنفسه، بدأت بالتحرك ونصب أعينها هذه المرة مصر بعد أن تهزم دمشق هزيمة نهائية لا تهاون فيها ولا رأفة ولا تكرر ما حدث في الحملة الأولى وقد جمع لها قازان جيشا كبيرا. وفي مستهل عام سبعمائة جاءت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام، فكثر الإرجاف وانزعج الدماشقة لذلك وازدادوا ضعفا، وفي بالهم حملة قازان الأولى والتي ستكون رحمة بالنسبة إلى هذه الحملة الثانية، طاشت عقول العامة وبلغت القلوب الحناجر، وشرع الناس

في الهرب من دمشق إلى بلاد مصر والكرك والشوبك والحصون المنيعة، وارتفعت الأسعار فبلغ كرى الحمارة إلى مصر خمسمائة، وبيع الجمل بألف والحمار بخمسمائة، وبيعت الأمتعة والثياب والغلات بثمن بخس.

عاد الشيخ تقيّ الدين إلى سيرته الأولى في التحريض على القتال والحض على الجهاد وقد بلغ شأوا عظيما عند أهل دمشق وسارت بشجاعته في مواجهة قازان وبولاي وتحريره لأسرى المسلمين الركبان وطارت بها الأخبار، وتناقلت العساكر دوره في صمود قلعة دمشق أمام غزو التتار في حملتهم الأولى ومشاركته الأمير آقوش في حملته على جبل الجرد والكسروان، إلا أن الأراجيف التي نشرها ضعاف الناس بأن قازان سيفعل في أهل دمشق ما فعله جده هولاكو بأهل بغداد، جعلت من مهمة الشيخ تقيّ الدين مهمة شبه مستحيلة.

جلس الشيخ بمجلسه في الجامع، وحرض الناس على القتال، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك، وخوّفهم ونهاهم عن الإسراع بالفرار يوم الزحف، ورغب في الإسراع بإخراج الزكاة وفي إنفاق الأموال في الذب عن الإسلام والمسلمين في صد الخطر الداهم الذي يهددهم. وحسب لهم أن ما ينفق في أجرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان أفضل، وأوجب جهاد التتار وجوبا عينيا في هذه الكرة، وتابع المواعيد في ذلك، فأقام ميعادا بالجهاد في الجامع الأموي وفي مدارس المذاهب الأربعة وفي

دور الحديث والمساجد والساحات والأسواق وأرسل إلى أمراء المدن الشامية حلب وحماة وحمص والكرك وصفد وغزة أن ينفروا بعساكرهم.

نادى الأمير آقوش في البلاد ألّا يسافر أحد إلا بمرسوم وورقة، فتوقف الناس عن الهرب وسكن جأشهم، وتحدث الناس باستعداد السلطان الناصر للخروج من القاهرة بالعساكر ودقت البشائر لذلك وهدأت النفوس إلى حين، و هرب من دمشق جماعة من بيوتات دمشق المشهورة بالفقه والعلم، فحنق الناس عليهم بالقدر الذي زاد تعظيمهم للشيخ تقيّ الدين ومن وقف معه من المشايخ.

جاء الخبر بأن التتار قد وصلوا إلى البيرة فقوي الإرجاف مرة أخرى، ونودي في دمشق أن تخرج العامة مع العسكر، وجاء مرسوم النائب من القلعة بذلك، فعرض خلال شهر نحو خمسة آلاف من العامة بالعدة والأسلحة على قدر طاقتهم وعلى رأسهم الشيخ تقيّ الدين، وقنت أئمة المساجد في الصلوات كلها، ثم وصلت أخبار بأن التتار وصلوا إلى حلب. وأن نائب حلب تقهقر إلى حماة، وخطب القضاة والفقهاء في البلد بتطييب قلوب الناس وإقبالهم على معايشهم، وأن العساكر المصرية قد خرجت من القاهرة باتجاه الشام.

تضاربت الأخبار وأرجف الناس بأن السلطان الناصر محمد بن قلاوون رجع إلى مصر بعد أن خرج منها قاصدا الشام، فاشتد

الحال وخاف الناس وكثرت الأمطار وصار بالطرقات من الأوحال والسيول ما يحول بين المرء وبين ما يريده من الانتشار في الأرض والذهاب فيها، فلا البقاء ممكن ولا الهروب متيسر.

خطب الشيخ تقيّ الدين في جمع من الناس وهم على أبواب دمشق خارجين خفافا وثقالا يتحملون بأهليهم وأولادهم:

- المدينة خير لكم لو كنتم تعلمون...

يحملون الصغار ولا يلتفتون للشيخ ويسيرون في الوحل الشديد والمشقة على البغال والحمير وقد ضعفت من قلة العلف مع كثرة الزلق والبرد والجوع وقلة المتاع والميرة. فيصرخ بهم ثانية:

- يا أهل دمشق لقد وعدنا الله بالنصر، فانصروا الله ينصركم.

ترك الشيخ الخارجين من دمشق بعد أن يئس منهم فالمهزوم لا يرده شيء، وذهب إلى نائب الشام الأمير آقوش في المرج حيث يعسكر بعساكره، فثبتهم وقوى جأشهم وطيب قلوبهم، ووعدهم النصر والظفر على الأعداء وحلف أثناء كلامه على ذلك سبعين مرة، وتلا قوله تعالى: «وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ». وبات عندهم الليل وأكل وصلى معهم ثم عاد إلى البلد وقد جلَّلها الرعب فأصبحت خاوية على عروشها بعد هروب واختباء أهلها.

(13)

القاهرة

القاهرة (700) هجري

كان لعودة السلطان إلى مصر قبل دخوله الشام تأثير كبير على معنويات الناس والعساكر، وذهبت جهودي معهم أدراج الرياح، فبعد أن ثبت من ثبت من أهل دمشق بعد أن أكّدتُ لهم أن نصر الله بلا شك آت إن هم نصروه، ونصرهم لله يكون بتجردهم للجهاد، وبعد أن عمّت الحماسة بين جند دمشق المعسكرين في المرج مع أميرهم آقوش لمّا علموا أن العساكر المصرية هبّت لنجدتهم، فهم يعلمون كما نعلم ويعلم السلطان الناصر، أن لا طاقة للعساكر الشامية منفردة بخوض معركة مع جيش قازان، ثم نزغ الشيطان بينهم وبين أنفسهم لما عرفوا بعودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى مصر، فانتشرت الأراجيف وقال الناس: السلطان غرّ صغير هُزم في معركة وادي الخزندار وهو ليس من أهل النجدة ولا من أهل الشجاعة.

ذهبت لتوي إلى القلعة للقاء الأمير آقوش، فالخطبُ جلل ووصول قازان إلى دمشق متوقع بأي وقت بعد أن جاءت المعلومات

أنه عبر الفرات، فتلقَّاني الأمير على باب الرواق المفروش بالرخام لمّا علم بقدومي ومعه جمع من الأمراء المقدمين وخاصة الأمراء من أهل شورته ممن ثبتوا معه في القلعة ولم يسلموها لمّا غزانا قازان أول مرة، فهم الموثوقون عنده لا من فرّ عند الفزع وعاد عند الأمان، تقدم إليّ الأمير وعانقني، أحسست بالخذلان يخفق بين جوارحه وقد انتهت الأمور إلى ما هي عليه ثم قال لي:

- السلام عليكم شيخنا الحبيب تقيّ الدين.
- وعليكم السلام ورحمة الله أيها الأمير.
- كيف تركتَ العامة في البلد؟
- كما تركتَ أنت العساكر في المرج؟
- إذاً الحال صعب وليس لنا إلا رحمة الله.
- لا حول لنا ولا قوة إلا بالله على كل حال وفي كل حين، أدرك الناس أيها الأمير فقد هم من بقي منهم الخروج من دمشق رغم فرمان المنع.
- وما العمل يا شيخنا؟
- أرسل إلى السلطان وطالبه بالعودة فلا عذر له.
- سبق وفعلنا لكنه عاد لمّا وصل أطراف الشام، ولم تُجْد كتبنا المتتالية له ولم تنفعنا الاستغاثة والرجاء.
- وما الحل؟

يفكر الأمير قليلا وينظر إلى خاصّته وكأنه سيتكلم بما اقترحه بعضهم عليه قبل حضوري:

- ما رأيك يا تقيّ الدين أن تكون أنت الرسالة؟
- لم أفهم قصدك؟
- أن نرسلك إلى السلطان.
- أنا!!
- نعم أنت يا شيخنا، أرسل حكيما ولا توصه.
- أنا في خدمة الأمير وفي خدمة المسلمين إن كان في ذلك خيرهم، لكن ما فائدة رجل من العامة لا يعرفه السلطان الناصر ولم يسمع به أصلا.
- أنت لست رجلا من العامة بل أنت رجل عامة، وقد بلغت شهرتك الآفاق يا تقيّ الدين.
- لا أظن ذلك أيها الأمير فإنما أنا مُحَدِّث على كرسي في جامع.
- لست مضطرا لتذكيرك، فشأنك في العلم معروف، ولولا تثبيتك لي يوم حاصر بولاي القلعة لسلمته لها تحت ضغط أعيان دمشق وقضاتها الذين فرّ أغلبهم يوم الزحف وثبتّ أنت، وعرّضت نفسك للخطر يوم كنت تتجول ليلا تحض الجنود والعامة على الثبات وعدم التسليم وموقفك في لقاء قازان يتحدث به حتى السلطان الناصر.
- السلطان الناصر!!
- نعم، فقد أرسلت له تفاصيل ما حدث وأخبرته أنك رفضت عرض قازان بأن تكون شيخ مشايخه يوم أعجب بشجاعتك وجرأتك، وأنك لم تلتفت لعرضه يوم عرف

أنك من حرّان، بأنه على استعداد أن يعيد بناء مسقط رأسك ويجعل الرحال تُشد إلى حرّان طلبا للسياحة والمتعة وزيارة لمقام إبراهيم عليه السلام الذي سيبنيه هناك و...

- وهل عرض عليّ هذا العرض!!

- نعم، وأنا أعرف أنك لم تلتفت لعرضه لأن همّك كان أكبر من ذلك، كنتَ منهمكا تجادله بما ادعاه من الإسلام، وتنكر عليه ما قام به من قتل واغتصاب وسفك للدماء وتحكيم لشرعية جنكيز خان لا شريعة الإسلام.

- سبحان الله.

- حدّثنا بذلك من رافقك في لقائه، وحدّثني أيضا كيف أنك الوحيد الذي هابه قازان، وأهان الأعيان الذين حضروا بين يديه أذلة صاغرين، هذا حديث الناس يا تقيّ الدين، والكل يعرف أنك من أطلق سراح الأسارى بعد لقائك بقائد الجيش التتري بولاي.

تدمع عيني وأرد على الأمير مطرقا رأسي بصوت متحشرج:

- الفضل لله وحده أيّها الأمير.

- الفضل لله وحده بأن هيّأ لنا وللمسلمين رجلا مثلك يرفع الهمم ويتقدم الصفوف، فاحذر يا شيخنا، فقد كثر حُسَّادُك وشانئوك على بابي، فقد عَرَّيت جبنهم بشجاعتك، وفضحت بدعتهم بقال الله وقال رسوله، ولطمت ضحالة علمهم بواسع علمك.

- لا تكن عونا للشيطان عليّ أيها الأمير، فأنا والله أقل بكثير مما تقول.
- بل أنت السلطان الحقيقي يا تقيّ الدين، فالسلطان سلطان الحب لا سلطان القهر، ولقد اتبعنا الناس قهرا واتبعوك حبا، لا أريد الإطالة أكثر يا شيخنا، لكني اضطررت إلى ذكر ذلك رغم علمي بكرهك له لأني أراك غافلا عن المكانة التي وصلتها لدى العامة ولدى السلطان، فقد أعجبه رأيك السديد وخروجك للجهاد معنا يوم جرَّدنا العساكر إلى جبل الجرد والكسروان وكيف أنك أذللت أهل الجبل بالشروط التي وضعتها عليهم بعد أن تعدوا على عساكر السلطان بعد معركة وادي الخزندار.
- أذلهم الله بكفرهم قبل أن نذلهم بما فرضناه عليهم من أحكام الشرع.
- لنعد للموضوع، أنت رسولنا إلى السلطان إن شاء الله.
- ما دام في الأمر طاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر فعلى بركة الله.
- البريد يخرج من دمشق إلى القاهرة كل يوم فكم يلزمك حتى تستعد يومين أو ثلاثة؟
- خير البر عاجله، بل أخرج اليوم.
- البريد على وشك الخروج!
- ألحقُ به فورا، ولكن أعرني بعض الملابس من ملابس خدمك أستعين بها في سفري وأرسل إلى أمي ست النعم وأخبرها بغيابي حتى لا تقلق عليَّ.

- سأرسل لها، والملابس ستكون من ملابسي الخاصة، وإن خرجت اليوم فربما تلحق السلطان قبل دخوله مصر فحركة البريد أسرع من حركة العساكر.

***

ركبت مع البريد وكان ذلك في الحادي عشر من جمادى الأول من عام سبعمائة وكان قد انقضى من عمري آنذاك أربعون سنة، انطلقت بنا الخيل مسرعة لا تتوقف إلّا عند خانات مخصصة لها على الطريق، بين كل مرحلة ومرحلة مسافات متقاربة، نتوقف ويتم نقل البريد والحاجات والقليل من عليقة الدواب إلى خيل جديدة مرتاحة ومعلوفة وتنطلق فورا ولا نتوقف إلا للصلاة ويكون طعامنا مما يسهل تناوله على ظهر الخيل، سقنا وراء السلطان وكدنا نلحق به ولكنه وصل الساحل ولم نصل إلى القاهرة إلا بعد دخوله قصره وتفارط الحال، ذهبنا من فورنا إلى القصر مع البريد، وأجلسوني في قاعة الضيوف المجاورة للإيوان اليوسفي مجلس حكم السلطان، ودخل الأمير سيلار نائب مصر على السلطان ومعه البريديّ وبيده البريد.

ألقيت رأسي للخلف وأخذت بتمديد أطرافي لأريح عضلي بعد رحلة مستمرة لستة أيام أخذت مني كل مأخذ، ولم أشته النوم في حياتي كما اشتهيته في هذه اللحظة، لكن الأمر أكبر من الكرى، أخذت أفكر بالسلطان وبلاطه، فهل سأدخل على ابن السلطان المنصور قلاوون فاتح طرابلس؟ هل سأرى أمام عيني أخا السلطان

الأشرف خليل بطل معركة عكا صاحب الهمة العالية الذي غزا الروم وأخذ منهم قلعة بهنسا وقلعة الروم والذي عزم على غزو العراق وتخليصها من يد التتار وإعادتها إلى حاضرة الإسلام؟ هل ما زال في هذا القصر بقايا الأمراء الذين تآمروا على آل قلاوون؟ هل السلطان الناصر محمد هو ابن أبيه وأخو أخيه؟ أو أنه سلطان بلا سلطنة؟ هل هو من أهل النجدة والشجاعة أو أن الأمراء أشغلوه بالجواري والقِيان لتخلوا لهم السلطنة؟ مرّت كل هذه الأسئلة بخاطري وأنا أنتظر الإذن بالدخول. ماذا سأقول للسلطان؟ هل سأجده فتى صغيرا لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره؟ أو أني سأجد أسدا بجسد شبل؟

يحضر معاون الحاجب ويقول للمنتظرين في قاعة الضيوف:

- للدخول على السلطان مراسم فلا تخالفوها، أول ما تدخل تتقدم بين يدي السلطان وتقدم الخدمة.

فيسأل أحدهم:

- وما الخدمة؟
- أن تتقدم ماشيا لغاية العلام الأحمر على الأرض، وتنحني للسلطان ثم تقول «مولاي السلطان» وإن قدّم السلطان ظاهر يده اليمنى تتقدم وتقبلها ثم ترجع للخلف إلى حيث كنت دون أن تعطي ظهرك للسلطان. ثم لا تتكلم إلا بعد أن يأذن لك السلطان ولا تردّ عليه إن خالفك، ولا ترفع

صوتك، ولا تحرك يديك وأنت تتكلم، ولا تضع نظرك بنظر السلطان، وإن لزم ذلك فتنظر باحترام وإن أطال السلطان النظر إليك تخفض رأسك، ثم عندما تنتهي من حاجتك تخرج راجعا للخلف حتى تصل إلى الباب ثم تعطي ظهرك للسلطان وتخرج.

فتح الحاجب الباب ونادي بصوت عال:

- أين تقيّ الدين أحمد بن عبد الحليم؟

***

ماذا ستقول العامة عني وقد عدتُ خائفا من أول الشام وقد زِدتُ عرجا إلى عرجي، هل سيقولون كما زيّنت لي حاشيتي، أن السبب هو كثرة المطر المعيق لتحرك الجيش وأن الخطب ليس بجلل، وأن تهديدات قازان ليست حقيقية وأنه خرج بجيشه قبل عام من الشام ولن يعود وأننا مشغولون بقتال العربان في النوبة؟ أو سيقولون أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ولد صغير وليس أهلا للحكم فشتان بينه وبين المنصور قلاوون والأشرف خليل؟

فلماذا خرجت إذاً بعساكري إلى الشام إن لم يكن الأمر يستدعي ذلك؟!

لا أنكر أني خفت فالخوف ليس عيبا، فقد هُزمت في معركة وادي الخازندار وفررت في بقية حرسي الخاص إلى دمشق

مخذولا ملوما، ومنها إلى مصر وإلى قصري وإلى سريري وإلى حضن مربيتي الست حدق، لقد اشتقت إلى حضنها، هو يشعرني بالأمان، أين أنت يا ست حدق؟ هم لم يسمحوا لك بالاقتراب من سرير الملك بعد أن أصبحت سلطانا. ما لي وللحكم وما لي وللسلطنة، يتحكم بي كبار الأمراء، هذا نائبي عن مصر سيلار لا أطمئن له وأظنه لم ينقلب عليّ لغاية الآن إلا خوفا أن يُقتل كما قتل كل من تمرد على آل قلاوون كبيدرا ولاجين المنصوري.

كيف يكون الناصر خاذلا؟ وكيف يكون المهزوم منتصرا؟ الطف بي يا رب فأنا لا أعرف ما أفعل، قاتل الله الأمير بيدرا لو ترك أخي الأشرف خليل حيا لربما كنا الآن نغزو التتار في بغداد ولا يغزوننا في الشام.

عدنا من الساحل بعد أن لاقت مشورة الأمراء هوىً في نفسي، ودخلت القاهرة ولم يستقبلني أهلها بالورود والشمع، ولم تُدق الطبول وتصدح الأبواق احتفالا بالنصر، بل دخلتها على خجل، أواري سوأتي، وها أنا أجلس على سرير الحكم كالعذراء في خدرها، وبريد نائب دمشق الأمير آقوش يتتابع عليّ يوميا يطالبني بنجدته ولا أدري ما أرد عليه.

دخل عليّ نائب مصر الأمير سيلار قائلا:

- السلام عليكم مولانا السلطان الناصر.
- وعليكم السلام ورحمة الله.

يتدخل رئيس الطباخين الجاشنكير بيبرس مطأطئا رأسه ويقول بتذلل:

- مولاي السلطان، اسمح لي قبل بدء مجلسكم العامر، أن أسأل عن طعامكم اليوم، ماذا تفضلون يا مولانا؟

لم أكترث لسؤاله وأشرت إليه بيدي دون أن ألتفت إليه:

- كالعادة.
- أمرك مولانا.
- هات ما عندك يا سيلار.
- أتحب أن نبدأ بالبريد كالمعتاد.

أجبته مرغما عني، لأن سؤال السلطان عن حال الشام أوجب من غيره رغم كرهي لما سأسمعه، وإن لم أفعل سيزيد ذلك من استخفاف الأمراء وأهل شورايَ مني:

- نعم، وابدأ ببريد الشام.

ينادي الأمير سيلار على البريديّ:

- هات بريد دمشق.

يتقدم البريديّ من الأمير سيلار ويضع البريد بين يديه، فيحل رباطه ويفتحه ويقرأ:

- إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون أدام الله ظله من

نائب السلطنة في دمشق الأمير آقوش أَرسلتُ إليكم تقيّ الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، والسلام.

أقف عند سماعي لاسم الشيخ تقيّ الدين وأقول:

- أهو هو؟!

يجيبني الأمير سيلار وقد تهلل مبتسما:

- نعم يا مولاي هو هو، العالم المجاهد الآخذ بثأرك من أهل الجبل والكسروان.

يتدخل قاضي القضاة ابن مخلوف منزعجا:

- إن أذن لي مولاي السلطان.
- تفضل يا ابن مخلوف.
- ليس الأمر كما وصفه الأمير سيلار، فأنت تعلم أن من طبعه المبالغة.
- ما شهدنا إلا بما علمنا. يجيب الأمير سيلار بغضب.
- لقد وصلني من القضاة والفقهاء في دمشق أن تقيّ الدين هذا رجل فتنة.

أسأله:

- وكيف ذلك؟

- إنه رجل عامة، وما ينبغي للعالم أن يكون رجل عامة يسعى إلى الشهرة، كما أنه يتكلم في أمور في العقيدة يخالف بها السادة العلماء، ولم يرسله لك الأمير آقوش إلا لأن تقيّ الدين هو الحاكم الحقيقي لدمشق لا آقوش، وقد استغل الفوضى التي حدثت في الشام ليحقق لنفسه سيادة بين الناس، إن لم تظهر الآن فستظهر لاحقا، والكيّس من يرى الخطر قبل حدوثه ولا تفوته اللحظة.
- ومن أخبرك بهذا؟
- أخبرني به أناس من أعيان دمشق وفضلائها.
- يتدخل سيلار مرة أخرى:
- مولاي السلطان لقد تواترت الأخبار الطيبة عن الشيخ تقيّ الدين كما كان يَرِد علينا من بريد الشام، وما أظن كلام ابن مخلوف إلا خلاف أقران.

يحتد ابن مخلوف غاضبا:

- لقد توليت منصب قاضي القضاة قبل خمسة عشر عاما أيام المنصور قلاوون رحمه الله ولم يكن تقيّ الدين هذا شيئا يذكر حينها بل كان فتىً صغيرا لا يؤبه به ولا يُلتفت إليه، ثم تقول لي يا سيلار أن موقفي خلاف أقران، فليسمح لي السلطان أن أغادر فلدي أشغال في دار القضاء.

آذَنُ له بالخروج كي أسمعَ من الشيخ تقيّ الدين لا عنه:

- كما شئت يا ابن مخلوف.

ثم ألتفت إلى الحاجب وأقول:

- أدخل تقيّ الدين أحمد ابن تيمية.

***

مُتناسيا مراسيم الدخول على السلطان يدخل الشيخ إلى الإيوان اليوسفي الكبير مُتعمِّدا رفع رأسه دون انحناء عليه مهابة عظيمة، فينظر إليه السلطان الناصر فيجد نفسه أمام رجل أسود الرأس حنطي اللون رَبْع القامة بعيد ما بين المنكبين كأن عينيه لسانان ناطقان شعره مقصوص وشيبه يسير ولحيته مستديرة، فيبادر الشيخ الكلام بصوته الجهوري:

- السلام على مولانا السلطان الناصر.
- وعليكم السلام ورحمة الله يا تقيّ الدين، سمعنا عنك وها أنت ماثل أمامنا.
- أنا في خدمة السلطان بما يرضى الله عز وجل.
- أراك ما زلت بلباس السفر.
- أذهلني ما بالشام عن تغيير ملابسي.
- وذاك شأن النذير العريان.

خرجت الكلمات من فم السلطان على سجيته ولم يستطع إعادتها لأنها ستحمله تبعات إجابة النذير المستغيث فأعقب بقوله:

- وشأن الناصح الأمين.
- اعذرني أيها الناصر، فإن الناصح من يَصْدُقك لا من يُصَدِّقُك.
- اصدقني يا تقيّ الدين.
- ولي الأمان.
- لك الأمان
- إن عودتك إلى مصر بعد خروجك إلى الشام كانت خذلانا لله ولرسوله وللمسلمين.

يتدخل بعض الأعيان:

- أنت في حضرة السلطان يا تقيّ الدين وهذا شظف في القول ...

يتدخل السلطان مشيرا لأهل مشورته بالسكوت:

- تابع يا تقيّ الدين.

يلتفت الشيخ تقيّ الدين إلى حاشية السلطان وينظر شزرا ويقول مُحتدّا:

- الخطب جلل وحضرة العلم أجلّ وأعظم، والنصيحة أولى من المجاملات الكاذبة، فالمشورة الخاطئة هي التي أعادت مولانا السلطان من طريق الجهاد إلى جنبات القصر.

ينظر السلطان متعجبا ومعجبا بشجاعة الشيخ:

- ولكني لست قازان يا تقيّ الدين لتخاطبني بهذه الطريقة.
- صدقت بل أنت ابن المنصور قلاوون وأخو الأشرف خليل، وأصدقك القول أني قبل أن أدخل عليك خفت أن أرى غلاما في لباس سلطان، ولكني والحمد لله رأيت سلطانا في جسم شاب.

لم يستطع السلطان إخفاء سروره وقال مبتسما:

- تابع يا تقيّ الدين.
- إن كانت معركة وادي الخزندار تمنعك، فقد انتصر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن هُزم في أُحد، وكم من ملك اسْتُظهِرَ عليه ثُمَّ نُصِر، وعاوده التّأييد فجبره بعدما كُسِر، خصوصا ملوك هذا الدين فإن الله تكفَّل لهم بحُسن العقبى، وإن كانت قوة السَّبُع المغتال والنمروذِ المختال قازان تمنعك، فقد هَزم المظفر قطز من هو أقوى منه هولاكو اللعين وشرد جحافله في عين جالوت، وإن كانت منعة التتار تمنعك، فقد سقطت عكا بيد أخيك الأشرف خليل وقد كانت منيعة امتنعت على صلاح الدين وعلى الظاهر بيبرس وعلى المنصور قلاوون، وإن كانت فتنة إعلان قازان نفسه سلطانا للمسلمين تمنعك، فقد قاتل أبو بكر رضي الله عنه الجزيرة العربية عن بكرة أبيها وقد امتنعت عن الزكاة فقط وقازان هذا امتنع عن كافة مباني

الإسلام وأركانه وعظّم شريعة جنكيز خان، وإن كانت كثرة الفقهاء والعلماء في جيش قازان تمنعك، فقد نجم النفاق في المدينة المنورة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم رأى الناس ضعف المسلمين وقوة مرتدي الجزيرة العربية، واعلم أيها الناصر أن نظام الدين محمود شيخ مشايخ قازان قد اغتصب ستمائة ألف درهم من أهل دمشق ومثله رشيد الدين الهمذاني وابن نصير الطوسي، وإذا عُرف السبب بَطُل العجب...

- أصحيح ما وصل إلينا من أخبار أن قازان عرض عليك إعمار حرّان ورياستها؟

يجيب الشيخ تقيّ الدين وقد انزعج من سؤال السلطان وبدأ صوته يعلو قليلا احتجاجا على مقاطعته:

- أخبروني بذلك ولم أكن أتذكر ولم أهتم...

وإن كانت المشكلة في عمرك أيّها الناصر فقد أرسل نبينا محمد أسامة بن زيد على بعث الشام وهو في عمرك، فاجعله بعثا ثانيا للشام وكن أنت ليثا وأسامة، وإن كانت الدنيا يا محمد تمنعك، فعش ما شئت فإنك ميت واعلم أن المنايا محتومة، فكم ممن حضر الصفوف فَسَلِم، وكم ممن فرَّ من المنايا فصادفته ...

أصوات تتعالى:

- أطال الله عمر السلطان.

يكمل الشيخ تقيّ الدين كلامه دون التفات للأصوات المتعالية والاحتجاجات المتتالية:

- ولعل الله يتوب بالنصر على من يشاء من المسلمين الذين خالط قلوبهم مرض أو نفاق بأن يُنيبوا إلى ربهم ويحسن ظنهم في الإسلام وتقوى عزيمتهم على دوام الجهاد، وإن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطانا يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن.

يقف القاضي ابن مخلوف الذي لم يستطع ترك الشيخ تقيّ الدين يخلو بالسلطان دونه، فعاد إلى المجلس بعد أن غادره، ويقول وكأنه وجد ضالته:

- أرأيت يا مولانا السلطان، هذا رجل فتنة كما أخبرتك وهو يهددك بوجهك أنه سيخرج عليك ويستقل بحكم الشام.

ثم يلتفت ابن مخلوف إلى الشيخ تقيّ الدين ويستتبع كلامه:

- السلطان لم يجبن ونحن من أشرنا عليه بالرجوع لانتفاء الحاجة في الشام ولقتال العربان في النوبة.

يكمل الشيخ تقيّ الدين كلامه دون أن يلتفت إلى ابن مخلوف:

- الحاجة قائمة بل مُلحّة، والسلطان يعرف ذلك في قرارة نفسه بل كل أهل مصر يعرفون ذلك ولو ناديت فيهم

للخروج إلى الجهاد لخرجوا معك فقد سمعوا جميعا بقصص التتار وعلموا ما حدث بمدن الشام وفلسطين يوم عاث فيها قائد قازان بولاي فسادا وقتلا واغتصابا، ولو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم ...

يقف الشيخ الحافظ ابن دقيق العيد مقاطعا الشيخ تقيّ الدين الذي استرسل بالحديث مستأذنا السلطان بالكلام:

- الأمر كما يقول تقيّ الدين يا مولانا وهو حكم الشرع، فتوكل على الله ونحن من ورائك.

ثم يهمس الشيخ ابن دقيق في أذن الجالس بجانبه: «رجلٌ سائر العلوم بين عينيه يأخذ ما شاء منها ويترك ما شاء، ما كنت أظن أن الله بقي يخلق مثل هذا الشيخ»

تتعالى الأصوات التي كانت صامتة يوم وجدت من يبادر بالتأييد:

- صدقَ الشيخ يا مولانا ... صدق الشيخ.

يختم الشيخ تقيّ الدين كلامه:

- أحسن النية أيها الناصر وجرّد العساكر وأعدّ للتتار ما استطعت وأنا ضامن لك النصر في هذه الكرة، وعدا غير مكذوب.

يقف السلطان فيقف الحضور جميعا ويضرب بيمينه مسند كرسيه ويقول بصوت حازم وقد امتلأ عزيمة بعد أن أخرج الشيخ تقيّ الدين كل الوساوس من رأسه:

جردوا العساكر وأعلنوا التعبئة العامة وأخبروا الخليفة المستكفي بالله وأعدوا الجيش وسأكون أنا والخليفة على رأسه ولتكن معركة واحدة وفاصلة بيننا وبين المغول.

***

رجع الشيخ تقيّ الدين في السابع والعشرين من جمادى الأول على البريد بعد أن أقام في ضيافة السلطان الناصر ثمانية أيام التقى بالعساكر والأمراء والأعيان وحثهم على الجهاد والاستعداد، وما إن وصل دمشق حتى جاءت الأخبار بأن ملك التتار قازان قد خاض الفرات راجعا عامه هذا لضعف جيشه وقلة عددهم وكثرة الأمطار والأوحال متوعدا العودة بحملة ثالثة أكبر وأعظم، فطابت النفوس لذلك، وسكن أهل دمشق ومدن الشام وعادوا إلى منازلهم منشرحين آمنين مستبشرين، وعاد نائب السلطنة الأمير آقوش من المرج وقد خيم فيه مع عساكره مدة أربعة أشهر متتابعة. ثم قرئت شروط الذمة على أهل الذمة وألزموا بها بعد أن حاولوا إعادة تحالفهم مع التتار، كما فعل آباؤهم مع هولاكو يوم احتل دمشق ورفعوا فيها الصليب وأذلوا المسلمين، واتفقت كلمة الأمير والفقهاء على عزلهم عن الجهات، وأخذوا بالصغار، ونودي بذلك في دمشق ومدن الشام وألزم النصارى بالعمائم الزرق، واليهود

بالصفر، والسامرة بالحمر، فالأيام قادمة والحملة الثالثة لقازان على الأبواب.

وصلت الأخبار إلى السلطان الناصر فأمر باستمرار التعبئة والاستعداد، ثم تزوج بالفسحة هذه من زوجة أخيه المتوفي الأشرف خليل قلاوون، خوند أردكين بنت نوكاي ليعزز بذلك من مكانته باستغلال حب الناس للأشرف لسمعته الطيبة في مصر وفي بلاد المسلمين، فالموعد بينه وبين قازان قد اقترب ويلزمه جمع الناس حوله بكل الأسباب الممكنة لينهي وجود التتار في بلاد الشام كما أنهى أخوه الأشرف خليل وجود الصليبيين فيها.

مكتبة ياسمين

telegram
@yasmeenbook

(14)

إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني

ابن تيمية

دمشق (701) هجري

زحفت الأهوال على الشام، فعلى الأرض حرّك قازان أكبر جيوشه على الإطلاق في حملته الثالثة أكثر من مئتي ألف مقاتل، وقد عزم هذه المرة أن يجتاز بهم ساحل إفريقيّة بعد تخريب دمشق وغزو مصر، وفي السماء قدم إلى الشام جراد هائل كبير الحجم لم يُر مثله، أكل الزرع والثمار وجرد الأشجار حتى صارت مثل العصي.

أرسل نائب دمشق الأمير آقوش البريد إلى مصر أن العساكر التترية قد تحركت، ووقع بيده كتاب فيه أن الشيخ تقيّ الدين والقاضي شمس الدين بن الحريري وجماعة من الأمراء والخواص الذين بباب السلطنة يكاتبون التتار من أجل إعادة الأمير الهارب قبجق وتوليته على دمشق نائبا عن قازان، فأرسل الأمير آقوش في طلب الشيخ تقيّ الدين وحده، ولّما حضر أدخله وأكرمه:

- اعذرني يا تقيّ الدين على طلبي لك بهذا الشكل وعلى ما سأناقشه معك.

- لا عليك أيها الأمير. ولكن قبل ذلك تقبل مني هذه الهدية المتواضعة أحضرتها معي من القاهرة قارورة زيت جديد يُستخدم في القناديل، حسن الإضاءة قليل الرائحة يسمونه زيت الجُلجُلان، لعله إن أعجبك تُحضر منه إلى دمشق ما يستعين به طلبة العلم على القراءة والتصنيف ليلا.

يبتسم الأمير ويرد مازحا على الشيخ:

- أشكرك يا تقيّ الدين وكأني بك ترشيني خدمة للعلم والعلماء.

فيرد الشيخ ضاحكا:

- هذه رشوة جائزة، ما الأمر الذي طلبتني فيه.
- أنا أثق بك يا تقيّ الدين ولكن خطورة الكتاب الذي وقع بين يديّ يستدعي مني أن أحقق فيه، خاصة أن به أسماء غير اسمك لذلك طلبتك وحدك. وأنا على يقين أنه مجرد أُخلوقة مكذُوبة.
- وماهيّة الكتاب؟
- يتهمونك فيه بمراسلة قازان والعمل مع الأمير قبجق للعودة إلى دمشق.
- لا حول ولا قوة إلا بالله، التتار عبروا الفرات والجراد ملأ السماء وهؤلاء يحفرون تحت أقدامنا بكذبهم وإرجافهم.
- لقد أرسلت من يفحص عن واضع الكتاب ولكن كان لابد لي من سؤالك.

- لابد أن واضعه من الفقراء فقد احتدم النقاش بيني وبين بعضهم في الأيام الماضية وبيّنت بطلان آرائهم وسخّفت أقوالهم، وقرأت عليهم قول الله تعالى «ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها» وقلت لهم مستفزّا ومُحقّرا؛ أليس بعضكم يضع حلق الحديد في ذكورهم حتى لا يتأتى لهم إتيان النساء فهل هذا من الإسلام في شيء!!
- ألم أنصحك يا شيخنا بأن تترفق قليلا بخصومك.
- ومن للحق إن ترفقت بهم، وهل يحق لهؤلاء المحجوبين المنقوصين المسبوقين الحيارى المتهوِّكين أن يتكلموا بأمر الدين. هم أنصاف متكلمين وأنصاف متعلمين وأنصاف متفقهين.
- لا تتنازل عن أمر الشرع، ولكن ترفق بالأشخاص فهذا أدعى لاستجابتهم، وهو يدفع عنك الحُسّاد والكارهين، ألم تسمع قول الله تعالى وأنت أعلم به مني: «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى»
- صدقت أيها الأمير، لكني والله ما إن أسترسل بالنقاش مع أحدهم، فيظهر لي منه عناد حين أُبيّن له قول الله وقول رسوله في المسألة، حتى أبدأ بتقريعه وتسخيفه لا غضبا لنفسي لكني أعتقد أن تلك مكانة من لم يُسلِّم لأدلة الشرع، ثم أنت أعلم الناس بخُلقي في مثل هذه الأمور أيها الأمير.

يجيب الأمير آقوش مبتسما:

- وهل يخفى عليّ خُلقك يا تقيّ الدين وقد نالني منه ما نالني.
- لو رأيتني أيها الأمير يوم دخلت على مجلس السلطان الناصر في مصر، صوتي يعلو وينخفض وأنا غافل عن ذلك، لم أدركه إلا حين أخذني نائب مصر الأمير سيلار بعد اللقاء وقال لي: يا شيخنا لو كان غير السلطان الناصر لقطع رأسك.

يضحك الأمير ويقول:

- إذاً فقد أُعجب بك مادام رأسك ما زال فوق أكتافك.

يبادله الشيخ الضحك ويقول:

- ولو كان غير ذلك فستكون مشكلتك مع والدتي ست النعم، أرسلتني إلى مصر كاملا وأعدتني لها بلا رأس.
- حفظك الله يا شيخنا ذخرا للإسلام والمسلمين.
- وحفظك بحفظه.
- أريد أن استشيرك بأمر آخر عُرض عليّ.
- تفضل أيها الأمير.
- انظر هذا الكتاب فقد أحضره اليهود الخيابرة يزعمون أنه من رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضع الجزية عنهم.

يتناول الشيخ تقيّ الدين الكتاب من يد الأمير ويقرأه بتمهل ثم يبصق على الكتاب ويقول وهو يحاول ضبط صوته وإخفاء معالم الغضب التي اعتلت قسمات وجهه وانتفضت لها أطرافه:

- ها أنا أتكلم مبتسما أيها الأمير حتى لا تقطع رأسي.

يضحك الأمير على طرفة الشيخ ويقول:

- لك الأمان يا تقيّ الدين.
- إنه مكذوب مفتعل لما فيه من الألفاظ الركيكة، والتواريخ المحبطة، واللحن الفاحش، زعموا فيه أن سعد بن معاذ شهد على الكتاب يوم خيبر وقد توفي رضي الله عنه قبل ذلك بنحو من سنتين، وفيه أيضا وكتب علي بن (أبو طالب) وهذا لحن لا يصدر عن أمير المؤمنين علي، فهو كما تعلم قد أُسند إليه علم النحو من طريق أبي الأسود الدؤلي، فَرُدَّ عليهم كتابهم أيها الأمير فهو مزور.

ينادي الأمير على كاتبه ويأمره أن يكتب لليهود الخيابرة أن يلتزموا بأداء الجزية أسوة بأمثالهم من اليهود، وإن ترددوا فقل لهم أن الأمير سيستعيد منهم شؤونهم ومصالحهم الماضية ثم سيدفعون الجزية عن يد وهم صاغرون. ثم يلتفت الأمير إلى الشيخ مرة ثانية وقد تذكر ويقول:

- لقد ثار عليك جماعة من الحسدة وشكوا أنك تقيم الحدود وتعزر وتحلق رؤوس الصبيان، فرددتهم وقلت لهم أنك تفعل ذلك بإذني.

- أيها الأمير إنما هو واجب العلماء ينهون عن المنكر بأيديهم إن استطاعوا وإذني بذلك من الله وليس منك ...

يقطع حديثهم الرسول الذي أرسله الأمير ليتحقق من شأن تهمة مراسلة الشيخ تقيّ الدين للتتار قائلا:

- «جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ» يا خوند عالم.

يرد عليه الأمير بصوت غاضب:

- لا تتكلم بالفارسية وأعد ما قلت باللغة العربية ألا ترى أننا بحضرة الشيخ تقيّ الدين.

يرتبك الرسول قليلا ثم يعيد:

- «جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ» يا مولاي الأمير.
- أخبر ما وراءك.
- تحققت من الكتاب، فإذا هو فقير من خصوم الشيخ تقيّ الدين يقال له اليعفوري، وآخر معه يقال له أحمد الغناري، وكانا معروفين بالشر والفضول، ووجدت معهما مسودة هذا الكتاب.
- إن كان كذلك فقد تمت تبرئة من وردت أسماؤهم بهذا الكتاب المزور، ولسوف أعزر هذا اليعفوري وصاحبه تعزيرا عنيفا، أحضروا لي من كتب الكتاب بيده وزوّر على الشيخ تقيّ الدين فلأقطعنّ يده ليكون عبرة لمن تخول له

نفسه شق الصف وبث الأراجيف ونحن نستعد لمواجهة أعتى حملة تترية على الشام منذ دخلها هولاكو.

يرد الشيخ تقيّ الدين:

- احزم أيها الأمير، فلا نصر بلا حرب، ولا حرب بلا حزم.
- جاءتني بعض الأخبار من نواحي حلب أن التتار هناك تترسوا ببعض المسلمين حين هاجموا حلب فماذا نفعل إن كرروا فعلتهم هنا في دمشق.
- إن الأئمة متفقون على أن الكفار لو تترسوا بمسلمين وخيف على المسلمين إذا لم يقاتلوا، فإنه يجوز أن ترميهم وتقصد الكفار، وإن لم نفعل فسيجتاح التتار بلادنا بترس من المسلمين ونحن ننظر إليهم وهم يعيثون في الأرض فسادا، يقتلون الأنفس ويغتصبون الأعراض ونحن لا نفعل شيئا، وهذا ما لا يقبله الشرع ولا يستسيغه العقل.

***

رغم البشائر التي دقت بقلعة دمشق وعلى أبواب الأمراء وفي المرج حيث يعسكر جند الشام بخروج السلطان بالعساكر المصرية لمناجزة التتار، ورغم البطاقة التي وصلت بانتصار المسلمين في وقعة عَرَضْ التي التقى فيها جماعة من أمراء المماليك على رأس ألف وخمسمائة مقاتل مع سبعة ألاف من طلائع الجيش التتري، فاقتتلوا وصبر المسلمون حتى نصرهم الله وخذل التتار، فقتلوا

منهم خلقا كبيرا وأسروا آخرين، وولّى من بقي منهم مدبرين، وغنم المسلمون منهم الغنائم، وعادوا سالمين لم يُقتل منهم إلا القليل ثم قدموا إلى دمشق يجرون الأسارى، إلا أن خوف الناس وهلعهم كان يزداد كلما اقترب الجيش التتري أكثر فأكثر، وعندما وصلتهم أخبار اجتياز قازان الفرات انزعجوا واشتد خوفهم وقنت الخطباء وقُرئ البخاري في الجامع الأموي وجفل الناس إلى الديار المصرية والكرك والحصون البعيدة، وقال المنافقون في المدينة: «ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم فينبغي الدخول في دولة التتار» وقال آخرون: «نستسلم لهؤلاء كما استسلم أهل العراق وندخل تحت حكمهم».

لم يكن وصول طائفة من الجيش المصري فيهم مجموعة من الأمراء المقدمين كافيا للناس كي تطمئن قلوبهم، فرغم ما تحقق من سكون في بداية الأمر إلا أن الخوف من عودة السلطان الناصر إلى مصر هاربا كما فعل أول مرة قبل عام كان أكبر.

جفل الناس وهربوا من حلب وحماة وحمص وتلك النواحي إلى دمشق وتقهقرت العساكر الحلبية والحمويّة إلى حمص ثم إلى المرج خارج دمشق، وتواترت الأخبار أن التتار وصلوا إلى حمص وبعلبك وعاثوا في تلك الأراضي فسادا، فأربك ذلك الأمراء وانتشر الإرجاف واختبط البلد وتفرق الناس وخرجت الشلوح واللصوص إلى البساتين يقطفون المشمش قبل أوانه والباقلاء والقمح والشعير في السنبل وغير ذلك من الزراعات، فاجتمع الأمراء بساحة الميدان

وسط دمشق وحضر معهم من ثبت من الأعيان والمشايخ وتحالفوا على لقاء العدو، وشجعوا أنفسهم، ونادى الأمير آقوش أن لا يرحل من دمشق أحد، وحلف جماعة من الفقهاء والعامة على القتال على مقدمتهم الشيخ تقيّ الدين ابن تيمية الذي أخذ على عاتقه جمع الناس والأمراء ومراسلة عساكر الإمارات الشامية، ثم حلف لهم جميعا ووقف فيهم خطيبا:

- والله إنكم في هذه الكرة لمنصورون.

فقيل له:

- قل إن شاء الله.

فرد عليم:

- إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا.

ثم ترك الشيخ الميدان بعد أن كرر قسمه عدة مرات والتحق بالعساكر الواصلة من حماة فاجتمع بهم في القطيعة، وأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم الأيمان. ثم جاءت رسالة من الأمير آقوش إلى الشيخ فيها: «يا تقيّ الدين أدرك الناس فقد تكلم عامتهم في كيفية قتال هؤلاء التتار من أي قبيل هو، فإنهم يُظهرون الإسلام، ومعهم المشايخ والفقهاء والقضاة، فكيف وليسوا بغاة على السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم

خالفوه» فأخبر الشيخ الرسول: سأذهب إلى الميدان مرة ثانية فأخبر الأمير أن يجمع لي الأمراء والناس لأتكلم بهم هناك.

وقف الشيخ على مصطبة مرتفعة في الميدان بحيث يراه الناس ويسمعوه وقال:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، لقد التقيت بقازان قبل سنتين، وزعم أنه يؤمن أن الله ختم النبيين بمحمد عليه الصلاة والسلام، ولكنه يعتقد أن جدّه جنكيز خان هو ملك البسيطة، وكل من خرج عن طاعته وطاعة ذريته ولم يلتزم بشريعته فهو خارجي، فاعلموا أن «كل طائفة ممتنعة عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم وغيرهم، فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين، وملتزمين بعض شرائعه، كما قاتل أبو بكر الصديق والصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة. وعلى ذلك اتفق الفقهاء بعدهم بعد سابقة مناظرة عمر لأبي بكر رضي الله عنهما، فاتفق الصحابة رضي الله عنهم على القتال على حقوق الإسلام، عملا بالكتاب والسنة ... وهؤلاء عند المحققين من العلماء ليسوا بمنزلة البغاة الخارجين على الإمام، أو الخارجين عن طاعته، كأهل الشام مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه، فإن أولئك خارجون عن طاعة إمام معين، أو خارجون عليه لإزالة ولايته. وأما المذكورون فهم خارجون عن الإسلام، بمنزلة مانعي الزكاة».

ثم قال بصوت عال وحازم:

«إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني»

حضر الأمير آقوش وساعده بعض العسكر على تسلق المصطبة فوقف وصاح بصوت مسموع، هذا كتاب السلطان الناصر إلى قازان ومما جاء فيه:

«... وليس يخفى على الملك قازان الذي جرى بدمشق في جبل الصالحية، إن كان مثل هذا يكون من فعل المسلمين بالمسلمين، أو عمل من هو متمسك بالدين، فأين وكيف وما الحجة؟ وحَرَمُ بيت الرحمن الهناء، يُشرب فيه الخمور، وتُهتك فيه الستور، وتُطمث فيه البكور، وتقتل فيه المجاوير، ويُؤسر الخطباءُ والمؤذنون، ثم على رأس خليل الرحمن تُعلَّق الصُلبان، وتُهتك النسوان، ويدخل الكافر بَخِساً سكران ...».

فتفطن الناس لذلك وتبعهم العلماء وتبددت الأراجيف وتشجع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم.

(15)

مرج الصُّفَّر

مرج الصُّفَّر (سهل شقحب) (702) هجري

بدأت بدخول الربيع النُدَفُ التي تساقطت على جبل الثلج المُطل على بلاد الشام وكست رأسه بياضا كشيخ غزا شعره الشيب، بدأت بالذوبان مُنحدرة على سفوحه تلحق قطراتها بعضا في جريان ماء عذب صاف انبثق عنه نهر الأعوج، أمل أن يشرب منه ثمانون ألف تتري جروا وانحدروا عن جبل غباغب القريب من مرج الصُّفَّر، فالتقى الانحداران، انحدار الماء عن جبل الثلج وانحدار التتار عن جبل غباغب على ضفاف النهر لا ليشربوا منه، بل لِيُصبغ ماؤه الصافي بدم التتار القاني.

***

جيش عرمرم يسير في موكب مهيب في الأول من رمضان بدت طلائعه في الأفق يحجب رؤيته غبار أثارته سنابك خيل السلطان الناصر محمد بن قلاوون صحبة ولاة الأمور وعظماء المملكة والأمراء المصريين والشاميين وأرباب الحل والعقد وأعيان البلاد، اجتمع تحت لوائه مئتا ألف مقاتل من العساكر

والمتطوعة فيهم سبعة عشر ومئتا أمير، حضّهم على التجمع حول السلطان الشيخ تقيّ الدين، طَبَّقت جموعهم سهل مرج الصّفّر، طال انتظار أهل الشام لهذا الجمع بعد أن بلغت قلوبهم الحناجر، فذكر التتار ما زال يثير الرعب منذ وطئت أقدامهم أراضي المسلمين قبل أقل من مئة عام بقليل، قتلوا الأطفال واغتصبوا النساء وحرقوا المدن وخربوا البلاد ساحت جيوشهم في بلاد المسلمين لا يردهم راد حتى قتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله في عاصمة الخلافة بغداد قبل أكثر من ست وأربعين سنة رفسا بالأقدام، فردّهم في عين جالوت أول سلاطين الدولة المملوكية الأقوياء المظفر قطز في مكان ليس ببعيد عن مرج الصّفّر. إلا أن وجودهم لم ينته وانقسمت دولتهم المُوَحّدة إلى دول منها دولة مغول الصين، ومغول القفجاق، ومغول فارس الذين هددوا؛ وما زالوا، واجتاحوا؛ وما زالوا أرض المسلمين في العراق وفي الشام وما جاورها حتى جاء يوم المعركة الكبرى معركة مرج الصُّفَّر.

تتقدم الأرتال رتلا تلو الآخر إلى سهل شقحب، باتوا ليلتهم على التعبئة مُتّدَرِّعين وقد أمر السلطان كل جندي أن يشعل أربعة نيران حتى يبدو في نظر العيون التترية أكبر وأكثر، مُقَسَّمين إلى توامين لكل تومان من الأرتال لونه الخاص وعلى رأس كل تومان أمير من أمراء المماليك، تعلوهم الرايات وتُدق الطبول بين أيديهم، يتقدمهم موكب السلطان في أُبّهة الملك يرافقهم الخليفة العباسي المستكفي بالله، يستمد منه السلطان الناصر شرعية الملك ودعاء المسلمين وبركة قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم ومنعة قريش

فلا ينازعهم في الملك أحد. انحدرت الأرتال نحو سهل مرج الصّفّر جنوب غرب دمشق لتلتقي بجيش التتار بقيادة قطلغ شاه الذي ترك دمشق ولم يدخلها متوجها لملاقاة جيش السلطان في ساحة المعركة، فإن ظفر به في مرج الصّفّر فقد ظفر بدمشق وبكل الشام وسيلاحق فلوله إلى القاهرة.

وصلت البشائر لدمشق بوصول جيش السلطان، فخرج من استعد من العامة للحاق بالمقاتلة على إثر عساكر دمشق التي سبقتهم إلى ساحة المعركة، يترأسهم الشيخ تقيّ الدين ابن تيمية، تسلحوا بما تيَسَّر من سيف و رمح أو خنجرة وعصاة أو دَبَسة وحجر، خرجوا سيرا على الأقدام وما زالت قلوبهم ترتجف من الشائعات التي سرت في دمشق بأن جيش مصر لن يحضر وأن السلطان الناصر محمد بن قلاوون نكث بوعوده التي أعطاها للشيخ تقيّ الدين ابن تيمية قبل عام في القاهرة، ولم تطمئن صدورهم حتى رأوا بأعينهم العساكر المصرية، فبريد البشائر الذي دخل دمشق قبل ساعات لم يغنِ عنهم ما رأت أعينهم من كتائب إثر كتائب وصلت موقع المعركة.

أخذ كل جيش موقعه من المعركة، تعداد جيش التتار أكثر من مئتي ألف مقاتل يتكون من اثني عشر تومان كل تومان فيه عشرة آلاف مقاتل تتري فيهم تسعون ألف فارس كأن وجوههم المجان المطرقة ومعهم حلفاؤهم، يقودهم نائب سلطان التتار قازان؛ الأمير قطلغ شاه نويان وعليه القباء العسكري والزرد يتبختر على

فرسه بين الجند وموسيقى الحرب تصدح بين يديه يخطب فيهم قائلا:

نحن الذين طرقت وجوهنا بمجان الحرب فتسطحت ...

... سنهزم اليوم الغلام الأعرج ذو الثمانية عشر عاما محمد بن قلاوون وجيشه.

ثم يسير بفرسه فرسخا من الأرض مقتربا من جيش المسلمين مخاطبا المغول المسلمين الذين يقاتلون مع جيش السلطان الناصر: «أيّ إله هذا الذي يطلب منكم الاختيار بينه وبين الذين من دمكم ولحمكم» ويعود إلى جيشه ويهتف بهم:

كونوا جميعا على قلب جنكيز خان ثم اعبدوا من شئتم

واعلموا أن من كان مبتدأ دولته مجرد امرأة اسمها شجرة الدر ... مهزوم

وأن من كان مبتدأ دولته القائد العظيم الخالد جنكيز خان ... منتصر

لا يستويان

اليوم سنثأر لعين جالوت.

فيتعالى صياح جيش التتار، وتصدر السيوف أصواتا مجلجلة وهي تدق الدروع على الصدور، يتبعها الغناء الذي يسبق

أي معركة وصراخ بهيميّ مرعب يتردد صداه في سهل شقحب

«أغا أغا أغا أغا أرر تشوو أرر تشوو أرر تشو

مُبارك من السماء الأزلية... وليد السهوب الواسعة ... في كل مكان تحت سماء منغوليا ... تردد اسمه في جميع أصقاع الأرض ... قائد المغول الشجاع جنكيز ... القائد الأسمى جنكيز

أغا أغا أغا أغا .... أرر تشوو أرر تشوو أرر تشو

قائد المغول الشجاع جنكيز ... القائد الأسمى جنكيز»

يستعرض كلّ جيش الآخر، يشغل بال الجنود قبل القادة مآلات الأمور، فالهزيمة تعني القتل أو الأسر أو الفرار، كلّ طرف يبشر جنوده بالجنة إن قُتل وبالغنائم إن قَتل، جيش التتار مُلىء بالفقهاء والشيوخ يبشرون جنود التتار ومن قاتل معهم من العرب والمسلمين أنهم منصورون وأنهم على الحق ويفتون أنّ الناصر محمد بن قلاوون باغ خرج على سلطان المسلمين محمود قازان، والشيخ تقيّ الدين من طرف آخر يقول لجيش المسلمين «لو وجدتموني أقاتل مع التتار والمصحف على رأسي فاقتلوني».

وكلاهما قد أجمع في خطاب جيشه أنّه؛ إما النصر الآن

وللأبد، وإما الأسر والسبي، فالأمان المؤمل بعد المعركة يدفع الجنود والمتطوعة إلى القتال بشراسة وبذل كلّ الوسع، كما الخوف؛ نقيضان يدفعان نحو النصر.

***

أصبح الدماشقة على ما كانوا عليه من الخوف وضيق الأمر، فاعتلوا المنابر والمآذن فرأوا سوادا وغبرة من ناحية مرج الصّفّر، فغلب على الظنون أن المعركة بدأت، ففزعوا إلى الجامع الأموي وابتهلوا إلى الله عز وجل بالدعاء، وطلع النساء والصغار على الأسطح وكشفوا رؤوسهم وضجت دمشق ضجة عظيمة، وفتحت عليهم السماء أبوابها فوقع مطر عظيم غزير، فاستبشر الناس به وسكنت نفوسهم، ولمّا كان وقت الظهر صاح صائح على سور دمشق:

- رسول ... رسول.

دخل الرسول على فرسه فتبعه الناس حتى وصل الجامع الأموي، وهم لا يعلمون أبشارة ما يحمل أم نذارة؟ نزل عن فرسه وقرأ بطاقة السلطان لأهل دمشق: أنه في الساعة الثانية من نهار السبت اليوم الثاني من رمضان هذا، اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان في مرج الصفر والحمد لله، وسلطانكم السلطان الناصر وشيخكم الشيخ تقيّ الدين يطلبان منكم الدعاء ويأمركم الأمير آقوش حفظ القلعة والتحرز على الأسوار.

فدعا الناس بذلك على المآذن وفي البلد، وانقضى النهار وكان يوما مزعجا هائلا.

***

أفتى الشيخ تقيّ الدين العساكر والمتطوعة بالفطر أثناء قتالهم وكان يدور على الأجناد والأمراء والمتطوعة فيأكل تمرا في يده ليعلمهم أن إفطارهم ليتقووا على القتال أفضل فيأكل الناس، وكان يحدثهم بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم «إنكم ملاقوا العدو غدا، والفطر أقوى لكم»، وعزم على الجيش في الفطر كما عزم الرسول على الصحابة عام الفتح، وصل الشيخ إلى دهليز السلطان وحضه كما الجيش والمتطوعة على الإفطار، فسأله السلطان أن يقف معه في المعركة، فقال له الشيخ تقيّ الدين: «السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم» ثم حرضه على القتال ووعده بالنصر قائلا: «والله الذي لا إله إلا هو إنكم لمنصورون عليهم في هذه المرة» فيقول له الفقهاء والقراء والأمراء المرافقون للسلطان : قل إن شاء الله يا تقيّ الدين، فيرد عليهم كما ردّ على العامة في ساحة الميدان في دمشق: «إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا».

كان على قلب جيش المسلمين السلطان الناصر والخليفة المستكفي بالله بلباس التشريفة الأسود ونائب السلطنة سيلار والأمير ركن الدين أستاذالدار، وعلى الميمنة الأمير حسام الدين

الرومي أستاذ دار السلطان والأمير قبجق الذي عاد تائبا إلى معسكر المسلمين ومعهم عساكر حماة والعربان، وعلى الميسرة الأمير قراسنقر المنصوري والأمير بدر الدين بكتمش وبيبرس الداوردار ومعهم عساكر حلب. يقابلهم ثلاثة أمراء من التتار، القائد بولاي في القلب والقائد جوبان على ميمنة التتار وقائد الجيش قطلغ شاه نويان على ميسرة التتار عماد الجيش وقوته الضاربة.

صاح السلطان الناصر في جيشه:

«يا مجاهدون لا تنظروا لسلطانكم، قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم عليه الصلاة والسلام»

انتهت التعبئة والخطب فسكتت الألسن وتحركت الجوارح والتحم الجيشان، وتفاجأ المسلمون بهجوم كاسح خُطط له مسبقا، قاده قطلغ شاه بميسرة جيش التتار على ميمنة جيش المسلمين فصاح السلطان الناصر:

- يا لخالد بن الوليد.

فنهره الشيخ تقيّ الدين:

- لا تقل يا خالد بن الوليد وقل يا الله.

فصاح السلطان بأعلى صوته:

- يا مالك يوم الدين انصر عبادك المسلمين.

بلغت القلوب الحناجر، ورأى الشيخ تقيّ الدين الهزيمة في وجوه ميمنة المسلمين، فأسرع إلى أمير أجناد الحلقة وسأله:

- أوقفني موقف الموت أيها الأمير؟
- لماذا يا شيخنا؟
- مَن لم يُقَد ويُدسّ في خيشومه ... رَهْجُ الخميس فلن يقود خميسا

أخذه الأمير وذهب به إلى مقدمة الميمنة حيث تنحدر ميسرة التتار على جيش المسلمين كالسيل الجارف تبرق سيوف التتار وتلوح وسط الغبار كالعاصفة الهوجاء وتقدح حوافر الخيول التترية الحصى تحتها فيتطاير الشرر وكأنه إعصار فيه نار قادم لا يقف بوجهه شيء فارتعدت له أوصال المسلمين وخُلعت قلوبهم فبدأ أكثرهم بالفرار.

أوقفه الأمير هناك وقال له:

- هنا أول ما ستحصد ملائكة الموت الأرواح، فدونك وما طلبت يا تقيّ الدين.

انحدرت السيوف على الشيخ تقيّ الدين انحدار السيل الهائج، اختار مكانه عن قصد وعناية وتخطيط وعن سِرّ بينه وبين الله قطعه على نفسه على أستار الكعبة، تراجعت عساكر الميمنة أمام الخيول التترية رشيقة الحركة سريعة التقدم، تراجعوا وتقدم الشيخ تقيّ الدين، هال الصف الأول ما رأى من بريق السيوف فوق

الرقاب وثبت الشيخ، أصوات تعلو وطبول تقرع وخيول زاد في سرعتها الانحدار يسابق بعضها بعضا نحو ميمنة جيش المسلمين، فيها الموت الزؤام والهلاك المحتوم، والشيخ تقيّ الدين لا يتراجع، شدّ إزاره ورفع سيفه ونطق الشهادتين، تقدم راجلا يرد عادية التتار بالسِنان كما رد شيوخهم من قبل بالبنان واللسان، يحامي عن الإسلام ويدافع عن المسلمين، علا صوته بالتكبير وقابل الإعصار القادم بإعصار حرك به سيفه ولسانه رافعا بهما ذكر ربه، نادى عليه بعض المتطوعة والعساكر من خلفه أن ينحاز إلى قلب الجيش حيث السلطان، فالمعركة ما زالت في أولها لكنه كعادته لم يسمع ولن يسمع.

يقف كالطود الشامخ ويرفع رأسه إلى السماء:

- اللهم هذا عهدي معك على أستار الكعبة فاربط على قلبي وثبت قدمي، اللهم صفت نية الجند واكتمل إعداد العساكر وتوحد الأمراء وتواضع السلطان وخضع الخليفة ونهى العلماء عن المنكر وأمروا بالمعروف، اللهم إنّ المسلمين اليوم نصروك وأنت القائل إن تنصروا الله ينصركم ...

يصيح بعض تلاميذ الشيخ:

- يا شيخنا اقتربت العساكر التترية فاحذر.

لا يلتفت الشيخ إلى الصوت وينظر إلى السماء:

- اللهم نصرك للمسلمين الذي وعدتني عند البيت الحرام.

تتعالى الأصوات:

- يا تقيّ الدين ... يا أحمد.

يترقرق الدمع في عيني الشيخ:

- اللهم أنا المذنب المقصر العاصي وهؤلاء المجاهدون لا يشقى بهم جليسهم، اللهم فارحمني بهم ولا تهزمهم بي.
- يا أحمد والله إنك هالك، تَحَيَّز إلى فئة السلطان.

تختفي ميسرة التتار في وسط التراب المتطاير لا يُرى فيها إلا لمعان السيوف المسلولة تبرق من خلف الغبار منحدرة تفصلها عن الشيخ تقيّ الدين خطوات قليلة فينزل رأسه ويرفع سيفة ويركض باتجاه التتار بشجاعة خالديّة وفِداويّة علويّة ويختفي بينهم.

- يا أحمد ... يا أحمد.
- هلك والله الشيخ.

يرى الأمير حسام الدين الرومي ذلك المشهد فيصيح ببضعة آلاف من الذين لم يهربوا معه من ميمنة جيش المسلمين:

- الله أكبر، إني أجد ريح الجنة دون الشيخ تقيّ الدين فمن أراد رفقته فليتبعني.

يهجم على ميسرة التتار هجوم الزبير بن العوام على جيش الروم يلتحم بها التحام المُشتاق إلى لقاء ربه فيستشهد هو وأغلب من تبايع معه على الموت.

يحرك بولاي مجموعة من الفرسان باتجاه قلب الجيش بأوامر صريحة، الهدف منها فقط قتل السلطان وأسر الخليفة فتتزعزع القوات المحيطة بهما وتجفل خيول المسلمين من الأشكال التي ألبسها التتار لبعض خيولهم على أشكال الأفيال والكركدن، يثبت السلطان فيثبت من معه، وينادي على متطوع من الفقراء يحوم حوله خالي اليدين عاري الصدر لا يلبس إلا تنورة لفّها على وسطه:

- ما اسمك أيها الصوفي؟
- أنا العبد الطرطمان محمد العريان.
- وماذا تفعل هنا؟
- وُكِّلْتْ بحماية مولاي السلطان.
- ومن وكلك؟

لا يرد، ويشير بإصبعه إلى السماء، فيقول له السلطان:

- أيها العريان بما أنك موكل بي كما تزعم فافعل شيئا يعود عليك بالنفع، أحضر حبل القنب ذاك واربط به أرجل فرسي فإن أخاف أن تجفل وتفر من هول ما تراه.

يسرع أمير أجناد الحلقة إلى القلب مخاطبا السلطان الناصر:

- لقد انكسرت ميمنة المسلمين وقتل الأمير حسام الدين الرومي وثمانية من الأمراء المقدمين معه، وصلاح الدين بن الملك السعيد، وخلق من كبار الأمراء مع جماعة ممن تبايع معهم على الموت، ورمى الشيخ تقيّ الدين بنفسه في قلب ميسرة التتار وما أظنه إلا هلك، ووصل قطلغ شاه قائد ميسرة التتار إلى مؤخرة جيشنا وسيطر على مخازن الذخيرة والطعام وجِباب الماء وفرّت الذراري لا تلوي على شيء، وأصبح خلفنا فأدرك الناس أيها السلطان لقد أُحيط بنا.

يأمر السلطان بعض الأمراء بأن يأخذوا مجموعة من جند قلب وميسرة المسلمين ويلحقوا بقطلغ شاه، فتُدق الطبول وتتحرك الأعلام وتصدح الصاجات بأصوات وحركات متعارف عليه كأوامر وتعليمات تضبط تحركات المشاة والفرسان.

احتدمت المعركة وحمي الوطيس في مؤخرة الجيش بينما كان الأمير سيلار برفقة السلطان الناصر والمستكفي يصدون هجوم بولاي ويعيدون الكرة بالهجوم على مقدمة جيش التتار وميمنته، فالتفت ساق العساكر التترية بالساق وساقهم الجيش المسلم إلى الممات، وبدأ قطلغ شاه يتقهقر خلف جيش المسلمين أمام استبسال وشجاعة أمراء المماليك وفرسانهم بعدما ظنّ أنه حسم المعركة وانتصر فيها، فألجأه

الأمراء مع اقتراب الظلمة إلى اقتحام التلول والجبال والآكام، ولو علم قطلغ شاه وميسرة جيشه سوء صباحهم، لفروا عشاء ونجوا قبل أن يتلو عليهم جيش السلطان الناصر: «وساء صباح المنذرين».

فرّ القائدان بولان وجوبان بمن معهما من العساكر التترية من أمام السلطان فلحق بهما المسلمون وأمر السلطان الأميرَ سيلار، والأمير عز الدين أيبك الخازندار أن يتبعوهما إلى آخر النهار، فقتلوا منهم خلقا كثيرا حتى وصلوا إلى الفرات وتساقطوا في الوديان والمهالك وغرق منهم جماعة كبيرة. أحاطت العساكر المملوكية بميسرة جيش التتار يحرسونها من الهرب ويرمونها عن قوس واحدة، واعتصم منهم بجبل غباغب ثمانون ألف تتري حتى الفجر، وأصابهم العطش الشديد فخدعهم المسلمون في الصباح وفَرَّجوا لهم فُرجة إلى نهر الأعوج القريب ليشربوا منه، فلما نزلوا من الجبل باغتهم المسلمون وقتلوهم فساوى السَّهل من قتلاهم الجبل، وصُبغ النهر بدمهم القاني، وأسروا من بقي منهم، فهرب قطلغ شاه في مجموعة صغيرة من حراسه ولم يتوقف حتى وصل بغداد.

ثم جيء بالأسرى في الحبال فضربت أعناقهم بين يدي السلطان الناصر، وأرسلت البشائر إلى دمشق.

***

أصبح الناس في دمشق يتحدثون بكسر التتار، وخرج الدماشقة إلى ناحية الكسوة فرجعوا ومعهم شيء من الغنائم، ومعهم رؤوس من رؤوس التتار، وتواترت الأخبار قليلا قليلا عن كسرة التتار حتى اتضحت جملة، والناس لما عندهم من شدة الخوف وكثرة التتار لا يصدقون، فلما كان بعد الظهر قرئ كتاب السلطان إلى نائب القلعة يخبر فيه باجتماع الجيش ظهر يوم السبت بشقحب وبالكسوة.

ثم جاءت بطاقة بعد العصر من الأمير آقوش إلى نائب القلعة مضمونها أن المعركة كانت من عصر يوم السبت إلى الساعة الثانية من يوم الأحد، وأن السيف كان يعمل في رقاب التتار ليلا ونهارا وأنه هرب منهم جماعة كبيرة حتى وصلوا الفرات واعتصم آخرون بالجبال والتلال، وأنه لم يسلم منهم إلا القليل، فاستقرت خواطرهم وتباشروا لهذا الفتح العظيم والنصر المبارك، ودقت البشائر بالبلد وطلب من الناس الذي جفلوا واعتصموا بالقلعة أن يخرجوا منها لأجل نزول السلطان بها. وجاءت الأخبار باستشهاد الأمراء والجنود وتساءل الناس عن أخبار شيخهم تقيّ الدين الذي كان آخر العهد به أنه انغمس في ميسرة الجيش التتري ولم يره أحد بعد ذلك.

وفي يوم الاثنين تنفس الناس الصعداء عندما دخل الشيخ تقيّ الدين ابن تيمية دمشق صائما من باب الجهاد، شاكّا في سلاحه، داخلا مع أصاحبه، عالية كلمته، قائمة حجته، ظاهرة

ولايته، مقبولة شفاعته، مجابةً دعوته، مُلتمسةً بركته، معظما مكرما، ذا سلطان وكلمة نافذة، فاطمأن الناس أنه ما زال على قيد الحياة وفرحوا بذلك فرحا شديدا ودعوا له وهنّؤُوه بما يسر الله على يديه من الخير وهتفوا باسمه، فكان أمير دمشق وسلطان المسلمين غير المُتوّج وتهامس الناس بينهم: «والله لو طلب السلطنة لنالها».

ثم دخل السلطان الناصر وبين يديه الخليفة المستكفي إلى البلد يوم الثلاثاء وهم صيام وزينت دمشق، فنزل في القصر الأبلق والميدان، قبل أن يتحول إلى القلعة.

وأنشد شاعرهم على باب دمشق:

إنّ البُغَاة بَنِي خاقانَ أَقدَمَهم

عَلى هَلاكِهم الطُّغيانُ والأَشَـرُ

راموا وقد حَشَدوا غَلَبًا فما غَلَبُوا

وحاوَلوا النصر تضليلا فما نُصِروا

يا وَقعَةَ المَرْجِ مَرْجِ الصُّفَّر افتخرت

بِكِ الوَقائعُ في الآفاق والعصُرُ

رَفَعتِ بالنصر أَعلامَ الهُدى ولقد

جَرَدْتِ للشِّرك كَسرًا ليس يَنْجَبِرُ

(16)

النصوص على الفصوص

دمشق (704) هجري

جاءت زلزلة عظيمة في القاهرة تلاطمت على إثرها البحار وارتفعت الأمواج عدة أذرع فتهدمت الدور وكسرت المراكب وشققت الحيطان وسقط جانب من منار الإسكندرية ومات جمع كبير من الناس ولم يُر مثلها منذ مدة طويلة وبلغ تأثيرها إلى الشام، ولم يكن الزلزال الذي أحدثه انتصار المسلمين على التتار في معركة مرج الصّفّر بأقل من هذا الزلزال الذي حدث بمصر بعد المعركة بشهرين.

امتد تأثير زلزال انتصار مرج الصّفّر إلى عقر دار مغول فارس، حيث مات قازان بالقرب من مدينة همدان كمدا وغيظا بعد أن قتل مجموعة من قادته بسبب الهزيمة، كحال الكثير من قادة التتار الذين لا تحتمل نفوسهم الأبيّة الهزيمة، فتنفطر قلوبُهم وتنفلق أكبادهم، وقام في الملك بعده أخوه خربندا بن أرغون، وكذلك كان في الشام ومصر اللتين فرحتا بالنصر على التتار مَنْ زَلْزَلَهُ الانتصار، إذ لم يكن له في النصر ذكر أو مجد، كذلك الوقائع العظيمة تمتد آثارها

فتضرب العدو في عقر داره وتضرب ما أخفى القريب في صدره من طلب للسلطة وحب للجاه فتخرجه مُشْرَعا بعد أن كان مكبوتا.

لم يدرك الشيخ والسلطان أنهما بدخولهما دمشق والقاهرة منتصرين في هيبة العلم وأبّهة الملك قد أثارا زلزالا جديدا ما يلبث أن يضربهما ويضرب ما بلغاه في نفوس العامة على غير طلب منهما، فقد دبَّ إليهما من أهل بلديهما داء الحسد، فالسلطان الشاب إن تمكن في ملكه بعد هذا النصر فسيحجب عن المتصارعين على الحكم المُقتاتين عليه من الأمراء والقضاة ما ألفوه دهرا منذ وفاة الأشرف خليل بن قلاوون من جاه وسلطان ومال، والشيخ في شغله بالتصنيف والتحديث والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده بعد الجاه الذي تحقق له عند السلطنة في غفلة عما يعتمر في الصدور من حسد وما يدور في العقول من مكر.

يدخل زين الدين على أخيه الشيخ تقيّ الدين وهو معتكف على تصنيف جديد يكتبه:

- السلام عليكم يا تقيّ الدين.
- وعليكم السلام ورحمة الله يا أخي.
- هذا كتاب الأمير آقوش يندبك للخروج إلى الكسروان وجبل الجرد مرة ثانية لتأديبهم، فقد غرّهم ضعفنا ونقضوا عهدهم يوم زحف قازان بجيشه في حملته الثانية.
- أخبر الرسول أن يطلب من الأمير أن يمهلني يومين حتى أنهي ما أكتبه.

- وأي شيء تكتب يا تقيّ الدين.
- قرأت كتاب فصوص الحكم لابن عربي قبل وقعة مرج الصّفّر ولم يتأت لي الوقت إلا الآن للرد عليه وقد شارفت على إنهائه.
- أليس هو ابن عربي المعتقد بوحدة الوجود والحلول والاتحاد، والمسمى الشيخ الأكبر.
- ويلقبونه بالكبريت الأحمر لندرة وجوده كما يزعم الفقراء والصوفية.
- أي ندرة هذه وأمثاله من الفقراء يملؤون الخوانق والزوايا.
- لقد جاء هذا البائس بأقوال وضلالات لم يقلها إبليس ذاته. فهو يقول بإيمان فرعون ويخالف بذلك حتى اليهود والنصارى الذين يكفرونه، ولقد وجدته في كتابه قد عقد لكل نبي من الأنبياء فصاً، فوقفت على فص نوح عليه السلام، فقال فيه: لو قال نوح لقومه: «ادعوا ربكم ليكشف لكم الحجاب» بدل قوله: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً» لأجابوه، فسبحان الله كيف يجرؤ على تخطيء نوح والقول على الله بما لا يعلم. ووالله لو ترك العالم علمه والفقيه فقهه والقاضي قضاءه ومشى في البرية يرعى الغنم، خير له من هذه العلوم التي يسمونها لدُنِّية ومعارف كل ما فيها ضلال وكفر.
- ماذا كان موقف علماء عصره منه فإني أجد من المشايخ من يمدحه ويمدح هؤلاء الفقراء؟

- هل اعتاص عليك أمره يا زين الدين؟ الأمر في عصره والآن وفي المستقبل لا مرية فيه ولا فرية، ولا عتمة فيه ولا قتمة، فهو خارج عن ملة الإسلام، فالشيخ العز بن عبد السلام وهو ممن التقى به قال عنه: «شيخ سوء كذاب يقول بِقِدَم العالم ولا يحرّم فرجاً». وجمع كثير من العلماء أفتى بأن كتابه الفصوص هذا فيه الكفر الأكبر منهم قاضي قضاة الشام وقاضي القدس بدر الدين بن جماعة، وابن دقيق العيد قاضي مصر، أما باقي الفقراء والصوفية فإن أغلب أحوالهم شيطانية نفسانية، لكن انظر في متابعتهم الكتاب والسنة فإن كانوا كذلك فحالهم صحيح وكشفهم رحماني غالبا وما هم بالمعصومين، وكذلك أهل الفلسفة في موافقتهم أو مخالفتهم للكتاب والسنة.

يستطرد زين الدين ويسأل:

- وما رأيك بالغزالي؟
- كان قلاووز الفلاسفة وقائدهم ثم تراجع عن ذلك ونقد منهجهم في كتاب (تهافت الفلاسفة).
- هل سترد على كل شبهة في كتاب الفصوص؟
- نعم لقد جعلت لكل فص من فصوص ابن عربي نصا من كتاب الله وأحاديث رسوله أفند فيها هرطقته وأنزع الحشو الذي حشا به رؤوس أتباعه، نصوصا تخرجهم مما هم فيه من فصوص، إن هم عظموا كلام الله ورسوله ولم يعظموا كلام الرجال.

- في ميزان حسناتك يا تقيّ الدين، ماذا تريد مني أن أخبر رسول الأمير؟

يفكر الشيخ تقيّ الدين قليلا ثم يغمض عينيه كعادته عند اتخاذ قراراته المهمة ويهمس في نفسه: اللهم إني أدع ما أحب لما تحب. ثم يفتح عينيه ويجيب زين الدين:

- أخبره أني جاهز للخروج.

جلبة من خارج الدار تلفت انتباه الأخوين زين الدين وتقيّ الدين، يتناول الشيخ عمامته عن المشجب ويضعها على رأسه ويفتح زين الدين له باب الدار ليريا مصدر الجلبة، فإذا هم مجموعة من تلاميذ الشيخ قد أحضروا له رجلا من الفقراء، عبل البدن تفوح منه رائحة الأفيون يسمي نفسه المجاهد إبراهيم القطان، يلبس دلقا كبيرا متسعا جدا لونه حائل يزعم الكرامات والخوارق، فيجلس الشيخ على حجر محتوت على شكل دكة بجانب الباب ويأمر بتقطيع ذلك الدلق فتناهبه الناس الذين حضروا مع التلاميذ وقطعوه ولم يدعوا فيه شيئا، وأمر الشيخ تقيّ الدين بحلق رأس القطان وكان طويلا جدا وأمر بتقليم أظفاره وكانت طويلة، وحف شاربه المسبل على فمه المخالف للسنة، ثم استتابه من كلام الفحش وأكل ما يغير العقل من الحشيشة وما يحرم من المسكرات ثم أطلق سراحه كما فعل قبل أيام مع الشيخ محمد الخباز البلاسي الذي كان يعبر للناس المنامات في مجالس أهل الذمة بعد أكل الحشيشة والمخدرات، وكتب عليهما الشيخ مكتوبا بذلك. ثم التفت إلى أخيه وقال له:

- أنا أعلم بهذه البدع، وكل بدعة حدثت في الإسلام، وأول من ابتدعها، وما كان سبب ابتداعها.

حضر النِطَاسي الذي طلبه زين الدين لينظر في المرض الذي ابتدأ الشيخ تقيّ الدين فرأى التجمهر على باب الدار فتردد في الدخول وأراد العودة فرمقه زين الدين وأمسك بيده ودخل معه إلى الدار مع الشيخ تقيّ الدين ففحصه ثم قال له:

- لست أرى سببا مباشرا لما تشكو منه يا تقيّ الدين، ولكن اعتقد أن كثرة مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض.
- لا أصبر على ذلك، وأنا أحاكمك إلى علمك.
- وهل أصبحت أعلم مني في الطب يا تقيّ الدين.
- لم أقل ذلك ولكن أليست النفس إذا فرحت وسُرَّت قَويت الطبيعة فدفعت المرض؟
- بلى.
- فإن نفسي تُسَرُّ بالعلم فتقوى الطبيعة فأجد الراحة.
- هذا خارج عن علاجنا، افعل ما بدا لك.

شيّع زين الدين الطبيب إلى باب الدار بعد أن يئسا من الشيخ وعاد إلى أخيه حيث انضمت إليهما ست النعم وفي يدها قدح فيه عسل مع ماء دافئ وليمون وقالت:

- اشرب هذا يا أمي لقد أتعبتنا وأتعبت نفسك يا حبيبي فلو أرحتها قليلا.

- راحتي بالعلم يا أمي وأنت أول من يعرف ذلك، والنفس هي مصدر الأوجاع إن لم نُخَلِّها ثم نُحَلِّها ظهر ذلك على أجسادنا، وفي تَخليتها ألم ومعاناة، فهي مثل باطوس القَذَرْ كلما نبشته ظهر وخرج. والشبهات كثيرة هذه الأيام إن تركناها أُشربت قلوبنا منها، ومع أن دفعها وردها مُتعب للأبدان لكن راحة النفس بها.
- هذا كلام لا أفهمه يا تقيّ الدين، ولكن خفف عن نفسك قليلا يا بُنيَّ فأغلب الدين مباحات أليس كذلك؟
- ترك المباحات يا أمي ليس شرطا للنجاة وقبول العمل، ولكن كثرة الأخذ بها ينافي المراتب العالية، فما الذي تريدينه لي، المراتب العليا أم الدنيا؟
- أريد لك زوجة صالحة.

تزداد حماسة ست النعم وتجدها فرصة مواتية للحديث مع ابنها بالموضوع الذي طالما ألحّت به:

- التقيت البارحة مع بعض أقاربنا الذين حضروا من حرَّان، وعندهم بنت مثل الفُلّ في جمالها وحسن أخلاقها فهل أخطبها لك؟
- ذكرتني بأمر الزواج يا أمي وقد انشغلت عنه منذ مرج الصُّفَّر بالكتابة والتأليف وهذا آخر كتاب كتبته (النصوص على الفصوص) بين يدي، فوالله يا أمي إني أكتب أحيانا في اليوم ما يُبيّض مجلدا، لعلي بعد عودتي من غزو

الكسروان مع الأمير أرى قريبتنا هذه رؤية شرعية فإن أُدم بيننا تمَّ الأمر.

يغلب فرح ست النعم بموافقة الشيخ على رؤية الفتاة خوفها عليه من غزو الكسروان فيتهلل وجهها وتأخذ بيدها قدح العسل الفارغ وتغادرهما وهي تُتَمتِم: الله يفرحني بأولادك يا تقيّ الدين.

***

خرج الشيخ تقيّ الدين رفقة نقيب الأشراف ومجموعة من أصحابه إلى جبل الجرد والكسروان وبلاد الرفض والتيامنة، وخرج على إثرهم في اليوم الثاني نائب دمشق الأمير آقوش، فاستتابوا خلقا منهم وقاتلوا آخرين فنصرهم الله عليهم وأبادوا خلقا كثيرا منهم ومن فرقتهم الضالة، ووطئوا لهم أراضي واسعة وشاسعة وظهرت شجاعة الشيخ تقيّ الدين وعلمه في هذه الغزوة وعاد مع نائب السلطنة إلى دمشق مكللين بالنصر متربعين على قلوب المسلمين، فامتلأت قلوب أعداء الشيخ على امتلائها؛ حسدا وغلا.

(17)

الجَبَلِيَّة

القاهرة (705) هجري

إلى السلطان الناصر من الشيخ تقيّ الدين بسبب فتوح الجبل بعد وقعة جبل كسروان:

«بسم الله الرحمن الرحيم من الداعي أحمد ابن تيمية إلى سلطان المسلمين ومن أيد الله في دولته الدين وأعز بها عباده المؤمنين وقمع فيها الكفار والمنافقين والخوارج المارقين. نصره الله ونصر به الإسلام وأصلح له وبه أمور الخاص والعام وأحيا به معالم الإيمان وأقام به شرائع القرآن وأذل به أهل الكفر والفسوق والعصيان ...

أما بعد. فقد صدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده. وأنعم الله على السلطان وعلى المؤمنين في دولته نعما لم تعهد في القرون الخالية. وجدد الإسلام في أيامه تجديدا بانت فضيلته على الدول الماضية. وتحقق في ولايته خبر الصادق المصدوق أفضل الأولين والآخرين الذي أخبر فيه عن تجديد الدين في رؤوس المئين ...

وذلك أن السلطان - أتم الله نعمته - حصل للأمة بيمن ولايته وحسن نيته وصحة إسلامه وعقيدته وبركة إيمانه ومعرفته وفضل همته وشجاعته وثمرة تعظيمه للدين وشرعته ونتيجة اتباعه كتاب الله وحكمته: ما هو شبيه بما كان يجري في أيام الخلفاء الراشدين وما كان يقصده أكابر الأئمة العادلين: من جهاد أعداء الله المارقين من الدين.

وهم صنفان: أهل الفجور والطغيان وذوو الغي والعدوان الخارجون عن شرائع الإيمان طلبا للعلو في الأرض والفساد وتركا لسبيل الهدى والرشاد. وهؤلاء هم التتار ونحوهم من كل خارج عن شرائع الإسلام وإن تمسك بالشهادتين أو ببعض سياسة الإسلام.

والصنف الثاني: أهل البدع المارقون وذوو الضلال المنافقون الخارجون عن السنة والجماعة المفارقون للشرعة والطاعة مثل هؤلاء الذين غزوا بأمر السلطان من أهل الجبل والجرد والكسروان ... وذلك أن هؤلاء وجنسهم من أكابر المفسدين في أمر الدنيا والدين. فإن اعتقادهم: أن أبا بكر وعمر وعثمان وأهل بدر وبيعة الرضوان وجمهور المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان وأئمة الإسلام وعلماءهم أهل المذاهب الأربعة وغيرهم ومشايخ الإسلام وعبادهم وملوك المسلمين وأجنادهم وعوام المسلمين وأفرادهم. كل هؤلاء عندهم كفار مرتدون أكفر من اليهود والنصارى ...

ولهذا لما قدم التتار إلى البلاد وفعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد وأرسلوا إلى أهل قبرص فملكوا بعض الساحل وحملوا راية الصليب وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصي عدده إلا الله وفرحوا بمجيء التتار هم وسائر أهل هذا المذهب الملعون مثل أهل جزين وما حواليها. وجبل عامل ونواحيه ... ولما نصر الله الإسلام النصرة العظمى عند قدوم السلطان كان بينهم شبيه بالعزاء.

كل هذا وأعظم منه عند هذه الطائفة التي كانت من أعظم الأسباب في خروج جنكيز خان إلى بلاد الإسلام وفي استيلاء هولاكو على بغداد وفي قدومه إلى حلب وفي نهب الصالحية وفي غير ذلك من أنواع العداوة للإسلام وأهله.

لأن عندهم أن كل من لم يوافقهم على ضلالهم فهو كافر مرتد. ومن استحل الفقاع فهو كافر. ومن مسح على الخفين فهو عندهم كافر. ومن حرم المتعة فهو عندهم كافر. ومن أحب أبا بكر أو عمر أو عثمان أو ترضى عنهم أو عن جماهير الصحابة فهو عندهم كافر. ومن لم يؤمن بمنتظرهم فهو عندهم كافر.

وهذا المنتظر صبي عمره سنتان أو ثلاث أو خمس. يزعمون أنه دخل السرداب بسامراء من أكثر من أربعمائة سنة. وهو يعلم كل شيء. وهو حجة الله على أهل الأرض. فمن لم يؤمن به فهو عندهم كافر. وهو شيء لا حقيقة له. ولم يكن هذا في الوجود قط ... لكنهم مع هذا يظهرون التقية والنفاق. ويتقربون ببذل الأموال

إلى من يقبلها منهم. وهكذا كان عادة هؤلاء الجبلية؛ فإنما أقاموا بجبلهم لما كانوا يظهرونه من النفاق ويبذلونه من البرطيل لمن يقصدهم ...

فأعان الله ويسر بحسن نية السلطان وهمته في إقامة شرائع الإسلام وعنايته بجهاد المارقين أن غزوا غزوة شرعية كما أمر الله ورسوله بعد أن كُشفت أحوالهم وأزيحت عللهم وأزيلت شبههم وبذل لهم من العدل والأنصاف ما لم يكونوا يطمعون به وبين لهم أن غزوهم اقتداء بسيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قتال الحرورية المارقين الذين تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم الأمر بقتالهم ونعت حالهم من وجوه متعددة ...

وقال فيهم عليه الصلاة والسلام : «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد . لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم لنكلوا عن العمل. يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان. يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم شر قتلى تحت أديم السماء. خير قتلى من قتلوه».

وأول ما خرج هؤلاء زمن أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه. وكان لهم من الصلاة والصيام والقراءة والعبادة والزهادة ما لم يكن لعموم الصحابة، لكن كانوا خارجين عن سنة رسول الله صلى الله

عليه وسلم وعن جماعة المسلمين. وقتلوا من المسلمين رجلا اسمه عبد الله بن خباب وأغاروا على دواب المسلمين.

وهؤلاء القوم كانوا أقل صلاة وصياما. ولم نجد في جبلهم مصحفا ولا فيهم قارئا للقرآن؛ وإنما عندهم عقائدهم التي خالفوا فيها الكتاب والسنة وأباحوا بها دماء المسلمين. وهم مع هذا فقد سفكوا من الدماء وأخذوا من الأموال ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى.

فإذا كان علي بن أبي طالب قد أباح لعسكره أن ينهبوا ما في عسكر الخوارج مع أنه قتلهم جميعهم كان هؤلاء أحق بأخذ أموالهم. وليس هؤلاء بمنزلة المتأولين الذين نادى فيهم علي بن أبي طالب يوم الجمل أنه لا يقتل مدبرهم ولا يجهز على جريحهم ولا يغنم لهم مالا ولا يسبي لهم ذرية. لأن مثل أولئك لهم تأويل سائغ وهؤلاء ليس لهم تأويل سائغ. ومثل أولئك إنما يكونون خارجين عن طاعة الإمام. وهؤلاء خرجوا عن شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته.

وهم شر من التتار من وجوه متعددة؛ لكن التتر أكثر وأقوى. فلذلك يظهر كثرة شرهم. وكثير من فساد التتر هو لمخالطة هؤلاء لهم كما كان في زمن قازان وهولاكو وغيرهما فإنهم أخذوا من أموال المسلمين أضعاف ما أخذوا من أموالهم. وأرضهم فيئا لبيت المال.

وقطعت أشجارهم لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما حاصر بني النضير قطع أصحابه نخلهم وحرقوه. فقال اليهود: هذا فساد. وأنت يا محمد تنهى عن الفساد. فأنزل الله: «ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين» ... فإن القوم لم يحضروا كلهم من الأماكن التي اختفوا فيها وأيسوا من المقام في الجبل إلا حين قطعت الأشجار. وإلا كانوا يختفون حيث لا يمكن العلم بهم ...

فالحمد لله الذي يسر هذا الفتح في دولة السلطان بهمته وعزمه وأمره وإخلاء الجبل منهم وإخراجهم من ديارهم ... وأيضا فإنه بهذا قد انكسر من أهل البدع والنفاق بالشام ومصر والحجاز واليمن والعراق ما يرفع الله به درجات السلطان ويعز به أهل الإيمان».

(18)

اللهم أقم لدينك رجلاً يكسر العمود المُخلّق ويخرب القبر الذي في جيرون

الإمام النووي(676) هجري

دمشق (704) هجري

لم تكن حادثة الشيخ في إبطال خديعة الصوفية الأحمدية يوم فتنوا الناس بمشيهم على النار وطعن أنفسهم بالحديد، فتحداهم بحضرة الأمير آقوش أن يغتسلوا بالخل والأشنان حتى يزيلوا عن أجسادهم ما يعزلها عن حرارة النار ثم يمشوا عليها، وعقب قائلا: «وحتى إن مشوا على النار وطاروا في الهواء فإن خوارق العادات لا تدل على الولاية بقدر ما تدل على الشيطانية». فلم يجرؤوا على ذلك وعادوا خائبين قائلين أن كراماتهم هذه لا تنطلي على الشيخ تقيّ الدين إنما تنطلي على الدهماء والرعاع البسطاء، لم تكن هذه الحادثة الرئيسية التي ألبت وجمعت عليه خصومه مجتمعين من الفقراء والفقهاء والمبتدعة والحسّاد، إنما كانت القشة التي قصمت ظهر البعير هي جرأته على العمود المخلق بمسجد النارنج قرب نهر قلوط، ذلك العمود الذي عظمه الناس فلم يجرؤ أحد على هدمه لا من الأمراء ولا من الفقهاء، يزعمون أن يد الرسول

مطبوعة عليه، طال عليه الأمد سنين طوال فَأُشربت قلوب أهل دمشق حبه واستحكم فيها، يزوره الدماشقة ويأتي إليه الناس من البلدات والقرى المجاورة يذبحون عنده وينذرون، فخرج الشيخ مع أصحابه ومعهم الحجّارون والمعاول، وأهل دمشق يُحَذِّرونه ويقولون «ما بقيت عين الفيجة تطلع» وغيرهم يُنذرون «ما ينزل المطر، ولا يثمر الشجر» وآخرون مشفقون «ما بقي ابن تيمية يفلح إذا تعرض للعامود المخلق».

فلما وصلوا إليه صاح ابن تيمية بالحجارين «دَهْ عليه» فخافوا وترددوا فنهض الشيخ وأخذ وأخوه شرف الدين المعاول من الحجارين، ووقفا كصنواني نخلة عالية وبدءا بالهدم، فتجاسر الناس حتى أزالوه، وجاء الرد السلطاني إلى دمشق لمّا وشى بهذه الحادثة الواشون «لو كانت بدعة كما يقول ابن تيمية فقد أحسن بإزالتها وإن كانت مباركة كما تزعمون يُقابل ابن تيمية على ما فعله بقارعة فتربصوا إنا معكم متربصون».

زاد طين المبتدعة بلة نسخ كتاب (النصوص على الفصوص) ونشره وقراءة (العقيدة الواسطيّة) التي أجاب فيها الشيخ تقيّ الدين على أسئلة أهل واسط. فتتابعت الكتب والرسائل إلى السلطان تشكو الشيخ تقيّ الدين وتتهمه في دينه وتزعم أنه يُجسد الله ويُشبّهه بخلقه، وكانت تصل إلى القاهرة حيث كان الزلزال الذي ضرب ابن تيمية في دمشق بعد معركة مرج الصّفّر، يضرب هناك السلطان الشاب محمد بن قلاوون.

بدأت حاشية السلطان بحجبه تدريجيا عن الناس واستفرد به الأميران سيلار نائب مصر والجاشنكير بيبرس واستأثرا بالحكم بالتعاون مع بعض القضاة والفقهاء على رأسهم قاضي القضاة ابن مخلوف.

تصل الكتب عبر البريد إلى القاهرة فيرد عليها الجاشنكير بيبرس باسم السلطان بتحريض من شيخه نصر المنبجي المعتقد بعقيدة ابن عربي وصديق قاضي قضاة مصر ابن مخلوف عدوّا الشيخ تقيّ الدين. فوصل كتاب من الجاشنكير بيبرس باسم السلطان إلى الأمير آقوش وقد خرج إلى المزة مع عامة الناس والفقهاء والقضاة والأعيان والفقراء من أجل صلاة الاستسقاء، فقرأه ثم دسه بجيبه حتى انتهت الصلاة التي لم يُسقوا فيها، وعاد إلى القصر الأبلق لتنفيذ أوامر السلطان بمناقشة الشيخ تقيّ الدين في عقيدته فجمع القضاة والعلماء، وفيهم الشيخ تقيّ الدين ابن تيمية وعُقدت له ثلاثة مجالس وقُرئت (الواسطيّة) وفيها عقيدة الشيخ تقيّ الدين التي صنفها سابقا في كتاب (الحمويّة)، وحصل بحث في أماكن منها، وأخرت مواضع إلى المجلس الثاني الذي حضر فيه الشيخ صفي الدين الهندي ولكن ساقيته لاطمت بحر الشيخ تقيّ الدين الذي تكلم كلاما كثيرا وحسنا؛ أن الأمر لا يعدو توحيد الله بأسمائه وصفاته دون نفي أو تشبيه أو تعطيل أو تأويل، ثم اتفقوا على مجلس ثالث يكون فيه الشيخ ابن الزملكاني هو الذي يحاقق الشيخ تقيّ الدين ويناقشه، فتناظرا في ذلك وقال الشيخ تقيّ الدين معللا سبب المشكلة التي حدثت «إن هؤلاء المبتدعة الذين

يفضلون طريقة الخلف على طريقة السلف إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك، وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات، فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر، وقد كذبوا على طريقة السلف وضلوا في تصويب طريقة الخلف فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف»، ثم انفصل الحال على قبول ما ورد في (الواسطيّة) وأنها عقيدة الأئمة الأعلام وسلف الأمة الكرام.

عاد الشيخ تقيّ الدين إلى منزله معظما مكرّما وحمل له الناس الشمع من باب النصر إلى داره في القصاعين احتفالا ببراءته وتقديرا لمكانته. وكتب نائب دمشق إلى السلطان «إنّي أُشبِّه الشيخ ابن تيمية برجل موتور يطلب الثأر من جميع الفرق المخالفة لدين الإسلام، لا يبالي بكثرة عددهم ولا يتزعزع أن يتتابع مددهم ولا تهوله كثرة جموعهم ولا يُتَعْتعه تهديدهم أو تهويلهم مِن تابعهم أو متبوعِهم، إن ناظر المتفلسفين قمعهم وإن عارض المتكلمين قطعهم وإن كافح الملحدين شردهم وتأتيه الكتب والاستفتاءات من تبريز وغرناطة وسبتة وأصبهان ومراكش وطبرستان وجيلان وزرع والصلت وغيرها من البلدان فيُجيب عليها كلها... ولا أدري ما أفعل به». فلمّا وصل الكتاب إلى السلطان الناصر الذي ما زال ينازع على سلطانه ونفوذه أرسل كتابا يتيما إلى دمشق تمكن

بصعوبة تصديره قرأه الأمير آقوش على الملأ جاء فيه: « إنا كنا رسمنا بعقد مجلس للشيخ تقيّ الدين ابن تيمية، وقد بلغنا ما عقد له من المجالس، وأنه على مذهب السلف وإنما أردنا بذلك براءة ساحته مما نُسب إليه».

كان السواد الذي سيظلل دمشق والقاهرة لسنوات قادمة قد اكتملت فصوله إذ جاء كتاب آخر من القاهرة وفيه الكشف عمّا كان وقع من الشيخ تقيّ الدين بن تيمية منذ قراءة (الحمويّة) حتى (الواسطيّة)، وطُلب منه التوجه على البريد نحو مصر، فأشار عليه الأمير آقوش بترك الذهاب إلى مصر وأنه سيكاتب السلطان بذلك، لأنه يخاف عليه المكر، فامتنع الشيخ تقيّ الدين وقال إنّ خروجه إلى مصر سيكون فيه خير كثير ومصلحة عامة.

وقفت ست النعم جُوَّا باب الدار وودعت الشيخ وحضنته وهي تبكي وحاولت إخفاء تَهَوُّعِها عليه وقلقها على حياته، فذكّرته بوعده لها وقالت بصوت متحشرج لا يكاد يبين:

- وماذا سأقول لأم الفتاة وقد أخبرتها أنك ستأتي معي لرؤيتها؟

يبتسم الشيخ في وجه أمه ويقول لها مطمئنا بلهجة جازمة:

- أُخبرت يا حبيبتي أنَّ خروجي إلى مصر فيه خير كثير ستمتد آثاره إلى أمكنة وأزمنة عديدة أمّا الفتاة فلا تَعِدِيها بشيء فغيبتي ستطول.

- ومن هذا الذي أخبرك وبماذا أخبرك ومتى أخبرك؟

يضمّ الشيخ ست النعم إلى صدره ثانية ويُقَبِّل رأسها ويقول لها مبتسما:

- أعلم يا أمي أنك مثل القِدر التي تغلي تقول بَق بَق بَق أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها، لكن هذه لا سبيل إليك لتعرفيها، فسامحيني ولا تنسيني من الدعاء لا في ليل ولا في نهار فحاجتي إليه ستكون ماسّة.
- روح الله يرضى عليك وين ما رحت وين ما جيت.

رافق الشيخ إلى خارج دمشق خلق من مُحبيه وأصحابه على رأسهم صديقه المقرب الشيخ جمال الدين المزي، فودّعوه على باب كيسان وبكوا وخافوا عليه من أعدائه. ورافقه في سفره أخواه شرف الدين عبد الله وزين الدين عبد الرحمن.

(19)

بن تومرت

القاهرة (705) هجري

فارقت غيمتها وسقطت وحيدة على رأس ريِّسٍ يُجَدِّفُ على متن مركب صغير يقطع بحيرة أوكِريوي أقصى جنوب بلاد السودان، قطرة ماء تُؤذن بغرق المراكب إن لم تنحز إلى بر الأمان، فما هيجان الماء إلا من مستصغر القطرات، تنهمل القطرات وتفتح السماء أبوابها فتتابع منهمرة فيتساقط المطر غزيرا فيملؤُ البحيرة فتفيض في النهر العظيم، تجري مسيرة ستين يوما فتفيض وتتوزع بالترع التي أقيمت على ضفتي النيل تسقي الزرع والخُضر، يشتري منها رئيس طباخي قلعة الجبل في القاهرة خضارا طازجا، يُقطّع ويُلقى مع اللحم في قدر كبير أُوقِدَتْ تحته نار هادئة، أُضيفت إليها بهارات وتوابل أُحضرت من بلاد ما وراء النهر عبر طريق الحرير، فاحت رائحتها ووصلت إلى الإيوان اليوسفي في قلعة الجبل حيث احتدم النقاش بين الجاشنكير بيبرس والأمير سيلار والقاضي ابن مخلوف من جهة والسلطان الناصر محمد بن قلاوون من جهة أخرى:

بيبرس الجاشنكير: والله أيها الناصر ما أراه إلا طالبا للملك.

سيلار: ما أظنّه كذلك.

القاضي ابن مخلوف: أطال الله عمر السلطان بل هو كذلك يا مولاي.

الناصر: لقد التقيت به في وقعة مرج الصّفّر ولم أرَهُ إلا زاهدا في الدنيا وفي الملك.

بيبرس: كنت صغيرا حينها وعمرك لم يتجاوز السابعة عشر، فكيف لك أن تحكم على الناس وأنت غرّ صغير.

ابن مخلوف: عذرا مولاي السلطان فالأمير بيبرس لم يقصد ذلك إنما قصد أن تجربتك في الملك كانت في بدايتها ولم تحط بكافة خباياه بعد.

بيبرس: بل قصدت ما قلت، وأزيدك يا محمد أنك ما زلت لغاية الآن صغيرا على الحكم فأنت لم تبلغ الواحدة والعشرين بعد.

الناصر: وهل هكذا يُعامل السلطان أيها الجاشنكير؟

سيلار: كلنا يعلم أن السلطان صورة ورسم، وأننا نحن من يحكم فلا تنس ذلك يا محمد.

ابن مخلوف: على رسلكما أيها الأمراء، فليست هذه هي المسألة، ولا هي محل الخلاف الآن، إنما كلامنا عن خطورة دعوة تقيّ الدين ابن تيمية على الدولة.

الناصر: ليست محل خلاف يا قاضي القضاة كلامهما عني بهذا الشكل ليس محل خلاف! يبدو أنك نسيت مكانتك يا ابن مخلوف.

ابن مخلوف: عذرا يا مولاي لم أقصد ذلك، إنما قصدت أن الخطر محدق بنا من كل جانب.

الناصر مستهزئا: لا تعمل عليَّ دركواناتك وحِيَلك، أي خطر هذا الذي تتوهّمون أيها السادة الأمراء والقضاة.

بيبرس: نحن سنتصرف وربما نعلمك بما نفعل ...

ثم يخفض صوته ويقول: ما أنت إلا رقيع أخرق وفوق كل ذلك أعرج.

ابن مخلوف: إن خطر تقيّ الدين قد تعدى من الانحراف في العقيدة كما أفادت الرسائل التي جاءتنا من دمشق إلى ما هو أخطر.

بيبرس: ما أظن مخالفته في العقيدة إلا وسيلة ليشتهر بين الناس ثم يقفز على الحكم بعد ذلك.

سيلار: لقد عقدت له مجالس ثلاثة في دمشق وبيّن عقيدته التي لا تخالف ما عليه أهل السنة والجماعة وكُتب بذلك محضر وشهد عليه شهود من السادة العلماء.

ابن مخلوف: أنت أدرى في شؤون الحكم والحرب ولا علم لك في العقيدة أيها الأمير.

الناصر: إذاً اطلبوا حضوره للقاهرة ليستمع إليه القضاة والفقهاء ويحكموا هم بصحة ما يُقال عنه.

بيبرس: قد فعلنا ولم ننتظر إذنك.

الناصر: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ابن مخلوف: لقد طلب مني الشيخ نصر المنبجي وهو من هو في التّأله والدين، أن أخبر الأمراء بأن تقيّ الدين ابن تيمية يُخشى على الدولة منه، كما جرى لابن تومرت في بلاد المغرب.

الناصر: غير صحيح، لقد دخلت دمشق منتصرا بعد معركة مرج الصّفّر في أبّهة الملك بين عساكري وجندي برفقة الخليفة المستكفي بالله وزينت دمشق كلها لنا، ودخلها الشيخ تقيّ الدين ماشيا مع عامة المتطوعة، وقد رأيت بعيني حفاوة الناس به واحتفالهم به، لقد كانت مرج الصّفّر معركة تقيّ الدين لا معركة السلطان ولا الخليفة، وهتف له الناس أكثر مما هتفوا لي، بل إن منهم من حرضه على أخذ الإمارة بقوة الحشود التي سارت وراءه، فكان رده كما بلغني: «أنا رجل ملّة ولست رجل دولة».

بيبرس ساخرا: لقد أثبتّ يا مولانا السلطان المبجّل أنك ما زلت غرا صغير، ألم أقل لك ذلك من قبل، وفي كل مرة لا تعقل،

هل تريد منا أن نزيد الحراسة عليك في قصرك لتبقى بين الغلمان والجواري خير لك وللسلطنة، أو تريدنا أن نسلمها لك كي تضيّع إرث آبائك إرث المنصور قلاوون والأشرف خليل؟

سيلار: لقد زوّر بعض الصوفية الفقراء كتابا قبل عامين فيه اتهام؛ أن تقيّ الدين يريد قلب الملك مع بعض الأمراء والعلماء، وأمسك الأمير آقوش نائب دمشق بالفاعل واعترف بتزوير الكتاب وبُرئت ذمة الشيخ من ذلك.

بيبرس: إن حبك لتقيّ الدين يا سيلار أعماك كما أعمى سلطاننا المعظّم.

ابن مخلوف: يا مولانا، إن مبتدأ النار من مستصغر الشرر، ولعل عدم سعي تقيّ الدين للإمارة بعد معركة مرج الصّفّر هو أن الظروف لم تكن مواتية، وتقيّ الدين يتميز بالذكاء الخارق ولا بد أنه قدّر أن حشود دمشق لن تفعل شيئا أمام العساكر المصرية.

بيبرس: أصبت.

ابن مخلوف: وما أظنّه إلا ينتظر الفرصة المناسبة حتى يتحقق له ولاء العساكر المصرية بعد أن قطع شوطا في التقرب من العساكر الشامية والأمراء وعلى رأسهم نائب دمشق الأمير آقوش.

الناصر: لقد أحضرت الشيخ إلى مجلس الحكم في القصر الأبلق في دمشق وحدثته بما في نفسي بعد ما كان من هيئة دخوله

إلى دمشق وقلت له، أُخبرت أن الناس أطاعوك، وأن في نفسك أخذ الملك؟ فلم يكترث بما قلت، بل قال لي بنفس مطمئنة وقلب ثابت وصوت عال كعادته سمعه كل من حضر: «أنا أفعل ذلك؟! والله إن ملكك وملك المُغْل لا يساوي عندي فلسين». فتبسمت له وصدّقته ووقع في قلبي له هيبة عظيمة، وقلت له إنك والله لصادق وإن الذي وشى بك لكاذب، اذهب وانشر العلم وأمر بالمعروف وانه عن المنكر وصنف كما شئت فأنت سلطان بلا سلطنة ومَلِك بلا مُلك، وأنا أغبطك على ذلك.

ابن مخلوف: أتعرف يا مولانا السلطان كيف كان مبتدأ أمر دولة الموحّدين وابن تومرت.

الناصر: قوة ودولة جديدة تغلبت على قوة ودولة المرابطين القديمة.

ابن مخلوف: وهل كانت دولة المرابطين أيّ دولة، لقد كانت دولة حكمت المغرب والأندلس ونصف إفريقيّة، وهل تريد يا مولانا أن تصبح دولة المماليك دولة قديمة كما أصبحت دولة المرابطين، لقد كان مبتدأ الأمر ما أسميته يا مولانا أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر وتأليفا وتصنيفا كالذي يمارسه تقيّ الدين أينما حل وأينما ارتحل.

سيلار: وكيف بدأ أمرها يا ابن مخلوف؟

ابن مخلوف: لقد بدأ الأمر في دار حكم المرابطين مراكش

حيث كان يصلي في مسجدها الجامع أمير دولة المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين، وكانت بعض مظاهر اختلاط الرجال بالنساء قد ظهرت في مراكش، وكما تعلم يا مولاي فإن سلطان المرابطين كان يتلثم كحال سائر رجال الأمازيغ، فدخل عليه محمد بن تومرت مع بعض طلابه والسلطان يجلس مع بعض حاشيته ومنهم القاضي مالك بن وهب، فقال محمد بن تومرت بصوت عال تعمد وصوله إلى مسامع السلطان «قد رأيت اختلاط الرجال والنساء في بلاد المسلمين وإني والله لا أدري من أمامي رجالٌ أم نساءٌ» قاصدا بذلك الأمير المُتَلثّم، فقال القاضي مالك بن وهب للأمير علي بن يوسف «يا أمير المؤمنين إني أرى رجلا إن تركته ولم تسجنه والله ينطبق عليك مثل «إن لم تضرب عليه كبلا أسمعك غدا طبلا» وإنك إن سجنتهم اليوم وأنفقت عليهم كل يوم دينارا خيرُ لك أن يجتمعوا عليك غدا وإن أنفقت عليهم خزائن دولتك لن تستطيع أن تردهم».

بيبرس: أخبر السلطان يا ابن مخلوف كيف رد علي بن يوسف على القاضي مالك بن وهب.

ابن مخلوف: لقد رد عليه «رجل صالح قال، أو كلما قام إلينا رجل يأمرنا بالمعروف وينهانا عن المنكر سجناه، وحق علينا أن نستمع له».

بيبرس: وما أظنك يا محمد بن قلاوون في هذه على ضعفك إلا كعلي بن يوسف على قوته، وما أظن قاضي قضاة مصر ابن مخلوف إلا كقاضي قضاة المغرب مالك بن وهب، واعلم أن لا

حاجة لنا إلى موافقتك فقد عزمنا على سجن تومرت الشرق تقيّ الدين ابن تيمية قبل أن يصبح أمير المؤمنين تقيّ الدين ابن تيمية.

ابن مخلوف: ترفق بمولانا السلطان يا بيبرس ودعني أكمل قولي.

بيبرس: أكمل يا حضرة القاضي.

ابن مخلوف: أتعرف ما حدث بعدها يا مولانا؟ بدأ ابن تومرت يدعو إلى المهدي ويشوق الناس إليه قائلا «لا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة... ولا يكون الإمام إلا معصوما ليهدم الباطل لأن الباطل لا يهدم الباطل... وأن الإيمان بالمهدي واجب، وأن من شك فيه كافر، وإنه معصوم فيما دعا إليه من الحق، وإنه لا يكابر ولا يضاد ولا يدافع ولا يعاند ولا يخالف ولا ينازع، وأنه فرد في زمانه، صادق في قوله، وإنه يقطع الجبابرة والدجاجلة، وإنه يفتح الدنيا شرقها وغربها، وإنه يملأها بالعدل كما ملئت بالجور، وإن أمره قائم إلى أن تقوم الساعة» فلما أدرك أصحاب ابن تومرت وتلاميذه فضيلة المهدي وانتشر خبره في البلاد، ادعى ذلك لنفسه وقال: «أنا المهدي المعصوم، أنا أحسن الناس معرفة بالله ورسوله»، وغيَّر نسبه الأمازيغي إلى نسب حفيد النبي صلى الله عليه وسلم الحسين بن علي، وبالنتيجة فإنه يلزم الاقتداء به في جميع أفعاله وقبول أحكامه الدينية والدنيوية، وتفويض الأمر إليه في كل شيء. وبهذه المقدمات قفز إلى الحكم وقامت دولة الموحدين على أنقاض

دولة المرابطين التي كانت من أقوى الدول التي حكمت المغرب الإسلامي بل من أقوى الدول التي حكمت في تاريخ المسلمين. فما رأيك يا مولانا الناصر، هل أنت مستعد لتحمل هذه المقامرة؟

بيبرس: رأيه لا يهم.

سيلار: والله إنه لمن الظلم أن تضعوا الشيخ تقيّ الدين مع الضال ابن تومرت في سلة واحدة.

الناصر: سأنظر في الأمر فوالله لقد أدخلتم الشيطان بيني وبين الشيخ تقيّ الدين.

سيلار موجها كلامه للناصر: رغم عدم اتفاقي الكامل مع كلام بيبرس الجاشنكير والقاضي ابن مخلوف فيما يتعلق بنوايا الشيخ تقيّ الدين التي أحسبها على خير، إلا أن الأمراء والقضاة اتفقوا أن المصلحة تقتضي أن تلزم قصرك أيها السلطان فقد أثبتّ عجزك وسنحجبك عن العامة وسأتولى أنا ختمك ومراسلاتك.

الناصر: صبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

(20)

ابـن كثير

القاهرة (707) هجري

كان قدومنا من بصرى الشام إلى دمشق بعد وفاة والدي عمر بن كثير وأنا صغير لم يمض من عمري إلا ست سنوات، ورغم أن أول ما وقع عليه نظري في دمشق هو الجامع الذي تم الانتهاء من بنائه العام الماضي وأشرف على بنائه نائب دمشق الأمير آقوش بنفسه إلا أن الذي أثار فضولي أكثر هو منظر دخول الشيخ ابن براق إليها وبصحبته مائة فقير كلهم محلقي ذقونهم موفري شواربهم، على رؤوسهم قرون لبابيد. ومعهم أجراس وكعاب وجواكين خشب، وعلمت فيما بعد أنهم ذهبوا إلى الديار المصرية فلم يؤذن لهم، فعادوا إلى دمشق ومنها إلى بلادهم في العراق، إذ لم يجدوا في دمشق قبولا بين الناس لما تركه الشيخ تقيّ الدين بينهم من علم لا تروج به سوق أمثال هؤلاء الذين كان شيخهم براق مقربا من الهالك قازان، ذلك أنه سلط عليه نمرا فزجره فهرب منه وتركه، فحظي عند قازان بمنزلة رفيعة وأطلقه في البلاد يدعو إلى ملة قازان الجديدة تحت غطاء التأله والانقطاع عن الدنيا وعبادة كل من أراد لمن يريد، ثم أعاد خربندا سلطان التتار الجديد إرسال الشيخ براق

إلى أهل كيلان وأكثرهم حنابلة لا يسكن مبتدع بينهم يبلغهم عنه رسالة، فقتلوه.

ورغم هذا الموقف من أهل دمشق إلا أن غياب الشيخ ترك أثره على بعض جوانب الحياة إذ عادت صلاة الرغائب في النصف من شعبان التي كان الشيخ تقيّ الدين قد أبطلها منذ أربع سنين لأنه لم يقم عليها أي دليل من كتاب أو سنة.

لم تكن هذه الأحداث والقصص في دمشق يوم دخلتها والتي لا يتداولها إلا الأطفال وكبار السن كقصة بيع قناديل الحرم المكي وفيها قنديلان من الذهب الخالص زنتهما ألف دينار من أجل نفقة بناء مئذنة عند باب السلام الذي عند المطهرة، والتي أذن السلطان الناصر ببيعها لإتمام البناء فرسم بذلك إلى والي مكة، لم تكن هذه القصص من الأمور والأحداث العظيمة التي كان البريد يتداولها بين دمشق والقاهرة، وعلى رأسها أن الجاشنكير بيبرس والأمير سيلار قد حجبا السلطان واستبدا بالحكم من دونه، وتركا له أمر قناديل الحرم المكي وما شابهها من أمور يديرها ويتلهى بها.

دفعتني غزارة الوقائع وتتابعها عليّ وأنا صغير أن أشبّ عن الطوق وأكبر بسرعة على طريقة تقيّ الدين ابن تيمية الذي نصّبته لي شيخا منذ سمعت عنه، دخلت إلى دمشق أنا إسماعيل الملقب بابن كثير عام سبعة وسبعمائة وسكنت مع أهلي بدرب سعور الذي يقال له درب ابن أبي الهيجاء بالصاغة العتيقة عند الطوريين. وأذكر تماما كيف كان حديث عامة الناس والفقهاء والأعيان جله مرتبطا بالشيخ

تقيّ الدين ابن تيمية والمكر الذي يحيط به في مصر وأنهم يخافون عليه السجن والفتك.

وقع حب الشيخ في قلبي من حينها، وأخذت أقرأ كتبه وأتتبع أخباره وعلمت أنّ الناس ازدحموا لوداعه من باب داره إلى قريب الجسورة وهم ما بين حزين وباك يوم خرج من دمشق قبل عامين بطلب من السلطان الناصر لمناقشته بأمر عقيدته وما يُتهم به من خصومه أنه يُجسّد الله تعالى ويشبهه بخلقه والعياذ بالله.

دخل غزة في طريقه إلى القاهرة وعمل في جامعها مجلسا عظيما، ثم دخل القاهرة والقلوب معه وبه متعلقة مع أخويه شرف الدين وزين الدين ومعهم من أصحاب الشيخ ابن منجّا وتقيّ الدين شقير وفخر الدين الصائغ وشمس الدين التدمري.

لطالما كان العلماء الصالحون في طرف بعيد من الطرف الذي يقف فيه الملوك والسلاطين، فلا يلتحق الصالحون بحاشية السلطان خوفا على دينهم ولا يُقرّب السلاطينُ العلماءَ الصادقين خوفا على سلطانهم، وفي قربهما النجاة؛ لكن وجود العالم الصالح والمجتهد المطلق من النوادر كما السلطان التقي العادل، فإن وجدا في زمن واحد فأنّى للأحداث أن تجمعهما معا، وإن اجتمعا فذاك صلاح الدنيا والدين والراعي والرعيّة وبه عمارة القلوب بالإيمان والحواضر بالعدل والبنيان.

ظهرت بشارة هذا الاجتماع كما حدثني الشيخ جمال الدين

المزي عالم دمشق وفقيهها يوم التقى الشيخ والسلطان قبل سبعة أعوام في القاهرة عندما قدم الشيخ تقيّ الدين على البريد مستحثا الناصر محمد بن قلاوون على جهاد التتار ونجدة الشام، فانقدحت شرارة البشارة، بشارة أن يدور السلطان حيث دار القرآن كما قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت أولى الثمرات النصر العزيز على التتار في معركة مرج الصّفّر، فدخل على إثرها الشيخ إلى دمشق مع العامة والمتطوعة ودخل السلطان إليها بالعساكر والأمراء، وقد جمع بين الدخولين وبين الحشدين تلك العلاقةُ الوطيدةُ بين الشيخ والسلطان ففرح الناس ومن كان في قلبه حب الخير والصلاح فرحا عظيما أغاظ من كان في قلبه مرض، فما إن انتهت معضلة مغول فارس إلى الأبد بعد وقعة مرج الصّفّر حتى بدأت معضلة داخلية عصفت بالمسلمين وبددت أملهم بهذا الاجتماع، فانقلب من ضَرَّهُ هذا الاجتماع على السلطان في القاهرة فحجبوه عن الناس، كما كاد للشيخ من نحّاهُ علمُ الشيخ وشجاعته عن مكانته في دمشق فأعدوا له مكيدة عنوانها العقيدة وحقيقتها الحسد والمصالح.

كانت فراسة الشيخ بذهابه إلى القاهرة حادقة، وكان ذكاء السلطان بالمكر بخصومه حادًّا، فالشيخ ينشر العلم ويتوكل والسلطان يكيد ويخطط، والأقدار تُرسم، علمها من علم وجهلها من جهل.

دخل الشيخ إلى القاهرة في رمضان وأُخذ فورا إلى قلعة

الجبل قبل أن يستريح فدخل على قوم تدل عباءاتهم وأرديتهم على أنهم من أكابر الدولة وعقد له مجلس قضاء اجتمع فيه قاضي القضاة والفقهاء وأكابر الدولة من الأمراء والأعيان، وأراد أن يتكلم على عادته فلم يتمكن من ذلك، وادعى عليه شخصٌ يُدعى الشمس بن عدنان عند قاضي القضاة ابن مخلوف أنه يقول: إن الله استوى على العرش وأنه ينزل إلى السماء الدنيا ويتكلم بحرف وصوت كاستواء ونزول وكلام البشر، فسأله القاضي جوابه فأخذ الشيخ في حمد الله والثناء عليه، فقال له ابن مخلوف:

- أجب ولا تنبسط بالحديث، ما جئنا بك لتخطب.

فرد عليه الشيخ:

- ومن الحاكم فيَّ؟

فقيل له:

- قاضي القضاة ابن مخلوف.

فرد عليه الشيخ بصوت عال:

- كيف تحكم فيَّ وأنت خصمي أيها المُفرط التائه الذي لا يدري ما يقول؟

ثم غضب غضبا شديدا، وانزعج ورفض الإجابة على أسئلة المحكمة التي بُيّت أمرها بليل، وسألهم:

- أين السلطان الناصر فقد حضرت بمرسوم منه؟
- السلطان لا يريد مقابلتك.
- كذبتم، بل حجبتموه عن الناس واستأثرتم بالأمر دونه.
- أخرجوه من المجلس حتى يثوب إليه ذهنه، فالسفر أخذ منه كل مأخذ، انظروا إلى رثاثة هيئته فهي تُلحقه بالمغفلين.
- حسبي الله ونعم الوكيل وهل أمهلتموني حتى أصلح من حالي.

لما رأى الجاشنكير وابن مخلوف أن الأمر سيخرج عن السيطرة بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجُننه حتى حين، فأقاما مرسما على الشيخ وحبس في البرج أياما، ثم نقل منه ليلة العيد إلى الحبس المعروف بالجُب، هو وأخوه شرف الدين عبد الله وزين الدين عبد الرحمن.

ثم أرسل الجاشنكير بيبرس بإشارة من شيخه نصر المنبجي عدو الشيخ تقيّ الدين الأول ابن صصرى قاضيا على الشام فعاد إلى دمشق وقلوب الدماشقة له ماقتة والنفوس منه نافرة، وقرئ تقليده بالجامع الأموي وبعده قرئ كتاب فيه الحطُّ على الشيخ تقيّ الدين ومخالفته في العقيدة، وأن ينادى بذلك في البلاد الشامية، وألزم أصحابه وتلامذته بمخالفة شيخهم، وكذلك وقع بمصر. مكر بهذا الأمر الجاشنكير بيبرس وقاضي القضاة ابن مخلوف ونصر المنبجي وسار بالأمر معهم جماعة كثيرة من الفقهاء والفقراء،

وجرت فتن كثيرة منتشرة، وحصل للذين يتبعون الشيخ تقيّ الدين ويؤيدونه بعقيدة المسلمين المتوارثة منذ القرون الثلاث الأولى، حصل لهم بالديار المصرية إهانة عظيمة كثيرة.

أحضر الأمير سيلار نائب مصر المحبُّ للشيخ تقيّ الدين قضاة المذاهب في ليلة عيد الفطر وتكلموا في إخراج الشيخ من الحبس، فاشترط بعضهم شروطا منها أنه يلتزم بالرجوع عن بعض العقيدة وأرسلوا إليه فامتنع من الحضور، واستمرت مفاوضة الشيخ للخروج من السجن ست مرات وهو يرفض أن يتنازل عن شيء من عقيدة المسلمين الثابتة في الكتاب والسنة، وحاول الأمير سيلار محاورة إخوة الشيخ شرف الدين وزين الدين بإخراج الشيخ دون جدوى، وتكررت وساطة القاضي ابن جماعة وأمير العرب حسام الدين بن مهنا للشفاعة في ابن تيمية وهو مُصرّ لا يتنازل ويرد عليهم: «أنا إن قتلت كانت لي شهادة وإن نفوني كانت لي هجرة، ولو نفوني إلى قبرص دعوت أهلها إلى الله وأجابوني، وإن حبسوني كان لي معبدا، وأنا مثل الغنمة كيفما تقلبت، تقلبت على صوف».

***

وفي دمشق أُخبر نائب السلطنة الأمير آقوش بوصول كتاب من الشيخ تقيّ الدين من محبسه في الجُبّ، فجمع الناس وجعل يشكر الشيخ ويثني عليه وعلى علمه وديانته وشجاعته وزهده، وقال: ما رأيت مثله، وقرأ الكتاب المشتمل على حاله في السجن من التوجه إلى الله، وأنه لم يقبل شيئا من النفقات السلطانية ولا من الكسوة ولا من الإدرارات وترفّع عنها ولم يدنس بشيء منها.

(21)

الكرك

القاهرة (708) هجري

تتابعت أيادي الحرفيين والمهرة عبر مئات السنين تَصون وتُصلح الجسر الخشبي المتحرك المنصوب فوق الخندق الذي يحيط بقلعة الكرك التي يعود تاريخ بنائها إلى عصر المؤابيين، واستخدمها الأنباط لتكون بعد ذلك درعاً واقياً للروم حتى طرقتها جيوش المسلمين بقيادة أبي عبيده عامر بن الجراح فأصبحت قلعة إسلامية اغتصبها الصليبيون يوم غزوا بيت المقدس وبلاد الشام فاستعادها صلاح الدين الأيوبي فخلف من بعده خلف أهملوا صيانة جسرها ... فتضعضع.

***

تضعضع قضاة القاهرة فلم يحضروا المجلس الأول الذي عُقد للشيخ خوفا من مناقشته في العقيدة التي أُتهم بها بعد رفضه المساومات التي حدثت معه في السجن، ثم عقد المجلس الثاني بعد يومين والشيخ لم يزد عن قوله نثبت لله ما أثبته لنفسه ولا نعطله ولا ننفيه ولا نؤوله ولا نشبهه بخلقه فليس كمثله شيء، ويكرر

على مسامعهم قول الإمام مالك بن أنس «الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة» ويقول لهم ما أنتم في هذا الأمر إلا كالمعتزلة يوم فتنوا الناس بقصة خلق القرآن مع الإمام أحمد بن حنبل من غير دليل ولا أثر، ويقول «وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة وما رووه من الحديث ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير فلم أجد إلى ساعتي هذه عن أحد من الصحابة أنه تأوّل شيئا من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف».

ولمّا لم يصلوا إلى إتفاق مع الشيخ ورأوا أن خطتهم جاءت بعكس ما أرادوا خيّروا الشيخ بين العودة إلى دمشق أو الذهاب إلى الإسكندرية بشروط أهمها كتابة كتاب بالتراجع عن عقيدته وعدم تحديث الناس بها أو الحبس فاختار الحبس، فضجّ الناس وتململوا فزوّروا عليه كتابا أنه تراجع عن عقيدته وأطلقوا سراحه فخرج عائدا إلى دمشق في شهر شوال.

آل أمر السلطة إلى الجاشنكير بيبرس بعد حجب السلطان الناصر عن الناس وتولى كبر ذلك الأمير سيلار نائب مصر الذي أشرف على حبس السلطان الناصر في قصره وقام بالتقتير عليه في الطعام حتى يكون همه الأول الطعام لا الحكم، تحرك شيخ الجاشنكير نصر المنبجي وابن عطاء السكندري والآملي من أجل إعادة حبس الشيخ تقيّ الدين وأنابوا عنهم نصر المنبجي الذي توجه من فوره إلى القلعة والتقى بالجاشنكير بيبرس:

- السلام عليكم أيها السلطان عفوا قصدت أيها الأمير.

ينظر الجاشنكير بيبرس إلى نصر المنبجي نظرة شك واستفسار ويجيبه:

- وعليكم السلام، سبق لسان أم مكر وتخطيط.
- أما والله أيها الأمير إن تركت تقيّ الدين يعود إلى دمشق فلا إمارة لك ولا سلطنة.
- لقد استنفدنا كل الوسائل وضج الناس، ونخشى من تصاعد الأحداث.
- تخشى من تصاعدها حتى لا يؤثر ذلك على سعيك لخلع الناصر وأخذ الملك منه.
- نعم صدقت.
- إذاً فاعلم أن إطلاق سراح تقيّ الدين سيضيع عليك كليهما.
- لا رغبة لي في إطلاقه لكنّ ذلك أخفّ الشرّين، فقد والله بُلشنا بهذا الشيخ.
- إن عاد إلى دمشق فسوف يحرّض نائبها الأمير آقوش عليك وربما يستقل بالشام.
- لقد احتطت لذلك وأرسلت مرسوما باسم السلطان الناصر بعزله عن نيابة دمشق ورسمنا بتعيين شمس الدين قراسنقر المنصوري نائبا جديدا عليها.
- وهل سيرضى أهل دمشق بذلك وتقيّ الدين هو شيخهم وأميرهم على الحقيقة والواقع.

- وما الرأي يا شيخي وقد شهد علينا الأعيان والقضاة يوم أطلقنا سراحه.
- ما رأيك أن نجدد الشكوى عليه لنجدد جلبه وحبسه.
- وهل سنجد كالشمس بن عدنان ليقدم شكوى جديدة ومن سيجرؤ على ذلك وقد انتهت المجالس الثلاثة لصالح تقيّ الدين بل إن الكثير من القضاة والمشايخ خاف الحضور ومناقشة تقيّ الدين.
- ستكون الشكوى مختلفة هذه المرة.
- كيف يا شيخي؟
- سنفرق دم الشكوى بين القبائل.
- ما تقول؟
- سأجمع لك خمسمائة من الفقراء يخرجون في تظاهرة أمام القلعة يشكون تقيّ الدين ويطلبون حبسه بحجة أنه كفّر شيخهم ابن عربي، وعندها لن تكون ملاما إن حبسته من جديد.
- هذا رجل مِجاج خصِم، وما له قلب يفزع من الملوك وقد اجتمع بقازان وما خافه ومتى اجتمع بالسلطان والقضاة مرة ثانية وقرأ عليهم كتاب فصوص الحكم لابن عربي حكم علينا القضاة والمشايخ بالكفر وعزلونا.
- لا تخف يا بيبرس لن نسمح له بالوصول إلى ذلك وسنشوش عليه ونشغب.

- أحسنت يا شيخي استعجل بهذا الأمر قبل أن يصل تقيّ الدين إلى دمشق ويستعصم بها.
- اخفض عنك، سيكونون على باب القلعة خلال ساعة.

كان الشيخ تقيّ الدين قد وصل بلبيس لما وصلته رسل الجاشنكير بالعودة إلى القاهرة:

- هذا كتاب السلطان الناصر وختمه يأمرك بالعودة إلى القاهرة.
- بل هو كتاب الجاشنكير بيبرس ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يدخل الشيخ تقيّ الدين إلى القلعة بصحبة الحرس فلم يختلف الحال عن المرة الأولى إذ اجتمع الملأ يأتمرون به ومعهم القضاة وأكابر الدولة، وبنظرات الشامت يقف ابن مخلوف ويقول:

- شكوى من خمسمائة ولي من أولياء الله هذه المرة يا تقيّ الدين.
- حسبنا الله ونعم الوكيل، بل تقصد شكوى من الفقراء أصحاب مبشرات الأماني الكاذبة وخرافات الأوهام اللاغية.

ثم يقول وهو يضحك ساخرا:

والله ما فَقْرُنا اختيارُ ... وإنّما فقرُنا اضطرارُ
جماعةٌ كُلُّنا كسالى ... وأكلُنا مالهُ عيارُ
تسمعُ منّا إذا اجتمعنا ... حقيقةً كُلّها فشارُ

يلتفت قاضي القضاة ابن مخلوف إلى القاضي التونسي الزواوي ويأمره أن يقضي في المسألة فيجيبه مترددا:

- اعفني يا ابن مخلوف فليس هناك ما أحكم به وقد بانت عقيدته يوم نوقش بالمجالس الثلاثة ولا غبار عليها.

يجول ابن مخلوف ببصره بين القضاة فلا يتطوع منهم أحد للقيام بالمهمة، فيعزم على القضاء بها بنفسه، فيقف الشيخ تقيّ الدين وقد أدرك النتيجة سلفا، فالحرّ يعرف ما تريد المحكمة وقضاته سلفا قد سفكوا دمه، فيقول:

- سأعفيك يا ابن مخلوف من مشقة الحكم، دلني على السجن وسأذهب إليه بنفسي.

ثم يتوجه خارجا من باب المجلس إلى السجن قائلا:

- رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ

***

لم يكن مقدرا للشيخ والسلطان أن يلتقيا فقد خاف جميع خصومهما من انقداح تلك الشرارة التي ستُشعل لهيب اجتماع العدل والعلم ليحرق الظلم والجهل ويبدد الطمع والخرافات ويعيد للمسلمين عصرا زاهرا غاب عنهم منذ مدة يدور فيه الناس والسلطان معا حيث دار القرآن.

فالمكر بالشيخ ما زال مستمرا وعُرض على السيف أربع عشرة مرة لا يقال له «وافقنا» بل «اسكت» وهو يقول «لا يسعني أن أسكت عمن خالفني بأن الله ليس فوق العرش إله يُعبد ولا في المصاحف قرآن ولا لله في الأرض كلام» ثم يدق بعمامته الأرض ويقول لا والله لا يكون، وأتباعه في القاهرة يتكاثرون والناس يتوافدون عليه في السجن ينهلون من علمه، وكان ينال من الجاشنكير بيبرس ومن شيخه نصر المنبجي، ويقول لأخويه زين الدين وشرف الدين ولزواره في السجن:

- زالت أيام الجاشنكير تلميذ الحلولي الملحد نصر المنبجي وانتهت رياسته، وقرب انقضاء أجله.

فيُعقّب على ذلك بعض المساجين:

- آمين.

ويتكلم فيهما وفي ابن عربي وأتباعه ثم يرفع يديه إلى السماء لا لأنهم سجنوه بل يدعو عليهم فيقول:

- اللهم إنهم نفوا عنك العلو، وأنت العلي الكبير فأذهب ملكهم وبدد شملهم واجعلهم عبرة لمن يعتبر.

كل ذلك كان يصل إلى الجاشنكير بيبرس وابن مخلوف عن طريق العيون التي بثوها في السجن بعد أن شعروا أن الحرس أقرب إلى الشيخ تقيّ الدين منهم، فقرّروا أن يُسَيِّروه إلى الإسكندرية كهيئة

المنفي لعل أحدا من الفُتَّاك أو من الرعاع أتباع ابن عطاء السكندري يتجاسر عليه فيقتله غيلة.

سلّم الشيخ لقدره الذي سيسير به غربا تجاه الإسكندرية مبتعدا عن السلطان الذي كانت الست حدق بحكمتها تُخطط لقدره الذي سيسير به شرقا نحو الكرك، فقد أدرك السلطان أن بقاءه محبوسا في قصره يعني عزله نهائيا عن الملك، ووصل الأمر إلى منتهاه بتجويعه وتعطيشه، فرسم والست حدق خطة عزما على تنفيذها، فطلب منها الحضور إلى قصره، فقالت:

- السلام عليكم أيها السلطان.
- وعليكم السلام يا أمي لا تناديني باسم السلطان بل ناديني باسم محمد فذلك أطيب إلى قلبي وأحب.
- أمرك مولاي السلطان.

ثم تتدارك وهي تضحك:

- أمرك يا محمد.

يلتفت السلطان الناصر حوله ويقترب من الست حدق ويخفض صوته:

- لقد عزمت على تنفيذ ما اتفقنا عليه، وأريد منك أن تعتني بزوجتي أثناء غيابي الذي ربما يطول بعض الشيء.
- احذر يا محمد فأنا أخاف عليك القتل.

- الأعمار بيد الله يا أمي، ولا يكون السلطان سلطانا إن لم يحزم في أمره ويعزم، وقد أظلت مصر غمامة سوداء وغلت الأسعار وضج الناس وساءت الأحوال وجف النيل وهلك الزرع ولا بد لي من التدبير وقد مكرت لهم مكرا كُبَّارا، وأغلب الظن أن زوجتي حامل فوصيتي لك إن حدث لي شيء أن تأخذي ابني وتخبئيه في مأمن فأنت الوحيدة التي تتحرك بحرية هنا وهو أول المرشحين للقتل إن فشلت خطتنا.
- حفظك الله وحفظ ذريتك يا مولاي.

ثم ينادي السلطان الناصر على الحرس ويعطيه كتابا للجاشنكير بيبرس يستأذنه الخروج إلى الحج.

***

وافق الجاشنكير بيبرس على خروج السلطان الناصر إلى الحج ومعه بعض الأمراء والخاصة بعد أن وجد في ذلك فرصة للتفرغ لوأد الفتنة التي قد تنجم عن قتل الشيخ تقيّ الدين إن تجرأ عليه بعض الفقراء في الإسكندرية كما خطط لذلك مع شيخه نصر المنبجي، كما رجا من السماح للسلطان الناصر بالحج أن يلفت ذلك انتباهه عن الحكم ويعتزل الناس متفرغا للعبادة والذكر، فما زال عمر السلطان أربعا وعشرين سنة ولم يُشْرَب قلبه حب الملك بعد، فلعله يعتزل فيستريح ويريح.

طارت اليمامة عن شرفة السلطان الناصر لمّا غادر القاهرة في رمضان مع محمل الحج المصري ورافقت القافلة، ولما اجتاز بالكرك عدل إليها وفارق القافلة، فعادت أعين الجاشنكير بيبرس فورا بالخبر إلى القاهرة، فأشاع السلطان أنه سيعتزل السلطنة ويخلع نفسه كي يطمئن الجاشنكير بيبرس وسيلار أن ما أَمِلَاهُ من اعتزاله قد تحقق.

نُصب الجسر على باب قلعة الكرك للسلطان فلما توسطه تضعضع وبدأ بالتكسر فأسرع من أمامه بالعبور ووقع من كان وراءه في الوادي الذي يحيط بالقلعة تحت الجسر فمات بعضهم وتهشم الآخرون وقفزت فرس السلطان باللحظة الأخيرة وترجل عنها فورا، ثم وطئ بعرجته قلعة الكرك مُحدّثا نفسه قائلا: عاد إلى السلطنة سلطانها ومن أنجاني من هذه سينجيني مما بعدها ولأطأنّ بعرجتي هذه جباه من خان وغدر.

ظل نائب الكرك لعدة أيام خائفا خجلا أن يتوهم السلطان أن سقوط الجسر كان عن قصد، فعمل للسلطان ضيافة دعا إليها أربعة عشر ألف رجل، اشتغل السلطان بعدها بتدبير المملكة في الكرك وحدها، وكان يحضر دار العدل ويباشر الأمور بنفسه، ولما استقر بالكرك كتب كتابا إلى الديار المصرية يتضمن عزل نفسه عن المملكة، وكان من دهاء السلطان أنه أراد بذلك أن يتحمل الجاشنكير بيبرس ومن معه ما لحق بمصر من غلاء وخراب وهلاك في النفوس والزروع وسخط العامة.

أُثبت عزل السلطان لنفسه على القضاة بمصر، ثم نفذ على قضاة الشام فأرسل إليه الجاشنكير بيبرس زوجته وأهله بعد أن اطمأن لجانب السلطان ليتفرغ لجانب الشيخ.

سكنت نفس الجاشنكير بيبرس وقد بويع كسلطان جديد لمصر ولبس على رأسه عمامة ضخمة مبثوثا فيها الجوهر البرَّاق، ولقب بالملك المظفر وأصبح ابن مخلوف بمرتبة مرموقة بين السراة من رجال الدولة البارزين، وهما لا يعلمان أن افتراق خصميهما السلطان شرقا والشيخ غربا إنما كان بقدر مقدور ليضرباهما من بعد عن قوس واحدة من مكانين مختلفين بسهمي العدل والعلم فابتعدا ليُصيبا كما السهم لا يصيب إلا إن ابتعد لشد الوتر.

قرئ كتاب السلطان الناصر على الأمراء بالقصر، وفيه: «إني قد صحبت الناس عشر سنين ثم اخترت المقام بالكرك» تباكى جماعة من الأمراء وبايعوا الجاشنكير بيبرس الذي كان رئيس الطباخين في القصر كالمكرهين، ثم دقت البشائر بسلطنة الجاشنكير بيبرس وزينت مصر وسارت البريدية بذلك إلى سائر البلدان وركب بيبرس بالخلعة السوداء الخليفية، والعمامة المدورة وأكابر الدولة بين يديه عليهم الخلع وحامل تقليد السلطان من جهة الخليفة في كيس أطلس أسود، فقُرئ على الناس وجاء في أوله «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ...»، خلع السلطان الجديد بيبرس في القاهرة قريب ألف خلعة ومائتي خلعة، وفرح بنفسه أياما يسيرة، وكذا شيخه المنبجي ونائب مصر سيلار الذي ترك الأمر للجاشنكير ليكون هو كبش الفداء إن لم تنجح خطتهم

بعزل السلطان الناصر وإن نجحت فسيستولي ويستبد بالأمر وحده فالسلطة الفعليّة كانت وما زالت بيده.

جف النيل وعطش الناس حتى شربوا الماء الزُعاق وهلكت زروعهم.

خَاصَّةُ الناس في مرمى نظر وسمع الجاشنكير بيبرس وحاشيته تحتفي به وتخطب على المنابر باسمه، بينما العامة والدهماء تهتف وتغني أهازيج شعبية على غفلة منه في أسواق الوراقين والبزورية والدقاقين والحمالين وفي المساجد والساحات داخل أسوار القاهرة وخارجها وفي أسواق الجمال والغنم:

«سلطاننا ركين ونائبه دقين

يجينا الماء من وين

جيبوا لنا الأعرج يجي الماء ويتدحرج»

ونشد المُغني الشعبي المعروف مسعود في حواري القاهرة يتغزل بالسلطان الناصر:

أحبة قلبي إنني لوحيد
أريد لقاكم والمزار بعيد
كفى حزناً أني مقيم ببلدة
ومن شف قلبي بالفراق فريد
أجول بطرفي في الديار فلا أرى
وجوه أحبائي الذين أريد

وفي مكان آخر بالقرب من القصر سُمع صوت هتاف أخطر، صدر من مساكن العسكر والجند، أيّده مجموعة من العلماء رغم تحفُّظهم على وصف الله بالخيانة:

«ناصر يا منصور ... الله يخون من يخون بن قلاوون».

(22)

الإسكندرية

الإسكندرية (709) هجري

قصّ الحجّارون صخرة كبيرة وقطّعوها قطعا تصلح للبناء وتم جرها بالبغال إلى شاطئ الإسكندرية حيث أشرف المعماري الإغريقي سوستراتوس قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة على بناء منار الإسكندرية بأوامر من الحاكم اليوناني بطليموس الثاني، فبقيت شامخة كما بناها على أربعة أقسام، الأوَّل عبارة عن قاعدة مربَّعة الشكل، يفتح فيها العديد من النوافذ، وبها حوالي ثلاثمائة غرفة، مجهَّزة لسكنى المهرة القائمين على تشغيل المنار وأُسرهم. أما الطابق الثاني، فكان مُثمَّن الأضلاع، والثالث دائرياً، وأخيراً تأتي قمة المنار، حيث يستقر الفانوس، مصدر الإضاءة في المنارة، يعلوه تمثال لإيزيس رب الإغريق اليونانيين المزعوم. بقيت تلك الحجارة في مكانها ثابتة حتى ضربها زلزال مصر قبل خمس سنوات، فسقطت وسقط إيزيس معها، ولم تفلح محاولة الجاشنكير بيبرس إعادة المنار إلى عهدها الذهبي وتناهب الناس حجارتها.

أخذ حراس قلعة الإسكندرية من حجارة إيزيس ما جعلوه

دكات ومصطبات، يجلس على واحدة منها الشيخ تقيّ الدين يصنّف كتاب (نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان) يكرر على أسماع من حوله مقولته الشهيرة: «المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد»، ولازِمتها من عباراته: «المتكلمون لا للإسلام نصروا، ولا لعدوه كسروا».

أقام الشيخ في قلعة الإسكندرية ثمانية أشهر ببرج متسع مليح نظيف خصص له آمر القلعة من يعتني به ويصونه، له شباكان أحدهما إلى جهة البحر، والآخر إلى جهة المدينة، وأذن لمن شاء من العامة أو الخاصة أن يدخل على الشيخ، فتردد عليه أكابر البلد والقضاة والأعيان يقرؤون عليه ويستفيدون منه، تردُ إليه الفتوى ولا يردُّها وتفد عليه فيجيب عليها بأجوبة كأنه كان قاعدا لها يُعدُّها، ومما جاءه طلب من صاحب سبتة أن يجيز له مروياته وينص على أسماء جملة منها فأجابه إلى ذلك، فكان سجنه كخير مقام وأطيب عيش.

وصل كتاب من أهل دمشق يسأل عن أخبار الشيخ وأحواله فكتب لهم أخوه شرف الدين ينبئهم عن حاله في السجن:

«إن الأخ الكريم قد نزل بالثغر المحروس على نية الرباط، فإن أعداء الله قصدوا بذلك أمورا يكيدونه بها ويكيدون الإسلام وأهله. وكانت تلك كرامة في حقنا، وظنوا أن ذلك يؤدي إلى هلاك الشيخ فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة وانعكست من كل الوجوه، وأصبحوا وأمسوا وما زالوا عند الله وعند الناس العارفين سود الوجوه

يتقطعون حسرات وندما على ما فعلوا، وانقلب أهل الثغر أجمعين إلى الأخ مقبلين عليه مكرمين له وفي كل وقت ينشر من كتاب الله وسنة رسوله ما تقر به أعين المؤمنين. وذلك شجىً في حلوق الأعداء. واتفق أنه وجد بالإسكندرية إبليس قد باض فيها وفرخ وأضل بها فرق السبعينية والعربية فمزق الله بقدومه عليهم شملهم، وشتت جموعهم شذر مذر، وهتك أستارهم وفضحهم، واستتاب جماعة كثيرة منهم، وتوب رئيسا من رؤسائهم واستقر عند عامة المؤمنين وخواصهم من أمير وقاض وفقيه، ومفتٍ وشيخ وجماعة المجتهدين. إلا من شذ من الأغمار الجهال، مع الذلة والصغار - محبةُ الشيخ وتعظيمُه وقبول كلامه والرجوع إلى أمره ونهيه، فعلت كلمة الله بها على أعداء الله ورسوله، ولعنوا سرا وجهرا وباطنا وظاهرا، في مجامع الناس بأسمائهم الخاصة بهم، وصار ذلك عند نصر المنبجي المقيم المقعد، ونزل به من الخوف والذل ما لا يعبر عنه»

انطلق سهمُ جاه الشيخ تقيّ الدين ومكانته التي تحققت عند أكابر الدولة في الإسكندرية، وحبّه الذي تربع في قلوب عامة الناس وخاصتهم من الفقهاء والقضاة وسارت بأخباره الركبان، فأصاب القاهرة شرقا بمقتل، وانطلق سهم علمه غربا إلى طرابلس والقيروان وطنجة وغرناطة، فأصبح سلطان الإسكندرية غير المُتوّج، وأصبحت الإسكندرية للشيخ كقوس الفارس المنحاز عن المهلكة ليضرب من جديد، فأصاب أعداءه في الصميم بعد أن فشلت محاولات ثنيه وعزله وقتله، فارتعدت أوصال مغتصبي الحكم في القاهرة وحارت ألبابهم وطاشت عقولهم.

(23)

شيئا مليحا

دمشق (709) هجري

مضى من عمري سنتان جديدتان منذ قدومي إلى دمشق أول مرة، وأصبح عمري يقارب التسع سنوات يوم نادت عليّ أمّي من داخل الدار وأنا أهمّ بالهروب خفية:

- يا إسماعيل أين ستذهب؟
- لقد اجتمع السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالناس في الميدان.
- مالك وللسلطان ما زلت صغيرا على هذه الأمور.
- بل هي من صميم اهتماماتي يا أمي وسأكتب عنها في يوم من الأيام.
- أخشى عليك، فما زال الأمر بين أخذ ورد بين الأمراء والسلطان وربما نشب بينهما القتال.
- لست أخافه يا أمي.
- من شابه أباه ما ظلم يا ابن عمر بن كثير.

- سأذهب لأجل الفُرجَة مع الناس لا غير.
- ولكن ...

خرجتُ مسرعا هاربا من أمي إلى الساحة العامة في الميدان، لأشهد ما ستؤول إليه الأمور بعد أن نجحت محاولة السلطان الناصر الثانية بالزحف من الكرك إلى دمشق بمن معه من العساكر والأمراء الكركية ومن التحق به من أمراء مصر الذين كرهوا ولاية الجاشنكير بيبرس.

كاتب السلطان الناصر مجموعة من أمراء الشام فبايعه بعضهم بالسلطنة للمرة الثالثة وامتنع آخرون لزموا بيعة بيبرس الجاشنكير سلطانا على مصر والشام، فاضطربت أحوال الناس في دمشق وخافوا الفتنة والقتال، لكن دهاء السلطان الناصر بإصدار عفو عام عن كافة خصومه من أمراء الشام قرأه المؤيدون له على الملأ في دمشق مهّد له دخولها.

في شعبان من عام تسعة وسبعمائة فتح الموالون للسلطان باب النصر فدخلها بعساكره ولم يقصد قلعة دمشق التي اعتصم بها الأمراء والعساكر المُبايعون للجاشنكير بيبرس ومعهم من لم يحزم أمره بعد ومن خاف بطش السلطان ولم يثق بالعفو الذي أصدره، توجه السلطان إلى الساحة العامة في الميدان ونادى حراسه بالناس أن يجتمعوا، فاعتلى مصطبة مشرفة على الساحة ودقها بعرجته دقا عنيفا، فهدأت الأصوات.

كان على السلطان يومئذ عمامة بيضاء، وكارثة حمراء، وحمل الغاشية على رأسه الحاج بهادر وعليه خلعة معظمة مذهبة بفرو فخم، فتقدم خطوة وحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

- يا أهل دمشق ألستُ سلطانكم الذي بايعتموه قبل أن يغتصب الجاشنكير بيبرس الملك؟

فرددوا بصوت واحد:

- بلى.
- ألست من قاتل بنفسه التتار دونكم، وقتل قازان هما وغما بعد معركة مرج الصّفّر. فغدت دمشق والشام آمنة سالمة؟

فتعالت الأصوات:

- نشهد نشهد.
- ألستُ من نصر شيخكم شيخ الإسلام تقيّ الدين على أعدائه.

فردت الأصوات المشتاقة لشيخها المتلهفة للقائه باكية:

- بلى بلى.
- ألم أرفع عنكم المظالم والإجحافات والمكوس وأرد لكم أموالكم المغصوبة.

ألست ابن المنصور قلاوون هازم التتار في حمص وفاتح طرابلس وأخا الأشرف خليل فاتح عكا وطارد الصليبين من الشام.

فقال الناس بصوت واحد:

- قلاوون ... قلاوون.
- فهل ترضون بي أم برئيس الطباخين الجاشنكير بيبرس؟

فهتف الجميع:

- الناصر ... الناصر.

فدقّ بعرجته المصطبة ضربة قوية وصاح بهم:

- فهلموا إلى بيعة سلطانكم سلطان المسلمين.

تدافع الناس يبايعونه لم يتأخر منهم أحد، يسلمون عليه ويقبلون يده، فأُسقط بيد من تردد وخالف من الأمراء المجتمعين مع عساكرهم في القلعة، فزحفوا إليه مبايعين خاضعين بدل أن يزحف إليهم مقاتلا مغالبا.

في بكرة يوم الثاني وصل الأمير آقوش من مصر مطيعا وقبل الأرض بين يدي السلطان فترجل له وأكرمه وأذن له في مباشرة نيابة دمشق على عادته، وفرح الناس بطاعة الأمير له ووصل إليه أيضا الأمير قبجق نائب حماة، والأمير سيف الدين استدمر نائب طرابلس فتم له الأمر في الشام قاطبة.

انطلق باجتماع العساكر الشامية على السلطان سهم أصاب القاهرة من شرقها، وانطلق باجتماع الناس على الشيخ تقيّ الدين

في الإسكندرية وتعظيمهم له سهم أصابها من غربها، فأحاطت هيبة العالم وقوة السلطان بالجاشنكير بيبرس إحاطة السوار بالمعصم، وخرج السلطان من دمشق وفي صحبته القاضي ابن صصرى وصدر الدين الحنفي قاضي العساكر، والخطيب جلال الدين، والشيخ ابن الزملكاني، وسائر أمراء الشام وعساكرها الذين اجتمعوا عليه من سائر المدن والأقاليم، ودخل غزة في أبّهة عظيمة، وتلقاه مجموعةٌ من الأمراء المصريين على مقدمتهم الأمير سيف الدين بهادر مبايعين، وأخبروه أن الجاشنكير بيبرس خلع نفسه وفرّ هاربا، ثم تتابع قدوم الأمراء من مصر إلى السلطان فطابت قلوب الشاميين واستبشروا بذلك. وقال السلطان معلما الجميع: «لا تملوا شيئا حتى تُشاوروني فأنا ما أريد لكم إلا الخير»، وكان حريصا أن يدخل مصر دون إراقة دماء ولمَّا تم له ذلك قال: عدت إلى المُلك بالحكمة والدهاء دون إراقة قطرة دم واحدة، فالحمد لله الذي صان دماء المسلمين.

دخل السلطان الناصر القاهرة فتغيرت الدولة وانقلبت قلبةً عظيمة. وخرج الخليفة يرتدي خُلعة خضراء يلبسها العباسيون للتشريفات كتقليد عريق دأبوا عليه منذ بواكير دولتهم، واستقبل الخليفةُ السلطانَ بنفسه في أول أيام عيد الفطر، واجتمعت العساكر والأمراء وأكابر الدولة وأعيان القاهرة والمشايخ والقضاة في قلعة الجبل يقبلون الأرض بين يدي السلطان، منهم السعيد بعودته ومنهم الخائف ممّا قدمت يداه، فكان أول شيء فعله السلطان أنْ طلبَ الشيخ تقيّ الدين ابن تيمية من الإسكندرية

معززا مكرما مبجلا، وقبض فور وصوله على اثنين وثلاثين أميرا وأودعهم السجن.

حدثني بذلك القاضي صدر الدين الحنفي الذي رافق السلطان في رحلته إلى مصر بعد مجيئه منها ثم قال لي:

- يا ابن كثير أتحب ابن تيمية؟

فقلت:

- نعم.

فقال لي وهو يضحك:

- والله لقد أحببت شيئا مليحا.



telegram
@yasmeenbook

(24)

الشيخ والسلطان

القاهرة (709) هجري

في الثامن من شوال من عام تسعة وسبعمائة صدح صوت تردد صداه في سجن القلعة بالإسكندرية فرح بمضمونه السجّانون قبل أن يفرح به الشيخ تقيّ الدين: أبشر يا شيخنا جاء الفرج ... جاء الفرج.

أصوات التكبير تتعالى بالقلعة، وكأن السجّان هو السجين وكأن الحارس هو المحروس، فبعد أن قلب الشيخ تقيّ الدين سجنها إلى مجالس علم وفتوى ومسامرة وأُنس، أصبح السجّانون هم مادة تلاميذ الشيخ وزخم جمهوره، استرقوا السمع من بعيد في بادئ الأمر، ثم انتهى بهم المقام تلاميذ نجباء يواظبون على حضور دروس الشيخ، بل سخَّروا أنفسهم لخدمة الشيخ، يحضرون له أدوات الكتابة من الأوراق والكاغد والأقلام، وما يحتاجه من المطهرات والأطلية والمراهم والمعجنات والمطجنات من السوق ومن بيوتهم، يرسلونها مع الركابي الذي يُزوّد القلعة بالمؤن والأشربة على ظهور البغال، فيأكل منه ما يقيم أوده ويعطي الباقي

للمسجونين، وكانوا يرسلون له الطبيب إن احتاج إلى علاج أو تطبيب و الحجام ليحتجم على السُّنَّة، ويرسلون له ما شاء من الرسائل والمكاتيب من وإلى دمشق، وأحضروا له كواغد الورق نوع النصف بلدي الذي كان يفضل الكتابة عليه من الشام.

كان فرحهم ببشارة الإفراج عن الشيخ تقيّ الدين عظيما، إلا أن الحزن تملكهم بنفس الوقت، فالإفراج عن الشيخ يعني أنه لن يعود بينهم ولن ينعموا بالاستماع إلى كلماته الطيبة والنهل من علمه الغزير، والاستئناس بالقرب منه والتَّنعم ببركة دعائه.

يركض آمر السجن متجاوزا غرف السجن وساحاته متوجها إلى مهجع الشيخ تقيّ الدين، يفتح باب زنزانته فيقطع صوت صرير المزلاج المعدني أذكار الشيخ الصباحية التي شوشتها الجلبة التي حدثت في أرجاء القلعة، يعانق آمر السجن الشيخ فيبادله العناق مستغربا فلم يكن قد سمع البشارة بعد لِمَا هو فيه من ذكر وشغل اعتاده منذ صباه في تلاوة أوراده الصباحية، لكن عناق آمر السجن أفاقه من غفلته عن البشارة فكان آخر من أدركها من السجانين والمسجونين.

- أبشر يا شيخنا أبشر.
- وبماذا أستبشر ولماذا أستبشر، أفتح جديد لعساكر المسلمين أم هزيمة جديدة للمغول؟
- لقد دخل سلطاننا المحبوب الناصر محمد بن قلاوون إلى القاهرة عزيزا كريما منتصرا على خصومه وفرّ المخذول

وجه الشؤم الجاشنكير بيبرس واختفى الأمير سيلار. واحتجب قاضي القضاة ابن مخلوف.

- الحمد لله على فضله، وتلك الأيام نداولها بين الناس.

- وقد أرسل فور جلوسه على سرير الحكم للمرة الثالثة إلى نائب الإسكندرية أن يطلق سراحك ويرسلك إلى القاهرة وإلى قصر السلطان معززا مكرما.

يخرّ الشيخ ساجدا شاكرا لله على فضله فقد مضت الفتنة وعادت الأمور إلى نصابها وتخلص المصريون من الظلم والفساد الذي رافق تسلط الجاشنكير بيبرس على الحكم. نُقل الشيخ إلى قصر نائب السلطنة في الإسكندرية وأُلبس عباءةً جديدة وطيلسان ومَداسا يُناسب دخوله على السلطان الناصر، وجُهِّزت له راحلة يرافقها العساكر وتوجهت إلى القاهرة.

فُتحت أبواب الإسكندرية الأربعة احتفالا بخروج الشيخ من السجن، باب السدرة، وباب رشيد، وباب البحر، والباب الأخضر الذي لا يُفتح إلا يوم الجمعة، وتسلق بعض محبي الشيخ منار الإسكندرية من جانب جداره المهدوم وأشعلوا فيها الشمع والنيران.

بعد يومين وصل الشيخ إلى القاهرة فرآها على غير الوجه الذي تركها عليه قبل تسعة شهر، كانت كئيبة حزينة، تشعر وتحس وكأنها كانت تريد أن تَنقَضَّ على نفسها لما تخلل شوارعها ومبانيها من ظلم وجور، هو اليوم يدخلها وهي تتهلل بعودته وقد شُرّعت

أبوابُها فرحةً بعودة السلطان الناصر للملك للمرة الثالثة.

تجمّع محبو الشيخ على السور الغربي للمدينة، وزينوا بوابة السعادة فدخل منها مطأطئا رأسه شاكرا ربه متواضعا من غير تكلّف ولا تصنّع، يقوده خاصكيّة السلطان إلى الإيوان اليوسفي في قلعة الجبل قبل الذهاب إلى أي مكان آخر كما رسم بذلك السلطان، استُقبل في القلعة وتم تجهيزه على عجل ثم انتقل إلى قاعة الرسل وكبار الضيوف. حضر الأمراء والأعيان والفقهاء والقضاة وأكابر الدولة، ودخل الشيخ تقيّ الدين على السلطان في الإيوان الكبير فنهض له قائما أول ما رآه، ومشى له إلى طرف الإيوان وتكارشا وتعانقا هنيهة عناق العدل للعلم عندما يلتقيان، وعناق المُبعد للمبعد عندما يقتربان، وعناق العائد للعائد عندما يجتمعان، فما مَرَّا به كان من التشابه حد التطابق وكأنهما جناحا يمامة حلقت بعيدا ثم هبطت على شرفة القصر من جديد.

أخذ السلطان معه الشيخ إلى طبقة فيها شباك في بستان رحبة القصر فجلسا ساعة يتحدثان:

- الحمد لله على خروجك من السجن يا شيخنا.
- وله الحمد على نجاتك من المكائد وعودتك إلى القاهرة معززا مكرما.
- ذلك فضل الله يا شيخنا.
- لله الفضل والمنة.
- لقد عادت المياه إلى مجاريها وعاد الملك إلى أصحابه.

- أنت أهل له أيها السلطان إن اتقيت وعدلت.
- هو ذاك، ولذلك أردت أن أبدأ عودتي إلى الحكم بإزالة الظلم الذي وقع عليك.
- ما أنا إلا واحد من المسلمين، وقد كثرت المظالم في الشام ومصر وساء حال الناس في ظل حكم الجاشنكير بيبرس.
- لقد كنت على اطلاع على الأحوال وأتابعها من الكرك، يخبرني بتفاصيل الأحداث من بقي على إخلاصه.
- الله لطيف بعباده، وها هو يعطيك نوبة أخرى لتقوم بأمره وتحكم بشرعه وتنشر العدل وترفع الظلم.
- هو كذلك يا شيخنا، وأريد منك أن تبقى هنا في القاهرة وتكون من خاصتي وأهل مشورتي.
- أما البقاء في القاهرة فنعم لأن ذلك ما أخرجني من دمشق أول مرة لما فيه من مصلحة عظيمة، فالقاهرة مدينة عظيمة ولها حق علينا عظيم، أما الثانية فقد أخبرتكم يا مولاي قبل أكثر من سبع سنوات أني رجل ملة ولست رجل دولة.
- ولا حتى منصب قاضي الدولة؟
- الأمر كما أخبرتك فاعذرني أيها الناصر.
- لك ما شئت يا شيخنا، وهذه البلاد والأقاليم التي تقع تحت حكمي سح فيها حيث شئت وانشر من العلم ما شئت.
- المستقر الآن القاهرة إلى أن يأذن الله بغيره.

- أخبرني يا شيخنا كيف كان سجنك في الإسكندرية وقبله في القاهرة؟ وهل غفرت لي أن كان الترسيم عليك مختوما بختمي؟ فما كنت حينها أملك من أمري شيئا.
- اخفض عنك يا مولانا، لو بذلت لهم ملء هذا القصر ذهبا ما جزيتهم على ما تسببوا فيه من الخير، فقد كانت خلوة كنت بحاجة إليها، ومحرابا للطاعة والتوبة، ودكة للتدريس، وقد لقي المُسيء سوء أعماله والله يعلم قبلي وقبل الجميع أنك بريء من هذه المظالم.
- وكيف كانت أيامك في السجن؟
- قد كانت ولله الحمد كلها خير، رتبت فيها ما كان يعوزني الوقت إلى كتابته أو قراءته.

يسكت الشيخ قليلا ويقلب نظره في الأواني التي وضعها الخدم أمامه ثم يقول:

- لمّا تغير الإمام والرعيّة كان الواجب على كل إنسان أن يفعل من الواجب ما يقدر عليه، وقد انقدح في ذهني أن أكتب ما لا يَستغني عنه الراعي والرعيّة.
- بما أنك تكلمت عن الرعيّة التي أنت شيخها وأنا راعيها، فهل تأذن لي يا شيخنا أن آمر لك بجارية تعينك على شؤون بيتك وتخدمك.

تشخص عيني الشيخ وينظر مذهولا وكأنه يسمع لأول مرة في حياته عن الجواري ويجيب حازما:

- جواري ... لا ... لا ... لا حاجة لي بالجواري، إلا هذه يا مولانا السلطان فأنا رجل علم والجواري يعطّلن ويلهين أكثر مما يخدمن ويُعِنّ.

يبتسم السلطان ويتابع:

- إذاً آمر لك بزوجة من خيرة بنات أعيان مصر وكبرائها.
- سامح الله السلطان، أتريد مني أن أعود إلى والدتي ست النعم بعد هذا الغياب ومعي زوجة ليست من اختيارها، وهي التي ما فتئت تعرض عليّ هذه وتلك من بنات دمشق، إذاً والله لتقولن لي كما قال إبراهيم لإسماعيل عليهما السلام «غيّر عتبة بيتك».
- أضحك الله سنك يا شيخنا، حزمك مُغشّى بالمُلَح ترمي النكات وتدحرج الإشارات، وهل ست النعم منك بمكانة إبراهيم من إسماعيل.
- هي كذلك، ففي ذلك برّها رغم ما أشقيتُها به من كثرة الأعداء والسجن والنفي ... والعزوبيّة.
- إن أحببتَ أحضرناها إليك.
- شكر الله السلطان، لا حاجة لها بذلك، فبعد خروجنا من حرَّان قبل أربعين سنة عزمت ألا تخرج من دمشق حتى لو قتلها التتار فيها.

سار السلطانُ مع الشيخ وهو ممسك بيده في بستان القصر وتحدثا طويلا، ثم إن السلطان بعد ذلك استفتى الشيخ في قتل

بعض القضاة بسبب ما فعلوا وتآمروا وتكلموا، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومبايعة بيبرس الجاشنكير، وأنهم قاموا على الشيخ تقيّ الدين أيضا وآذوه وسجنوه، وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم، ففهم الشيخ مراد السلطان وأخذ في تعظيم القضاة والعلماء، وينكر أن يُنال أحدٌ منهم بسوء، وقال له:

- إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم.
- إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مرارا. لو رأيتهم وهم كالكلاب الهارشة ....

يقاطع الشيخ السلطان حتى لا يوغر صدره وخوفا من الاستسلام لرغبات نفسه التي تلح عليه بالانتقام:

- لا تشحن قلبي على ما فيه أيها السلطان، من آذاني فهو في حلّ، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي، واعلم مولاي أنك إن اخترت القتل للانتقام فيجب عليك أن تحفر قبرين أولا. وأراك إن تركت بعضهم أو سجنته فَسَيُجَنّ ويَهلك أسفا، وهذا يكفيك.

تعجب السلطان من جرأة الشيخ عليه وصراحته معه، وكان ذلك مما زاد حبه للشيخ المؤمن بما يقول الصادق في نصيحته، وما زال الشيخ به حتى حلم عن القضاة والفقهاء وصفح عنهم. أما الأمراء فسكت السلطان عن الكلام بشأنهم وأضمر في نفسه الفتك بهم.

كان الشيخ قد وصله وهو في الإسكندرية ظلم نائب دمشق، فَكَلَّمَ السلطان بعزل سيف الدين كراي لما فرض على أهلها من الضرائب، كما اقترح عليه تعيين الأمير آقوش نائبا لطرابلس لما علم عنه من الأمانة والكفاءة، كما حضّه على إرسال مرسوم سلطاني إلى دمشق بمنع التعيين بالرشوة وقد انتشرت انتشارا واسعا في عهد المخلوع، وكتاب آخر بأن يقتل القاتل بالشرع لا غير بعد أن أصبح الثأر سائدا بلا ضابط ولا رابط ولا بحكم الشرع ولا القضاء، فاستجاب السلطان للشيخ فورا وطلب كاتب السر لكتابة المراسيم السلطانية بذلك.

ثم عادا إلى المجلس ويد الشيخ في يد السلطان، فجلس السلطان وعن يمينه ابن جماعة قاضي مصر، وعن يساره ابن الخليلي الوزير، وتحته ابن صصرى، وجلس الشيخ تقيّ الدين بين يدي السلطان على طرف طراحته، وبعد ساعة من تبادل الكلام والأحاديث طُرح موضوع لباس النصارى للمشورة، وتكلم الوزير ابن الخليلي في إعادة أهل الذمة إلى لبس العمائم البيض كالمسلمين، وأنهم قد التزموا لخزانة السلطنة بسبعمائة ألف درهم في كل سنة، زيادة على الحالية، وكان في الحضور قضاة مصر والشام وكبار العلماء من البلدين من جملتهم ابن الزملكاني ولم يتكلم منهم أحد، فقال لهم السلطان:

- ما تقولون؟

يستفتيهم في ذلك، فلم يتكلم أحد.

تردد الشيخ في الكلام، فلم يمض على خروجه من السجن يومين، وقد أكرمه السلطان أيَّمَا إكرام واستجاب لكل مطالبه، يحدث نفسه: اسكت يا تقيّ الدين مالك وللنصارى الآن، أرح نفسك قليلا ودع غيرك يتكلم، وانظر إلى الأمر من باب المصالح والمفاسد ففي المصالح المرسلة سعة.

لكنه كعادته لا يستطيع وتتملكه حدته المعروفة، ويعتريه غضبه المعهود، وتغيب عن ذهنه صورة منازل الناس وتتصاغر هيبتهم أمام موقفه بين يدي الله إذا سأله عن سكوته.

انتظر الشيخ قليلا فلمّا لم يتحدث أحد جثا على ركبتيه أمام السلطان، فتهامس بعض العارفين بالشيخ «إنْ جثا الشيخ على ركبتيه فذلك يعني أنه سيتكلم مع السلطان بكلام غليظ له تداعيات عظيمة فقدّم لذلك بالجثو والاحترام للسلطان»، وبعد فترة من الصمت لم تطل بسط لسان فمه، ومدَّ عنان كلمه، ورد على الوزير ابن الخليلي ما قاله ردا عنيفا، وجعل يرفع صوته والسلطان يتلافاه ويسكته بترفق المحب وتؤدة الحليم وتوقير العلماء. وبالغ الشيخ في الكلام، وقال ما لا يستطيع أحد أن يقول بمثله، ولا بقريب منه، وبالغ في التشنيع على من يوافق في ذلك. وقال للسلطان: «حاشاك أن يكون أول مجلس جلسته في أبّهة الملك تنصر فيه أهل الذمة لأجل حطام الدنيا الفانية، فاذكر نعمة الله عليك إذ رد ملكك إليك، وكبت عدوك ونصرك على أعدائك».

كان السلطان أعلم بالشيخ من جميع القضاة والفقهاء،

قاتل معه في مرج الصّفّر ورأى بأم عينه دينه ومكانته وقيامه بالحق وشجاعته، فأقر السلطان رأي الشيخ وأمر باستمرار تميز لباس النصارى كما كان. فقال الناس: ما أشبه كلام الشيخ تقيّ الدين بالتبر الخالص المصفى.

وانفض مجلس السلطان على ذلك.

(25)

الجاشنكير

القاهرة (709) هجري

كان للفراغ الذي تركه الصراع على السلطة في دولة المماليك تداعيات ما زالت تطرق باب السلطان الناصر تلح عليه الأخذ بزمام الأمور بالسرعة الممكنة وضبط الأمور دون تأخير أو تلكّؤ، كان من أفظعها ما وقع بين قيس ويمن من قتال في السويداء انتصرت فيها قيس وهربت يمن إلى دمشق بعد أن قُتل في هذه الوقعة ألف نفس، وهربت قيس خوفا من السلطان الذي هدد وتوعد كل من تسول له نفسه التمادي على السلطة وأخذَ حقّه بيده دون الرجوع إلى السلطان أو نوابه، وبقيت قُرى السويداء خالية وزروعُها سائبة مدة من الزمن حتى عادت للدولة هيبتها وعُوقب كلٌّ بفعله.

عزم السلطان على تأديب رؤوس من شاركوا بالفتنة التي ضربت البلاد وأهلكت العباد، فأرسل في طلب الجاشنكير بيبرس الذي فر من القاهرة في جماعة من أصحابه، فأدركه نائب دمشق الجديد الأمير سيف الدين قراسنقر المنصوري وهو متوجه إلى الشام، وأحاط به في غزة وهو في ثلاثمائة من أصحابه فتفرقوا عنه

وهربوا، فأمسكه الأمير قراسنقر ورجع معه إلى القاهرة على الهجن وسلمه للسلطان الناصر الذي ترفق معه في البداية وعاتبه ولامه فتطلعت نفس الجاشنكير إلى العفو وهو لا يدري أن السلطان ما أمّله ورفعه إلا ليسقطه من علوّ ويذله، فقال الجاشنكير:

- العفو يا مولاي السلطان.

فقلب له السلطان ظهر المجن وقال له:

- أين شيخك نصر المنبجي الذي أظهر في عهدك المشين شعائر المكاء والتصدية ومؤاخاة النساء والصبيان، أين هو ليشفع فيك يا بيبرس أم أنه تركك لمصيرك الأسود؟!
ها أخبرني أتُحب السمّ أم آمر بإحضار النطع؟

وضع بيبرس يديه اليمنى على حلقه واليسرى على رقبته يتحسس مكان السم وموضع القطع وقال مستعطفا:

- لا شيخ لي غيرك أيها السلطان.

يمسك السلطان ببنكام الرمل ويقلبه ويضعه أمام الجاشنكير فيبدأ الرمل بالنزول إلى الأسفل ويقترب من الجاشنكير ويمسك برأسه ويشده إليه ويضع عينيه بعينيه قائلا:

- هذه ساعة الرمل، إن أعطيتني سببا واحدا مقنعا كي لا أقتلك قبل فراغ رملها نجوت.

تتعالى أنفاس الجاشنكير ويخفق صدره خوفا، فيصيح السلطان بوجهه:

- لا تتنفس في وجهي وأنت تتكلم، فأنت كما عهدتك أبخر رائحة فمك كريهة، كنت تقترب مني وتهزأ بي وتصفني بالطفل الصغير وتظن نفسك من أصحاب المغازي والفتوحات فما رأيك الآن وقد دانت لي مصر والشام من جديد.

- العفو يا مولاي ... العفو.

- ما أنت إلا جاشنكير كنت مسؤولا عن مطبخ السلطان وطعامه فتطلعت نفسك الخبيثة لما لا يليق بأمثالك.

ينظر السلطان إلى البنكام ويقول:

- ذهب رُبعك يا بيبرس.

- إنها النفس الأمارة بالسوء والعفو من صفة الكرام وأنت الكريم ابن الكريم وأخو الكرماء.

- أتظن أنّ تشابه اسمك مع اسم السلطان الظاهر بيبرس البندقداري رحمه الله يعني أنك أصبحت مثله، لقد كان الملك الظاهر شهما شجاعا عالي الهمة بعيد الغور مِقداما جَسورا مُعتنيا بأمر السلطنة، يشفق على الإسلام، متحلّيا بالملك، له قصد صالح في نصرة الإسلام وأهله، وإقامة شعار الملك أمضى شطر عمره فوق ظهور الجياد وأنت أمضيته في المطبخ.

تنتقل نظرات الجاشنكير بين بنكام الرمل وبين السلطان:

- صدقت يا مولاي.
- وماذا فتحت أنت من بلاد حتى تطمع بالملك، لقد استمر حكم الظاهر بيبرس البندقداري ما يقارب سبعة عشر عاما، ففتح في هذه المدة قيسارية، وأرسون ويافا، والشقيف، وإنطاكية، وبعراس، وطبرية، والقصير، وحصن الأكراد، وحصن عكار، والغرين، وصافينا وغير ذلك من الحصون التي يطول ذكرها. أم أنك لا تعلم ذلك لأنك كنت تتعلم في صغرك فنون الطبخ لا التاريخ وسياسة الحكم.
- أنا أحقر من ذلك يا مولاي، أنا مملوكَ يا سيدي.

ينظر الجاشنكير إلى البنكام مرعوبا وقد وصل الرمل فيه إلى المنتصف، فينظر إليه السلطان نظرة تشفي ويقول:

- ذهب نصفك يا بيبرس، وسأخبرك في النصف الآخر منه ماذا فعلَ أيضا، لقد استرد من أيدي المتغلبين من المسلمين بعلبك، وبصرى، وصرخد، وحمص، وعجلون، والصلت، وتدمر، والرحبة، وتل باشر وغيرها، والكرك، والشوبك، وفتح بلاد النوبة بكمالها من بلاد السودان. هؤلاء المتغلبون الذين ظننت نفسك واحدا منهم.
- بل أنا متذوق طعام السلطان، هذه مكانتي وقدري أتشرف فيه بخدمة السلطان إن عفا عني.

- قدرك! وهل تطلعت نفسك أن تعود لخدمتي من جديد حتى تدس لي السم.
- معاذ الله يا مولاي، فأنا سأكل من طعامك وشرابك قبلك.

يضحك السلطان بصوت عال ويقول:

- سأنتزع أحشاءك كما انتزع الظاهر بيبرس بلادا من التتار كثيرة، كشيرزور، والبيرة، وسأوسعك ضربا قبل قتلك كما اتسعت مملكته من الفرات إلى أقصى بلاد النوبة، وسأفيض عليكما بالذهب أنت والأمير سيلار كما بنى الظاهر بيبرس دار الذهب بقلعة الجبل، وكما بنى قبة على اثني عشر عمودا ملونة مذهبة. فانتظر لترى كيف ذلك، وسأجعل منك صورة كما صور رحمه الله فيها صور خاصكيته وأشكالهم، وسأحفر بطنك كما حفر أنهارا كثيرة وخلجانات، أجبني أيها الجاشنكير ماذا فعلت أنت لتتسمى باسمه، أخبرني في الربع الباقي من عمرك يا بيبيرس، ماذا فعلت؟
- لم أفعل شيئا يا مولاي.
- كنت أنت وسيلار وابن مخلوف تجمعون الأموال ظلما وتبنون القصور وتكيدون بالشيخ تقيّ الدين ولم تُجدِّدوا شيئا من عمائر المسلمين، بينما الظاهر بيبرس جدد بالقدس قبة السلسلة، ورمم سقف الصخرة وغيرها. وبنى بالقدس خانا هائلا وأنا على أثره سائر أيها الجاشنكير في الجهاد وفي العمران. فاطلب طلبك

الأخير يا بيبرس فأنا قاتلك. ولا وقت لدي أمضيه معك أكثر من هذا.

ينظر بيبيرس إلى آخر حبات رمل تسقط في قاع البنكام ويحاول محاولته الأخيرة:

- أيها السلطان إن الظاهر بيبرس رحمه الله قتل المظفر قطز بالسم كما تعلم، ولعل الله يغفر له زلته هذه بما تأخر من أعماله التي ذكرت، فهلا غفرت لي زلتي بما قدّمتُ من جهاد في مرج الصّفّر.
- اخسأ فما أنت إلا عبد مملوك، وكان الأجدر بك أن تفعل ما يفعله العبيد في بلاد المُلتان ينحرون رقابهم في حب سلاطينهم يتوارثون ذلك أبا عن جد، ومع ذلك فأنت لم تقدم شيئا يشفع لك، وأنا منذ اليوم سيف مسلط على كل من تحدثه نفسه بالإمارة عوضا عن أن يرفع رأسه متطلعا إليها، هو عهد جديد يا بيبرس ستكون أنت فيه العبرة لمن توسوس له نفسه النظر إلى هذا.

ويشير بيده إلى كرسي الحكم. ثم ما لبث السلطان أن أرسله إلى زنازين السرداب تحت القلعة ثم قتله صبرا وأمر بدفنه بالقرافة.

***

اهتم السلطان بطلب الأمير سيلار، وأشاع بين الأمراء أنْ شتان بين سيلار وبيبرس، فالأمير سيلار من أبطال معركة مرج

الصّفّر، وأَمَّله إن حضر بنفسه ستعود المياه إلى مجاريها، فحضر هو بنفسه طمعا أن حضوره سيشفع له.

فكان أول ما فعله السلطان أن استخلص منه أمواله وحواصله في مدة شهر، فوجد معه من الذهب والفضة والأموال والجواهر ما لا يُحد ولا يُوصف، بالإضافة إلى الحيوان والأملاك والأسلحة والمماليك والبغال والحمير والرباع، أخذها من بيت مال المسلمين واحتفظ بها لنفسه، فحبسه السلطان مدة ثم استدعاه، فقال يرجو السلطان:

- لم أتآمر عليك يا مولانا فتلك من مكائد ابن مخلوف والجاشنكير.
- اكذب عليّ، واكذب على من حولك، ولكن لا تكذب على نفسك يا سيلار فأنت أعلم الناس بها، إنّما خالفتهما بسجن الشيخ تقيّ الدين لا بخلعي، وهل تظن أني غفرت لك أنّك حبستني بالقصر وجوّعتني.

حاول سيلار استعطاف السلطان، وذكره بأنّه أذن له الذهاب إلى الكرك، وأنّه كان مغلوبا على أمره مع الجاشنكير بيبرس والقاضي ابن مخلوف، فرد عليه السلطان:

- مغلوب على أمرك! وعندك كل هذا المال والجوهر، أن تأخذ ما تريد يا سيلار هو نهج العظماء فلا تبحث عن العزاء بالتسويات، كان الأولى بك قتلي لما أتيحت لك

الفرصة، حقق هدفك أو مت في سبيله، أما الذل والرجاء فليس من سمة النفس الشريفة ولا من عقل الرجل الحكيم، سبق السيف العذل.

أمر السلطان بأخذ سيلار إلى الجُب وتركه أسبوعا دون طعام، ثم أدخل له السجّان من كوة صغيرة ثلاثة أطباق مُغطاة، فسرّ لذلك وظنّ أن السلطان عفا عنه، ففتح الأول فوجده مليئا بالذهب، والثاني مليئا بالفضة والثالث به الجوهر والأحجار الكريمة، وأخبره السجّان أن السلطان يقول له: كل حتى تشبع يا سيلار، فمن أجل هذا التبر والوَرِق فعلت بالسلطان ما فعلت فَكُل واشرب جزاء وفاقا.

تعالت تأوّهات سيلار من فرط الجوع ثم ذَوَت مع الأيام ويبست شفتاه وخارت قواه فمات جوعا وعطشا، وَوُجِدَ بجانب مرقده في الجُب شطر نعل مأكول.

***

أرسل السلطان في طلب القاضي ابن مخلوف فحضر خائفا مرتعبا وقد أيقن أنه مقتول كشريكيه سيلار وبيبرس، فزبره السلطان زَبْرًا شديدا وقال له:

- لقد اقترح عليّ بعض خاصتي أن أحبسك في بيت أساسه من الملح ثم أُجري عليه الماء، فيذوب الملح ويقع عليك البيت فيقتلك، ويقول الناس قضاء وقدرا، ولا أتحمل جريرة ذلك أمامهم، ألا فاعلم يا ابن مخلوف لو أفتاني

الشيخ تقيّ الدين بقتلك لما أبقيت هذه الرأس الخبيث على هذا الجسد العفن ولم أخش فيك أحدا من الناس، لقد كذبت عليَّ وخدعتني في المرة الأولى وأَعْمَلْتَ عِلْمَك وفقهك إعمال بلعام بن باعوراء مع أسياده، فالعار عليك وعلى من رضي أن تكون له شيخا أو يكون لك تلميذا، ولكن إن كذبت عليّ ثانية فالعار عليّ.

يتصبب العرق من جبين ابن مخلوف ويحاول الاعتذار بقراءة قوله تعالى:

- وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا ...

فيسكته السلطان ويشير إلى الحرس بإخراجه ذليلا ويقول:

- صدق اللهُ وكَذبت ... اغْرب عن وجهي قبل أن أُغَيِّر رأيي، أو آمر بضربك مائة مقرعة على رأسك الذي أبقيته لك كرامة للشيخ تقيّ الدين.

(26)

مشهد الحسين

القاهرة (710) هجري

اختار الشيخ السكنى بالقرب من مشهد الحسين، فاكترى هناك دارا متواضعة وكان أول ما قام به إرسال كتاب لوالدته ست النعم قال فيه: «كتابي إليكم عن نعم من الله عظيمة، ومنن كريمة، وآلاء جسيمة نشكر الله عليها ونسأله المزيد من فضله. ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد وأياديه جلّت عن التعداد. وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد إنما هو لأمور ضرورية متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا. ولسنا والله مختارين للبعد عنكم، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم، ولكن الغائب عذره معه وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور فإنكم - ولله الحمد - ما تختارون الساعة إلا ذلك، ولم نعزم على المقام والاستيطان شهرا واحدا بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم وادعوا لنا بالخيرة فنسأل الله العظيم أن يخير لنا ولكم وللمسلمين ما فيه الخيرة في خير وعافية. ومع هذا فقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة والهداية والبركة ما لم يكن يخطر بالبال ولا يدور في الخيال، ونحن في كل وقت مهمومون بالسفر مستخيرون الله سبحانه وتعالى. فلا يظنّ

الظانّ أنا نؤثر على قربكم شيئا من أمور الدنيا قط. بل ولا نؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه. ولكن ثَمَّ أمور كبار نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها. والشاهد يرى ما لا يرى الغائب. والمطلوب كثرة الدعاء بالخيرة فإن الله يعلم ولا نعلم ويقدر ولا نقدر وهو علام الغيوب. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «من سعادة ابن آدم استخارته الله ورضاه بما يقسم الله له، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته الله وسخطه بما يقسم الله له» والتاجر يكون مسافرا فيخاف ضياع بعض ماله فيحتاج أن يقيم حتى يستوفيه وما نحن فيه أمر يجلّ عن الوصف ولا حول ولا قوة إلا بالله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»

وأرسل كتابا آخر إلى أهل دمشق جاء فيه «والحق كل ما له في علو وازدياد وانتصار، والباطل في انخفاض وسفول واضمحلال، وقد أذل الله رقاب الخصوم، وطلب أكابرهم من السلم من يطول وصفه، وقد اشترطنا عليهم من الشروط ما فيه عز الإسلام والسنة، وما فيه قمع الباطل والبدعة. وقد دخلوا تحت ذلك كله وامتنعنا من قبول ذلك منهم، حتى يظهر إلى الفعل، فلم نثق لهم بقول ولا عهد، ولم نجبهم إلى مطلوبهم حتى يصير المشروط معمولا، والمذكور مفعولا، ويظهر من عز الإسلام والسنة للخاصة والعامة ما يكون من الحسنات التي تمحو سيئاتهم».

أمضى الشيخ وقته بين كراسي الجوامع وحِلق المساجد يدرّس بها وبين دار الحكمة ينهل من معين كتبها ويدرس نادر

مخطوطاتها، والأمراء وأكابر الناس والعامة يترددون عليه، وفيهم من يعتذر عمّا بدر منه تجاهه في محنته فيحللهم الشيخ جميعا.

***

تتابعت كتب السلطان إلى الأقاليم تأمرهم برفع المظالم، وعادت إليه العيون بالأخبار التي لم تكن تأتي في البريد، فسجن مجموعة من الأمراء في قلعة الكرك تأديبا لهم، فمسك نائب صفد، ونائب غزة، ومسك نائب حلب، ونائب مصر، وأرسل عوضا عنهم من عَلِمَ ورأى مصير من لا يأخذ الكتاب بقوة.

وصل كتاب إلى الشيخ تقيّ الدين من بعض خاصّته في دمشق فاستأذن الدخول على السلطان مع أخيه شرف الدين فَأُذن لهما:

- السلام عليكم مولانا السلطان.
- وعليكما السلام ورحمة الله ما وراءك يا شيخنا الحبيب.
- وصلني كتاب من أهل دمشق يشكون نائب السلطان هناك فأحببت أن أقرأه عليك.
- تفضل يا تقيّ الدين فهذا مما يسرني، فأنا لا أكتفي بما يرسله النواب لي على البريد بل بثثت العيون تخبرني بما يخفيه النواب عني خوفا أو طمعا.
- يقول الكتاب: «قرر نائب دمشق على أهل دمشق ألفا وخمسمائة فارس لكل فارس خمسمائة درهم،

وحُصِّلت من الأملاك والأوقاف، فتألم الناس من ذلك تألما عظيما فسعى الناس إلى قاضي دمشق وخطيبها فاجتمعوا وأخرجوا معهم المصحف العثماني والأثر النبوي والسناجق الخليفية، ووقفوا في الموكب الأميري، فلما رآهم الأمير تغيظ عليهم وشتم القاضي والخطيب، وضرب الشيخ مجد الدين التونسي ورسم عليهم ثم أطلقهم بضمان وكفالة، فتألم الناس من ذلك كثيرا وضجّوا».

- هذا ظلم لا أرضى به.

طلب السلطان من الحاجب أن يحضر له كاتب السر وأخذ يُحدّثه ويملي عليه، فاقترب حارس من خاصكيّة السلطان من الشيخ وسلم عليه فقال له الشيخ:

- ألست تختلف إلى حلقتنا في الجامع.
- نعم يا سيدي.
- لست سيدا لأحد أيها الشاب أنا مجرد مُعلم، ما اسمك؟
- بل أنت شيخنا وسيدنا، أنا قطلوبغا من حرس السلطان الخاص، وعمّا قريب سأصبح أميرا فقد اجتزت كافة المراحل، واخترت لنفسي لقب الفخري، أريد أن استفتيك في مسألة لم أستطع أن أسألك عنها أمام السلطان ولا على الملأ في الجامع، ولم أستطع الانفراد بك إلا هنا فاعذرني يا شيخي.

ينظر الشيخ إليه ويتفحّصه بنظرة ثاقبة ويُعمل فيه فراسته ثم يقول:

- اخفض عنك يا فخريَّ الأيام القابلة إن شاء الله، تفضل سَلْ.
- هل يجب عليّ طاعة السلطان في كل وقت وعلى أي حال.
- بالمعروف فقط وإن أمرك بمعصية فلا تطعه.
- لكننا في عملنا لا نناقش السلطان في أوامره.
- لا تطعه في معصية الخالق ولو قطع رأسك.

يلتفت قطلوبغا ليتأكد أن السلطان ما زال مشغولا مع كاتب السر ثم يسأل الشيخ:

- سؤال آخر يا سيدي، هل يجوز لي التوسّل بالحسين، فتلك عادة كثير من القاهريين كما تعلم؟
- يكون التوسل بالرسول بالإيمان به، ومحبته وطاعته، والصلاة والسلام عليه، وبدعائه وشفاعته ونحو ذلك مما هو من أفعاله، وأفعال العباد المأمور بها في حقه، فهو مشروع باتفاق المسلمين، وكان الصحابة رضي الله عنهم يتوسلون به في حياته، وتوسلوا بعد موته بالعباس عمه رضي الله عنه، كما كانوا يتوسلون به، أما التوسل إن كان إقساما على الله بغيره فهذا لا يجوز، وكذلك السؤال بمجرد ذات الأنبياء والصالحين فهذا غير مشروع،

والتوسل بالحسين يقع تحت ذلك.

أملى السلطان على كاتب السر عزل نائب دمشق وحبسه في قلعة الكرك ثم عاد إلى الإيوان وسأل الشيخ:

- لقد وصلتني أخبار قبل قليل أن هناك جماعة بجامع مصر قد تعصّبوا عليك وتفردوا بك وضربوك.
- لم يحدث شيء ذو بال.

يتدخل شرف الدين مستأذنا من السلطان أن يتكلم فيأذن له:

- بل حدث يا مولانا السلطان لكن الشيخ تقيّ الدين يُهوّنُ الأمر.
- ها ... أخبرني إيش حدث يا شرف الدين؟
- لقد قال الشيخ في درسه الأخير عن مشهد الحسين: «وأما الحسين رضي الله عنه وعن سلفه ولعن قاتله فما حُمل رأسه إلى القاهرة، فإن القاهرة بناها الملك المعز في أوائل المائة الرابعة، والحسين عليه السلام قتل يوم عاشوراء سنة إحدى وستين ودفنت جثته حيث قتل، وبين مقتل الحسين وبين بناية القاهرة نحو مئتين وخمسين سنة فأين هذا من هذا، وما قبر الحسين هذا الذي تحلفون عنده الأيمان بشيء» فقام عليه جماعة من الناس بجامع مصر فدقوا عمامته وضربوه، وأُخبرت بذلك وكنت غائبا فبحثت عن الشيخ فوجدته بمسجد الفخر واجتمع عنده جماعة من الحسنيين الأشراف يقولون له لو أمرتنا لهدمنا لك مصر كلها، فقال لهم الشيخ: «لأي

شيء». قالوا: «لأجلك». فقال لهم: «هذا لا يجوز». قالوا: «فنحن نذهب إلى بيوت هؤلاء الذين آذوك ونخرّب دورهم فإنهم شوّشوا على الخلق وأثاروا هذه الفتنة على الناس» فرد عليهم: «هذا ما يحل». فأجابوا: « فهذا الذي فعلوه معك يحل؟ هذا شيء لا نصبر عليه ولا بد أن نروح إليهم ونقاتلهم على ما فعلوا» والشيخ ينهاهم ويزجرهم ثم قال لهم: «إما أن يكون الحق لي أو لكم أو لله، فإن كان الحق لي فهم في حلّ منه، وإن كان لكم؛ فإن لم تسمعوا مني ولا تستفتوني فافعلوا ما شئتم، وإن كان الحق لله فالله يأخذ حقه كما يشاء إن شاء.»

يلتفت السلطان إلى الشيخ ويقول له بتودد وحب:

- لو أخبرتنا يا شيخ لجعلتهم عبرة لمن يعتبر.
- لا حاجة لي بهذا أيها السلطان.
- أخبرني يا شيخنا فقد حدثتني الست حدق مربيتي نقلا عن أحد أقاربها أن أباه قال له أن هذا المشهد بناه بنو عبيد الفاطميون وأن رأس الحسين ما جاء إلى الديار المصرية، لكن حدثت له حادثة وهو صغير إذ كان يجري فوق سطح المشهد ولا يُعظّمه لما قال له والده، فبينما هو نائم رأى عجوزا زرقاء العينين شمطاء الرأس ومعها قيد فحطته في رجله وقالت له: تتوب ولا تعود تجري فوق سطح المشهد فقال: التوبة التوبة ما بقيت أعود فقعد وهو مرعوب، فما رأيك.

- هذا حجة لي على صحة ما أقول، فإن هذه شيطانة هذا الموضع، وهي التي تزينه للناس وهذا ما حدث مع خالد بن الوليد لما بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم بقطع العُزَّى، فقال له: «لما قطعت العزى أي شيء رأيت خرج؟ فقال: خرجت منها عجوز شمطاء هاربة نحو اليمن، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: تلك شيطانة العزى.» فإن استطعت تحطيم مشهد الحسين وأنت السلطان فحطّمه، فالله سائلك عنه، وسيكون فعلك في الناس أبلغ واعظ وزاجر وأحمد ناه وآمر.

يضع السلطان يده على سرير الحكم ويقول بصوت خفيض حتى لا يسمعه الشيخ: مشهد الحسين أثبت في قلوب الناس منك. يقصد كرسي الحكم.

يكمل الشيخ كلامه:

- إن أذن لي السلطان فعندي طلب.
- اطلب ما شئت يا شيخنا، وإن حدّثتك نفسك العودة عن رفضك لعرضي السابق بالزواج أو اتخاذ الجواري فأنا على أتم الاستعداد ...

يضحك السلطان ويضحك معه الأخوان ثم يطلب منه الشيخ السماح له بالتردد على مكتبة قلعة الجبل لما فيها من كتب نفيسة ومخطوطات نادرة وقيمة، فأعطاه السلطان فرمانا مفتوحا

يدخل فيه أي مكان في الدولة متى شاء وكيفما شاء.

***

بعد عشرة أيام قرئ كتاب السلطان بعزل نائب دمشق على السدة بحضرة النائب الجديد والقضاة والأعيان، وفيه الأمر بالإحسان إلى الرعيّة وإطلاق البواقي التي كانت قد فرضت عليهم أيام الأمير المعزول، ثم ركب نائب السلطنة الجديد إلى أبواب السجون بنفسه فأطلق المحبوسين بأمر السلطان، فتضاعفت الأدعية للشيخ والسلطان في الأسواق والمساجد وفرح الناس بذلك.

(27)

القدس

القدس (712) هجري

كان للزلزال الذي ضرب خانيّة مغول فارس بعد معركة مرج الصّفّر تداعيات مستمرة، فبعد موت قازان هما وكمدا تحوّلت الدولة من مذهب قازان الذي كان يظهر الإسلام ويبطن اختلاط الأديان إلى دين الرافضة الذي تبناه سلطان التتار الجديد خربندا (خادم الحمار) بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولو بن جنكيز خان، وتسمى بالسلطان غيّاث الدين، ملك العراق وخراسان وعراق العجم والروم وأذربيجان والبلاد الأرمينية وديار بكر، وغير اسمه من خربندا إلى خدابندا، ومشى ذلك بمماليكِه، وهَدَّد من قال غيره، ولم يُفِدْه ذلك إلَّا من حواشيه خاصّة، بينما العوام من رعيته يتندرون باسمه ويستهزِئُون.

نشر خربندا التشيع في بلاد المسلمين الخاضعة له، وأمر الخطباء أن لا يذكروا في خطبتهم إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأهل بيته، وأن يُنادى بالأذان بعلي ولي الله، وبحيَّ على خير العمل، وقرّب إليه رؤوس الرافضة وجعلهم وزراءه وخاصّته،

فأبقى رشيد الدين الهمذاني الوزير الأول للخانيّة، وعينَّ تاج الدين الآوي وغيره من رؤوس الرفض في مراتب كبيرة.

كان خربندا قد عزم على تجريد ثلاثة آلاف فارس إلى المدينةِ النبوية لينقُلَ ضَجِيعَي قبر الرسول، أبا بكر وعمر رضي الله عنهما من مَدفَنِهما، لكن بعد أن يحقق ما ورثه عن قازان من حلم هولاكو باحتلال الشام ومصر، فحشد جيشه مع وزيره رشيد الدين الهمذاني وعبر الفرات وحاصر الرحبة عشرين يوما فقاتلهم نائبها خمسة أيام قتالا عظيما، وأرسل يستصرخ السلطان الناصر يطلب النجدة.

ظنَّ الناس أن التتار قبل مرج الصّفّر كما بعدها، فأجلى أهل حلب وحماة وحمص بلادهم، وقنت الناس وخافوا، ولم يعلموا أن الزلزال أتى بنيان خانيّة مغول فارس من قواعده فَخَرَّ عليهم السقف من فوقهم أو يكاد، وما تهديدات خربندا وتحركاته إلا كمنازع الموت يخبط ساقا بساق.

وصلت الأخبار إلى الإيوان اليوسفي فأمر السلطان بالتحرك فورا وأرسل في طلب الشيخ تقيّ الدين، فحضر من فوره فقال له:

- يا شيخنا الحبيب وصلني بريد دمشق اليوم بكتاب من نائب الرحبة يخبرني بخروج ملك التتار خربندا بجيشه قاصدا الرحبة.
- أفعلها خادم الحمار الرافضي؟
- نعم فعلها، وقد أمرت بتجريد العساكر وسأخرج إليه

بنفسي فأحببت أن ترافقني لنعيد كرة الشيخ والسلطان في مرج الصّفّر عليهم ثانية، وأن تكونَ معنا هذه المرة تحت لواء العساكر المصرية لا الشامية، فقد أصبحت يا تقيّ الدين من أهل مصر بعد أن سكنتها ثمانيَ سنوات لا من أهل الشام. وقد أمرت نائب دمشق بالتحرك فورا لنجدة الرحبة ونحن على أثره.

- أنعم بأمّ الدنيا مصر وأنعم بأهلها كرام بررة.
- ها ... إيش رأيك؟
- بالطبع يا مولاي السلطان، فلا مفر لنا من تلبية داعي الجهاد ولكن ...
- ولكن ماذا أيها الشيخ.
- سأخرج معك إلى الرحبة، ولكني سأرجع إنْ أحيانا الله بعد المعركة إلى دمشق لا إلى القاهرة.
- أفرحتني وأحزنتني يا شيخنا، وهل نستغني عن قربك ومشورتك وصحبتك؟
- لا غني لي عنكم يا مولانا، لكن لأمي ست النعم حقا عليّ وقد طال غيابي عنها.
- على بركة الله أيها الشيخ فلن أمنعك عنها، اذهب وتجهز فقد يخرج الجيش في أي وقت.

وصلت الأخبار إلى الشام بخروج الشيخ والسلطان، فسكنت النفوس ودقت البشائر وتركت الأئمة القنوت، وما إن سمع خربندا بخروج السلطان ووصوله إلى غزة حتى تَعَذَّر بقلة العلف وفر هاربا عائدا إلى عاصمته تبريز.

اقترب السلطان بخيله من الشيخ تقيّ الدين وزهوّ النصر يعلو مُحياه وقال:

- نُصرنا بالرعب مسيرة شهر أيها الشيخ.
- إنما النصر من عند الله أيها السلطان.
- له الفضل والمنّة وحده.
- الحمد لله لقد كانت معركة مرج الصّفّر قاصمتهم النهائية.
- ولن تقوم لهم قائمة بعدها إن شاء الله فاليوم نغزوهم ولا يغزوننا.
- وعلى ماذا عزم السلطان؟
- سأسير بالجيش إلى دمشق، وستجوب عساكري مدن الشام حتى يعلم التتار أن لا هوادة عندنا في حفظ مملكتنا وبلادنا.
- نعم القرار، ولكن إن سمح لي السلطان سأفارقك هنا في غزة.
- إن كنت تزهد في رفقتنا فإنّا لا نزهد.
- لا غنى لي عن الرفقة الحسنة، ولكن أردت زيارة بعض المدن في فلسطين والأردن ثم أعود إلى مهاجر إبراهيم عليه السلام دمشق، فقد مضى من العمر أكثره، وأخشى ألّا أتمكن من ذلك إن لم أفعله الآن.

ينزل السلطان عن فرسه فيسرع الشيخ بالنزول ويتعانقان عناق الوداع والفراق، سيفارق الشيخ سلطانه مفارقة السهم للرمية

وفراق الغاية والمهمة، وسيفارق السلطان شيخه فراق الولد لوالده، فأمام الشيخ ملّة يجدّدها، وأمام السلطان دولة يُعمّرها.

لم يكن للشيخ حاجة في زيارة مدن فلسطين والأردن إلا القدس يشد رحاله إليها، إنما كانت غايته أن لا يدخل دمشق مع السلطان في أبّهة الملك، فهو في نفسه أقل من المكانة التي وضعها الناس فيها، ودخوله إلى دمشق بعد غياب ثماني سنوات بما فيها من محنة وسجن وحرية وقرب من السلطان سيرفعه فوق ما يريد، ويضعه بمنزلة لم يسع إليها، عافتها نفسه وزهدت بها جوارحه، كان قلبه أرقّ ونفسه أضعف من أن تفتنهما الشهرة، فأراد بجولته في فلسطين والأردن أن يصفو مع نفسه بعيدا عن السلطان، وأن يجدّد نيته ليدخل دمشق بعد ذلك خفية دون معرفة أهلها.

اشتاق الشيخ إلى حضن أمه ست النعم فلا زوجة له يُفضي إليها ما اعتمل في قلبه وتُفضي إليه، فرغم ما توحي به هيئته الطاغية بالقوة والرجولة إلا أنّ بداخله طفلا صغيرا يبحث عمّن يبث إليه همه ويشكو إليه حزنه، وضعته الحوادث في موقف القوي المتماسك صيانة لجناب العلم وحفظا للدين، فلم يضعف في السجن والحرب، كما إنه لم يضعف عندما عُرض على السيف أربع عشرة مرة وحُوكِم ظلما أمام الملأ. بِرُّهُ بأمه منعه أنْ يخبرها بما في نفسه من ضعف وما في قلبه من خوف، هي لم تصمد طوال سنوات عمره الخمسين إلا بصموده، ولم تتماسك إلا بتماسكه، فكان ثباته ثباتها، وقوة أزره شَدُّ أزرها على ما بها من قلق وتهوّع، وفي المقابل

كانا يدركان أنّ جلوس الابن بين يدي أمه يبثّها همومه وأحزانه يُفرحها من طرف آخر، إذ يؤجّج فيها عاطفة الأمومة فتحضن ابنها وتضمه إلى صدرها ضمّة تنسيه وتنسيها همومهما، وهما أحوج ما يكونان إلى ذلك الآن، لكن أحدا منهما لم يقترب من هذا الحد الرقيق بين الإمساك وما فيه من ألم وبين المكاشفات وما فيها من ضعف.

ينازع الطفلُ الذي بداخل الشيخ نفسَه العودة إلى حضن أمه، لكن عزمه على الابتعاد عن شؤون الدولة ومغرياتها التي ما زالت تلحّ عليه بعروض السلطان المتتابعة كانت أقوى، فدخل القدس مُتباطئا مع أخويه شرف الدين عبد الله وزين الدين عبد الرحمن، حتى يعود إلى دمشق وقد غادرها السلطان عائدا إلى القاهرة.

دخلوا القدس فرأوا مسجدا عجيبا رائقا فائق الجمال فقال الشيخ لأخويه:

- يقال إنّه ليس على وجه الأرض مسجدٌ أكبر منه.

ينادي شرف الدين على أحد المصلين بلطف ويعرّفه بأنفسهم ويطلب منه أن يشرح لهم عن عمارة المسجد وساحاته، فيرد المقدسي فرحا مسرورا:

- السلام عليكم وعلى الشيخ تقيّ الدين هذا شرف لي أن ألتقي بك.

ينظر إلى الشيخ بفضول وتمعن مستحضرا سيرة سارت بها الركبان أدخلت إليه السعادة أنْ كان ممّن شَرُف بمقابلة الشيخ، ثم التفت إلى بعض المصلين يريد أن يناديهم لرؤية الشيخ، فيمسك الشيخ بيده برفق ويقول له:

- ابقِ الأمر بيننا يا أخي، فإنّا في غنى عن ذلك، وأخبرنا عن المسجد.

- كما تحب شيخنا.

يمشى معهم في جنبات المسجد وساحاته يُبطئ الخطى ليحظى بوقت أطول مع الشيخ ويقول:

- هذه الساحة هي المسجد الأقصى، طولها من شرقٍ إلى غربٍ سبعمائة واثنان وخمسون ذراعاً وعرضها من القبلة إلى الجوف أربعمائة وخمسة وثلاثون ذراعاً، والمسجد القبلي هو هذا المسقوف له أبواب كثيرة في جهاته الثلاث، وأمّا الجهة القبلية فلها باب واحد، وهو الذي يدخل منه الإمام، والأقصى كلّه فضاءٌ وغير مسقّف إلا قبة الصخرة والمسجد القبلي فهو مسقّف في النهاية من إحكام الفعل وإتقان الصنعة، مموّهٌ بالذهب والأصبغة الرائقة.

ثم ينتقل بهم إلى قبة الصخرة:

- وهذه قبة الصخرة وهي من أعجب المباني وأتقنها

وأغربها شكلاً يُصعد إليها في درج رخام ولها أربعة أبواب وهي مفروضة بالرخام محكم الصنعة وقبتها تلمع لمعان البرق إن حطت عليها الشمس صباحا، يحار بصر متأمّلها في محاسنها، ...

يستكمل كلامه، والأشقاء الثلاثة يتأمّلونها فإذا هي قد أخذت من كلّ بديعةٍ بطرف، وفي ظاهرها وباطنها من أنواع الذواقة ورائق الصنعة ما يعجز الواصف، وأكثر ذلك مغشّى بالذهب فهي تتلألأ أنواراً، ويقول:

- ومِنْ على هذه الصخرة التي تقع تحت القبة عرج سيدنا محمد إلى السماء.
- والله إنّه يقصر لسان رائيها عن تمثيلها ووصفها. قال شرف الدين.
- وهي صخرة صمّاء ارتفاعها قدر قامة كما ترون، وتحتها مغارة مقدار بيت صغير، ارتفاعها نحو قامة أيضاً.
- لننزل إليها. قال زين الدين.

ينزلون إليها على درج فيجدون الصخرة وكأنها معلقة في الهواء فيقول دليلهم المقدسي:

- وهي كما ترون معلقة بالهواء بلا عمد، فقد تبعت الرسول صلى الله عليه وسلم لما عرج إلى السماء.

يتدخل الشيخ تقيّ الدين:

- دعك أيها الأخ من هذه الخرافات، الصخرة متصلة بين الطابقين بجزء من مغارة في جبل أخفاه البناء.
- عذرا شيخنا هذا ما يتداوله أهل بيت المقدّس.
- أعمل عقلك يا أخي فلو نقبت الطابق العلوي من جهة ملاصقة الصخرة للجبل لوجدت ذلك ولم يرد في السنة أن الصخرة تبعت الرسول فأمسكتها الملائكة، وكل ما ورد في فضائلها فهو موضوع.

يعودون للطابق العلوي فيتفقد زين الدين الصخرة ويتأكد مما قاله الشيخ تقيّ الدين، ويكمل المقدسي كلامه:

- وفي القبة هنا درقة كبيرة من حديد معلقة هنالك، والناس يزعمون أنّها درقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

ثم ينظر إلى الشيخ تقيّ الدين وكأنه ينتظر إجازته لما قال. فيرد الشيخ:

- هذه لا بأس بها يا أخي، فالشرع والعقل يحتملانها.

ينهي المقدسي جولانه مع الأشقاء الثلاثة في المسجد الأقصى ثم يقترح قائلا:

- إن أحببتم أريتكم القناة التي أمر السلطان الناصر ببنائها لجرّ الماء من عين بلد الخليل إلى القدس.

فيقول شرف الدين العارف باهتمامات أخيه:

- دعنا من السلطان ومشاريعه، فقد قدمنا من القاهرة والعمل فيها جارٍ على إنشاء القصر الأبلق الذي يُحاكي فيه السلطان الناصر قصر الظاهر بيبرس البندقداري الأبلق في دمشق، فمشاريع السلطان أكثر من أن يُحاط بها.

انطلق الشيخ من القدس برفقة أخويه شرف الدين وزين الدين وجماعة من أصحابه، فزار عجلون وبلاد السواد وزرع، وتعمد ألا يدخل دمشق إلا وقد غادرها السلطان عائدا إلى مصر، لكنه تفاجأ أنّ السلطان سيطول مكثه فيها لأنّه عزم على الحج.

***

قدمت العساكر المصرية إلى دمشق أرسالا وعلى مقدمتها أمير البر، وكان قدوم السلطان ودخوله دمشق في شوال وقد عزم على الحج في هذا العام، احتفل الناس لدخوله ونزل القلعة وزينت البلد ودقت البشائر، ثم انتقل بعد ذلك إلى القصر الأبلق وتنقل بين غرفه وقاعاته وساحاته كلها، لم يترك فيه مفحص قطاة إلا ودقق النظر فيه وبين يديه شادُّ العمائر يُدَوِّن ملاحظاته التي سيستفيد منها في بناء قصر القاهرة الأبلق، ثم صلى الجمعة بالجامع بالمقصورة، وخلع على الخطيب. وجلس في دار العدل يوم الاثنين وقدم وزيره أمين الملك بعد ذلك من القاهرة، وفرَّق العساكر والجيوش بالشام ليعلم أهلها أنهم في أمان السلطان ورعايته وأن لا خوف بعد اليوم من التتار، وتجهّز هو برفقة أربعين من أمرائه إلى الحج، فاستبشر الناس بسيرة السلطان التي ستكون ما بين غزو وحج يجدد بذلك سيرة الخلفاء العظماء.

(28)

ابـن القيّم

دمشق (712) هجري

يوم دافئ لطيف هواؤه، هبت نسائمه عليلة على دمشق، جرت فيه مياه نهر بردى صافية يُرى ما تحتها من أحجار ملساء حَتّها الزمان فغدت رقيقة ناعمة، غرَّدت فيه الطيور بألوانها الزاهية في البساتين والغوطات، ينتقل فيه النحل من زهرة إلى أخرى يرشف منها ما لذ وطاب من رحيق سينعَمُ به أهلها عسلا مُصفًّى يشربه الدمشقيّون ممزوجا بحليب الماعز الشامي الدافئ، يأكلون معه حبات تين مباركة، دار بها القَطَّافون في أزقة وشوارع المدينة يبيعونها مقابل دراهم معدودات يشترون بها لأولادهم ثيابا حاكها حائكون مهرة استبدلوا أثمانها بقراطيس وأقلام يذهب بها أولادهم إلى الكتاتيب والمدارس، يدرسون فيها على شيوخ ذاع صيتهم في البلاد، خرجوا زرافات ووحدانا يتلقّون من لم تنجب الأمة مثله منذ الإمام ابن حزم الظاهري أو منذ أكثر من أربعمائة سنة.

دخل الشيخ دمشق يوم الأربعاء الأول من ذي القعدة عازما على إشغال نفسه حتى لا يذهب لوداع السلطان الذي سيغادر إلى

الحج في اليوم التالي، لكنه تفاجأ أن أخبار عودته إلى دمشق قد سبقته، فزُينت له البلد وخرج خلق كثير لتلقيه، وسروا بقدومه وعافيته ورؤيته، واستبشروا به حتى خرج خلق كبير من النساء والأطفال لرؤيته، كان استقبال العامة له لا يقل عن استقبالهم للسلطان إلا أن استقباله كان عفويا صادقا ازدحمت فيه الطرقات والأزقة. سار بها متوجها إلى بيته بالقصاعين، لم يكن احتفال الناس به بمراسم من الدولة ولا بفرمان من نائب دمشق ولا بتحضيرات من الأكابر والأعيان، إنما كان بما وقر في قلوب الناس من حب الشيخ.

دمعت عينه فرحا وخوفا، فرحا بحب الناس له وخوفا من الفتنة، حدّث نفسه بالهروب والولوج في الأزقة الخلفية للطرقات التي حفظها عن ظهر قلب يوم وصل دمشق مع أبيه فارا من التتار قبل خمس وأربعين سنة، يوم كان عظمه أرق ونيته أصدق، ليته مات يوم تصدى للتتار على أبواب حرَّان أول مرة ولم يفتن بهذه الفتنة التي يتراقص فيها إبليس أمامه يراوده عن نفسه «افتخر يا شيخ الإسلام، افتخر يا هازم التتار، الغالب لخصومه، المنكل بأعدائه، افتخر فقد أصبحت من خاصة السلطان وأحبته، افتخر يا صاحب المصنفات والدروس افتخر يا ...»

كان شرف الدين أخبر الناس بأخيه فلاحظ اضطراب جوارحه فعلم ما يدور بخلده وأدرك حواره الجوَّاني مع نفسه، وخاف أن ينعطف هاربا بأي لحظة إلى زقاق جانبي، فانحنى عليه وأسرّ بأذنه:

- اصبر يا تقيّ الدين لقد شارفنا على الوصول.

يرد عليه الشيخ والعبرات تخنقه:

- لم أطلب هذا ولم أُرِدْهُ، بل قصدت ضدّهُ.
- قدّر الله وما شاء فعل يا تقيّ الدين.
- والله لقد مكنوا الشيطان مني يا شرف الدين.
- بل تُعينك على الشيطان، فهذه الحشود تشهد لك أنك على خير.
- هذه ليست شهادة لي بل شهادة عليَّ.
- استعذ بالله ولا تخش غيره، فسيحفظك في هذه كما حفظك من غيرها في السجن وخارجه.
- بل السجن أيسر وأسهل يا شرف الدين، السجن أحب إليّ.. السجن أحب إليّ.. اصرف عني الناس أرجوك يا شرف الدين.

يمسك شرف الدين بيده خوفا من فراره هاربا ويقول له:

- وأيهم سأصرف يا تقيّ الدين، من هم في الطرقات قد سدوها، أم من هم فوق الأسطح اعتلوها، أم من هم على النوافذ حجبوها أم من تجمع في الساحات والجوامع ملؤُوها ...

اقتربوا من البيت فخف الزحام وابتعدوا عن الناس فخلوا

بأنفسهم، توقف الشيخ بشكل مُفاجئ وكأنّ أحدا يُسارّه، فقال لشرف الدين:

- هل معك مال؟
- نعم.
- تعال معي.

تركا زين الدين وابتعدا عن طريق البيت وسار الشيخ في زقاق لم يسلكه من قبل وأخذ صرة الدراهم من أخيه وطلب منه انتظاره في بداية درب لم يسبق لهما المرور فيه وتقدم الشيخ، وأخوه يراقبه من بعيد فالتقى الشيخ برجل غريب، أعطاه صرة الدراهم وتركه وعاد، فدفع الفضول شرف الدين ليستقصي أمر الرجل، فذهب إليه فرآه واقفا مذهولا حائرا كأن على رأسه الطير فسلم عليه وقال:

- ما لي أراك مذهولا؟
- من هذا الشيخ الذي أعطاني صرّة الدراهم هذه ومشى مُبتعدا؟
- ألم تعرفه! هذا الشيخ تقيّ الدين ابن تيمية.

ضرب الرجل على رأسه ولطم خديه من هول ما سمع وقال:

- الله لا إله إلا هو، أهو الشيخ ابن تيمية بعينه؟
- هُوَ هُوَ أيها الغريب، ما قصتك؟
- أنا المقرئ أحمد بن الحريمي من العراق قصدت دمشق بنية الالتقاء بالشيخ ابن تيمية لمّا سمعت أنه سيعود من

مصر مع السلطان لرد التتار عن الرحبة، وصلت اليوم وقد أنفقت كل ما معي من مال في الطريق، ولم يعد معي أي درهم فسرتُ هائما على وجهي في الأزقة حائرا لا أدري ما يفعل الله بي، في بلد لا أعرف فيها أحدا، فإذا بهذا الشيخ يقبل نحوي مسرعا فسلّم عليّ وهشّ في وجهي ووضع في يدي صرّة الدراهم هذه وقال لي: «أنفق هذه الآن فيما أنت فيه، فإن الله لا يضيعك» ثم عاد من حيث جاء وكأنه لم يأت إلا من أجلي.

يعود شرف الدين الذي اعتاد على مثل هذه الحوادث ويلحق بأخيه ويلتقيا بزين الدين الذي كان بانتظارهما، فيكملوا الطريق إلى بيتهم ويدخلوه بعد غياب ثماني سنوات، ينكبّ الشيخ على قدمي والدته ست النعم يقبلهما، قدماها اللتان لم تسعفاها بالخروج إلى باب النصر لاستقبال ابنها الغائب، فقد وهن العظم منها واشتعل رأسها شيبا، يعانقها فتبلل عيناه وعيناها لحيته المستديرة فتقطر فرحا على صدرها الملتهب فتبرد نار شوقها وتلهفها وتسكن جوارحها فيسكن بسكونها الشيخ ويخبت.

***

استقر المقام بالشيخ في دمشق فلازم الناس في المساجد يُدرسهم في الجامع الأموي سائر العلوم والفنون التي أصبح حظه منها وافرا، ينشر العلم ويصنف الكتب ويفتي للناس ويجيب عن المسائل التي ترده من كافة مدن الشام وبلاد الترك والروم، يفتي بما

يوافق أئمة المذاهب الأربعة في بعضها ويخالفهم في بعضها بما أدى إليه اجتهاده.

انتبه الشيخ إلى فتى صغير يتأمل وجهه ويتبعه بعد أن غادر سوق الدقاقين الذي ذهب إليه ليصلح لوالدته بعضا من أواني البيت، فقال له:

- من أنت أيها الغلام؟
- أنا إسماعيل بن كثير.
- ولماذا تقفز أمامي كالقرد وتتأملني؟
- لقد سألني القاضي صدر الدين الحنفي قبل ثلاث سنوات: أتحب ابن تيمية؟ فقلت: نعم، فقال لي وهو يضحك: «والله لقد أحببت شيئا مليحا». فأردت أن أتأكد من قوله.

يضحك الشيخ ويقول:

- وماذا وجدت يا ابن كثير؟
- وجدت شيئا مليحا.
- ذلك الذي وجدته هو العلم أيها الغلام فالزمه لتكون أنت مليحا كذلك.
- طلبت مني أمي أن ألزمك.
- وكم مضى من عمرك؟
- ثلاثة عشر عاما وأريد أن ...

يُلقي عليهما السلام شاب بالعشرين من عمره يمسك بيده

مخلاة فيها كتب ويضع على رأسه عمامة لها ذؤابة، يقطع حوارهما فيرد عليه الشيخ متأملا في وجهه:

- وعليكم السلام ورحمة الله، وجهك ليس بغريب أيها الشاب.
- أنا أحضر دروسك وأتتبع خطاك وألزم أثرك.
- ما اسمك؟
- شمس الدين محمد بن أبي بكر.
- وأين تسكن؟
- أسكن وسط دمشق بجانب المدرسة الجوزيّة.

يفرح الشيخ بذكر اسم المدرسة ويقول:

- المدرسة الجوزيّة ثاني أكبر المدارس في الشام بعد المدرسة العمرية.

تنفرج أسارير الشاب، وكأنَّ فَرَح الشيخ بقربه من المدرسة الجوزيّة، شهادة عبور له ليكون تلميذا عنده ومرافقا له، فيستتبع:

- ووالدي هو قَيّم المدرسة.
- ما شاء الله، إذاً أنت شمس الدين محمد ابن قيّم الجوزيّة.
- نعم أنا هو، فهل تأذن لي بمرافقتك؟

يلتفت الشيخ حوله وقد تذكر أن الفتى الصغير طلب منه مرافقته كذلك:

- أين ذهب العفريت؟
- أي عفريت يا شيخنا؟
- هذا الولد المتقد حماسا ونشاطا ترك أقرانه الأطفال يُشاهدون تمثيل المساخر ويستمعون إلى مسرح دمى الحكواتي في سوق الحميدية واتبعني، وطلب أن يلزمني كما طلبت أنت، لكنه اختفى.
- أنا أجده لك، ما اسمه؟
- اسمه اسماعيل بن كثير، اعذرني أيها الشاب فأنا على عجلة من أمري.

ينطلق الشيخ إلى القصاعين ليلتحق بأمه ست النعم التي أقعدها المرض، فلا يراه أحد في الطريق من أرباب المعايش إلا ويتخطى حانوته للسلام عليه، فيُعطي كلاً منهم نصيبا وافرا من السلام والكلام، وإذا رأى منكراً في طريقه أزاله بيده. وأثناء ذلك أخرج من كمه رغيفا اقتطعه من طعامه فأعطاه فقيرا يسأل، دخل داره وأوصى إخوانه الاعتذار من رسل السلطان الناصر إن جاءت تسأل عنه، وأنْ يخبروهم أنّ الشيخ مشغول مع أمه المريضة.

***

عاد السلطان من الحج في شهر محرم فدقت البشائر فرحا بسلامته ودخل دمشق وقد زينت وخرج الناس لتلقيه على العادة، فنزل بالقصر الأبلق وصلى الجمعة الأولى والتي تليها بمقصورة

الخطابة، وباشر النظر في الدواوين ونظر في البريد ولعب في الميدان بالكرة وهو في كل ذلك ينتظر قدوم الشيخ للسلام عليه وتهنئته بالحج، فلما طال انتظاره؛ سأل نائب دمشق الأمير سيف الدين تنكز:

- ما بال الشيخ لم يأتنا وقد جاءنا كل وجهاء البلد وأعيانها؟
- لم يَفُتْني ذلك يا مولاي السلطان، فبعثت من يأتيني بخبره، فأُخبرت أنه مشغول مع والدته المريضة، فربما ذلك كان مانعه من الحضور.
- كيف شَغَلَهُ ذلك، ودروسه ما زالت تُعقد في المساجد ودور الحديث، فهل بدر منا ما يغضبه؟
- حاشا السلطان، فقد أحسنت إليه وأكرمت.
- إذاً ما الأمر!!! لقد أحدث تخلفه عن لقائنا شيئا وجدته في نفسي، ولا أحب ذلك.
- أنت تعرفه يا مولاي هو رجل ملة كما يقول وليس رجل دولة، وهو لا يحب مجالس الحكم، وكم دعوته في غيبتك للحضور مع القضاة والفقهاء والشيوخ فلم يحضر.
- أخشى يا تنكز إن استمر هذا الحال أن تحدث بيننا وحشة، ولولا أني أنا السلطان لذهبت إلى بيته بنفسي.

يحوقل السلطان ثم يبسط أمام الأمير تنكز أوراقا مُخطّطة أعدّها له المهندسون:

- انظر أيها الأمير هذه رسوم أربعة مناجيق، واحدة لقلعة دمشق وثلاثة لقلعة الكرك، أريدك المباشرة في تصنيعها بعد أن تعود منصورا من ملطية وقد فتحتها.
- أمرك يا مولاي.
- واستعمل في بنائها أرباب الحرفة والصُنَّاع ممن شارك في بناء المنجنيق المنصوري، فقد أخبرني بعض الحرفيين في القاهرة أن في بناء المناجيق أسرارا لا يعرفها إلا أهل الخبرة والدراية، كتطويل ذراع المنجنيق ليصل إلى مسافات أطول، وأمور تتعلق بالوزن المطلوب على طرفي المنجنيق حتى لا يقع عند التّذخير والإطلاق، وما شابه مما لا يصلح البناء إلا به.
- لدينا منهم مجموعة في حلب سأرسل إليهم في الحال.
- هل تم تجهيز العساكر لفتح ملطية بالشكل الكافي، فلا أريد عودتك منها إلا وقد أدّبت الأرمن، فَمَا فعلوه مع قازان يوم غزا دمشق من نهب للصالحية واعتداء على الأعراض والأموال لم يُنْسَ، وأريد القصاص الذي يردعهم ويردع كلا من الكرج والروم.
- أمرك مولاي السلطان.
- ومن سيخرج معك من القضاة؟
- سيخرج معي قاضي العسكر ابن صرصي وقاضي قضاة الشامية.
- قريبا سأعود لمصر وأريد قبل خروجي أن ترسم بإطلاق

البواقي عن أهل دمشق والإفراج عن المسجونين، وألّا يؤخذ من كل واحد إلا نصف درهم، ومرسوم آخر فيه رفع السخرة في الغصب عن الفلاحين وغيرهم من أصحاب المهن الأخرى وأن تبطل المكس باسم السلطان عن كافة البلاد الشامية.

- أطال الله عمر السلطان، والله لقد جدت وأحسنت، سأرسم بذلك قبل خروجي إلى ملطية.

يتقدم بعض أعيان دمشق ممن حضر مجلس السلطان للكلام، فيؤذن لهم، فَيُخْرِجُ رجلٌ منهم عليه هيئة أكابر التجار لُفافةً فيها تصاوير لمدينة السلطانية ويعرضها أمام السلطان ويقول:

- مولانا السلطان لقد زار بعضنا مدينة السلطانية عاصمة مغول فارس الجديدة التي شرع قازان ببنائها قبل عشر سنوات وأتم خربندا بناءها العام الماضي، وهي مدينة عظيمة في بلاد الكرج بالقرب من بحر قزوين، وقد بناها على وصف الجنّة، فيها الماء يجري، والضفاف خضراء تزدان بأنواع الورد والزهر، والطيور تُحلق بريشها الملون، فيها شجر مُصَنَّع ثمره اللؤلؤ، وفيها أنهار من عسل ولبن وخمر، وفيها الحمامات الرومانية والمساكن الراقية والبساتين المعلقة، وبُني فيها للحيوانات ما يحقق أداءها ويدفع أذاها، فإسطبلات الخيل وحظائر المواشي وأقفاص الكلاب بنيت بأطراف المدينة على غير مثال مسبوق ...

يمشي السلطان إلى النافذة ويعطي المتكلم ظهره وينظر منها إلى الخارج ويقاطعه بصوت جلف ويقول:

- ما الغاية من كلامك؟

يتردد المتكلم قليلا ثم يقول:

- اقترح على مولاي ... بل هو اقتراح من مجموعة من أعيان البلد أن يبني مولانا مدينة في الشام نبزُّ فيها السلطانية عاصمة المغول و ...

يجيب السلطان غاضبا:

- أنا عبد الله وخادم رسوله لا خادم الحمار خربندا، ألا ترى ما نحن فيه؟ نبني المناجيق ونحصن الأسوار ونرفع المظالم ونضع المكوس، وأنت تريدني أن أبني مدنا تشابه الجنّة ستكون تكلفة بنائها مكوسا وضرائب أفرضها على الناس، أتريد أن يُلقيني الله بنار الآخرة لتتمتع أنت بجنّة الدنيا.

يتدخل الأمير سيف الدين تنكز بعد أخذ إذن السلطان موجها كلامه للمتكلم قائلا:

- ألا يكفيك ما قاله ياقوت الحموي في وصف دمشق «ما وصفت الجنة بشيء إلا وبدمشق مثله» فاكتفِ بها مدينة من أعظم مدن الدنيا بعد القاهرة العامرة بمولانا السلطان

الناصر، ألا تعلم أن معنى دمشق الأرض الزاهرة والعامرة فدعك من السلطانية ومن خربندا، فقد لُقّبت دمشق بالفيحاء لأن فيها الهواء العليل. اذهب سيران إلى أنهار دمشق وينابيعها وغوطتها، اذهب واستنشق هواءها فهو يُذهب ما برأسك.

عُقر الثور فكثرت السكاكين، كل يريد التملق بمواءمة رأي السلطان، يتدخل أحد وجهاء دمشق لينأى بنفسه عن الاقتراح وعن صاحبه وليكسب مزيدا من الرضى السلطاني:

- وكأنك أتيتنا من البادية، ولست من سكان دمشق! ما رأيك هل تريد من مولانا السلطان وقد عزف عن سفاسف الأمور أن يبني أيضا فوق قبر المنصور قلاوون رحمه الله قبة بارتفاع ثمانين ذراعا كما فعل خربندا فوق قبر قازان، فاتعظ بقبر أحمد بن حنبل في بغداد، ما إن تُبنى فوقه قبة حتى تقع وحدها، كرامة من الله له.

يشير إليه السلطان بغضب أن يسكت، فالقبة فوق قبر المنصور قلاوون في القاهرة عظيمة الارتفاع، وهذا المتكلم لا يعلم عنها شيئا ثم يقول:

- لا يُحسن أحدكم الحديث في حضرتي.

يتذكر السلطان وصية الست حدق بأن يتكلم بصيغة الجمع كالسلاطين، لا بصيغة الفرد كالعامة، ويكاد يعيد آخر كلمة

بـ«حضرتنا» لكن يتدارك قبل النطق، فالتردد ضعف، وما ينبغي للسلاطين إعادة ما يقولون، ويكمل:

- وما شأن القباب والقبور في حديثنا.

ويتمتم في نفسه «مُبَرِّرون مُسَوِّغون سَفَلَة» ويشير بيده إلى الحرس كي يُخرِجاهما ويلتفت إلى صاحب الاقتراح قائلا:

يا هذا اغرب عن وجهي قبل أن أقطع لسانك.

يتردد السلطان قليلا ثم يقول:

- بل أرسلوا له من ديوان الإنشاء من يعلمه أدب مخالطة السلاطين.

يخفض السلطان صوته ليسمعه من حوله فقط ويقول:

- مجالسة الثقيل حُمَّى الرِّبْع، لكن أدمنت نفوسنا الحمَّى من هؤلاء الذين يغشون مجالسنا فأصبحت لنا عادة.

***

توجه السلطان راجعا إلى الديار المصرية في السابع والعشرين من المحرم، وتقدمت الجيوش بين يديه ودخل القاهرة وقد ركب على فرس أشهب، ولبس خُلعة سوداء لون الخلافة العباسية ورمزها، وجعل على رأسه مظللاً أصفر اللون مكللاً بالجواهر، وجعل عن يمينه خمسة من كبار الأمراء، وعن يساره

مثلهم، لابسين السواد وعليهم مظللات مزركشة بالذهب، وجعل بين يديه خمسمائة من المشائين ومائة فارس، قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم، وكل واحد منهم يقود فرساً مسرجاً مدرعاً، متقلدين السيوف والأقواس وبيد كل فارس رمح في طرف رأسه راية الدولة الصفراء.

قسم السلطان جيشه على أفواج، كل فوج فيه أمير قد قدم أمامه عشر من الفرسان شاكين في السلاح، وكل واحد منهم يقود فرساً، وخلفه عشرة أطبال يتقلّدها عشرة من الفرسان، ومعهم ستة يضربون الأبواق والأنفار والصرنايات، ثم عُرض الجيش على السلطان في بسيط من الأرض عرضا مهيبا وصلت أخباره إلى سلاطين الأرض السبعة وممالكها، وأبطل السلطان فور وصوله المكس عن سائر البلاد المصرية القبلية والبحرية، ثم ما لبثت القاهرة أن تزينت فرحا بولادة ولد جديد للسلطان.

***

كان السلطان قد بث العسس والبصّاصين في كل الأقاليم يجوسون بين التجار والزوار يعرفون أخبارهم، خفافا لا يزعجونهم، فإن رأوا ما يريب أرسلوا به رقعة إلى نائب السلطان في ذلك الإقليم ليرى فيهم رأيه، فوصل نائب دمشق أمر بعض تجار المغول المشتبه بهم فرفعوا إلى آمر القلعة وبعد التحقيق معهم وضربهم ومواجهتهم بالأدلة اعترفوا أن سلطان التتار خربندا أرسلهم من أجل اغتيال السلطان الناصر في القاهرة بالسحر الخفي.

كان في بلاد البوليبار بأطراف الهند طائفة تسمى الجُوكِيَّة حبسهم سلطان دلهي المسلم بسراديب تحت الأرض لفشوِّ خطرهم على المسلمين، وتُسمى الواحدة من نساء هذه الطائفة بالكفتارا، وهن يمارسن بالنظر نوعا فتاكا من السحر الأسود يأكلون به قلب المسحور، ينظرن بوجه المسحور فيخر ميتا وقد انخلع قلبه من صدره وفُقد، سرت بذلك الشائعات في الهند وما جاورها من البلاد، فأحضر خربندا طائفة منهم وأغراهم بالأموال من أجل قتل السلطان الذي يتفقد بنفسه أحوال الرعيّة في الأسواق والساحات، فيكون قتله متيسرا بمجرد التعرض له والنظر في عينيه دون إثارة الريبة.

أُحيط الأمير تنكز بالأمر فأمر بإحضار المغول إلى القصر ومعهم الكفتارا وقد عصب الحرس عينيها منذ قبضوا عليها خوفا من أن تقتلهم بالنظر. فأُدخلوا على الأمير في مجلسه ومعه القضاة وأكابر الدولة في دمشق.

آمر القلعة: لقد عصبنا عينيها يا خوند عالم.

الأمير تنكز: أو تصدقون هذه الخرافات؟

آمر القلعة: لقد تحرينا المسألة وسألنا بعض التجار الهنود في دمشق وأكدوا لنا حقيقة الأمر.

القاضي ابن الزملكاني: السحر ثابت في القرآن والسنة أيها الأمير.

الأمير: آمنا بالله ورسوله، فلتكشف عن عينيها وتنظر في عينيّ، فإن كانت كاذبة فهي كاذبة وإن كانت صادقة فقد استعذت بالله من شر سحرها ومن شر كيد المغول والتتار.

خاف بعض المقبوض عليهم من المغول أن تقتله فتضرب رقابهم على ذلك، فتدخلوا لدى الأمير:

- لا تفعل أيها الأمير فهي قاتلتك.
- خفتم على رقابكم أن تُضرب، بل سأفعل واعلموا أني قاتلها وقاتلكم على خيانتكم لعهد الأمان الذي أخذتموه للدخول إلى بلادنا، فإن كانت قادرة على قتلي فلتفعل لأن في قتلي نجاتها ونجاتكم وعدٌ عليّ مشهود، فترجموا لها هذا الكلام حتى تستخلص نفسها بقتلي لأنّ نجاتي موتها.

يتقدم المترجم من الكفتارا ويخبرها بكلام الأمير ثم يزيل العصابة عن عينيها، يتوقّى جميع الحضور النظر في وجهها ويغمض الأمير عينيه ويقرأ المعوذتين في سرّه ثم ينظر مباشرة إلى عيني الكفتارا وقد اتسعت حدقاتها واصفرّ بياض عينيها وجحظتا وكأن إبليس ركبها، يقدح الشرر من عينيها وكأنهما نار إغريقية ملتهبة، فيقول الأمير:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

يحس الأمير بثقل في جسده وضيق في نفسه وكأنه في

مبارزة، السيف فيها النظر، من يخفض فيها نظره أولا كمن يخفض سيفه فيُقتل، ثم يقول:

- صدق الله وكذبت الشيطانة.

يديما النظر ببعضهما، والحضور كله ينظر إلى الأمير ويحجب بيده الكفتارا حتى لا تقع عليها عيناه، ثم ما لبثت الكفتارا أن وقعت مغشيا عليها، فيجلس الأمير على كرسيه وكأن ثقلا هدّ أكتافه ثم يقول للحرس:

- اضربوا عنقها وعنق هؤلاء المغول في ساحة المسجد الأموي، ونادوا بالناس أن هذا جزاء من يخون عهد الأمان ويكيد بالسلطان، واكتبوا إلى السلطان بذلك مع البريد حتى يأخذ حذره.

ثم يستدرك الأمير وينادي آمر القلعة قبل أن يخرج:

- شدوا وثاق عينيها فإن بهما شرا مستطيرا وداء.

(29)

ست النعم

دمشق (716) هجري

عام من الأحزان ألمّ بآل عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية توفي فيه بدر الدين الأخ غير الشقيق للشيخ تقيّ الدين كما توفيت فيه والدته ست النعم بعد أن أُصيبت بالقولنج وبقيت مبطونة لفترة طويلة، وكانت تُصاب بنوبات من التَّهَوُّع بدأت معها منذ سُجن ابنها تقيّ الدين في القاهرة وخوفها الشديد على حياته. كانت ست النعم المرأة الوحيدة في حياة الشيخ، كان يُحزنه ألمها ويُنغص عليه تعبها، أحضر لها النطّاسي فلم تنفعها أدويته ولا الدهون التي كانت تُمَرِّخ بها مكان الألم من بطنها، فعمد الشيخ إلى تخفيف آلامها بالقنّة وبزر البنج، بعد أن يئس من علاجات العشابين والعطارين والصيادلة، يقف عند رأسها صباح مساء يدعو لها بالشفاء والرحمة.

كانت ست النعم للشيخ الأم والأخت والزوجة والبنت، بنتا في رأفتها ودلالها، وزوجة في رعايتها وعنايتها بملبسه ومطعمه ومسكنه، وأختا يُسارّها ويستشيرها في شؤونه الخاصة في بيت كل من فيه ذكور. ولا غنى له عن دعائها وهي الأم الرؤوم، هي مسكنه

في الأرض وبوابته إلى رحمات السماء، يبرها ويحسن إليها، تبثُّ إليه همومها ولا يبثُّ هو همّه، تشكو له بعض شأن إخوانه ولا يشكو، تقلقه بنفقات الدار ولا يُقلقها، تخاف عليه نوائب الدهر ومكر الحسّاد ولا يُخيفها، كان برّه بالسكون والطمأنينة التي يحيطها بها، يحدثها بنعم الله عليه وكأنه سلطان مُتوّج، إلا أن حاجته إلى امرأة يضع رأسه في حجرها يبث إليها همّه كانت مُلحّة.

كان يقضي بعض خلواته يتخيّل نفسه ذلك الصبي الصغير الذي قدم دمشق من حرَّان فارّا من التتار، يلجأ إلى حضنها الدافئ، وكأنّ تتر حرّان هم السلطة والإمارة والشهرة والرياسة والحُسّاد والمبغضون وزينة الدنيا وأبهة السلطان والعامة التي تهتف باسمه يفرُّ منهم، وكأن ست النعم هي ما أنعم الله عليه من القراءة والتصنيف والتدريس والتحديث والفتوى والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في حضنها يجد سلوته وبركونه إليها تطمئن نفسه، لو قُدّر لها أن تخرج من قبرها بالمقبرة الصوفية وتبرأ من مرضها وتعود شابة قوية لها جلد على معاركة الأيام و وتبدل الأحوال؛ لصارحها بكل ما يعتمل في قلبه، لكن أنّى للماضي أن يصبح مستقبلا، وأنّى للأماني أن تصبح حقا، مضت به الحوادث بلا رجعة تاركة آثارها على نفسه وبدنه كاتبة التاريخ رابطة مقدماته بنتائجه.

فلو لم يقتل الأمير بيدرا، الأشرف خليل فلربما عادت عاصمة الدنيا بغداد إلى حاضرة المسلمين لكنها الآن خراب يا

أمي... ولو أني استجبت لقازان ورضيت أن أكون شيخ مشايخه ومن خاصته لَعَمَّرَ لي حرّان ولَسُدتُّها وما حولها من أقاليم... ولو أني كذّبت كلام ربي ولم أُثْبت ما أثبَتَهُ لنفسه ونفيت عنه العلو وأوّلتُ أسماءه وصفاته تأويلا فاسدا فلربما لم أُسجن يا أمي... ولو لزمت السلطان الناصر ولم أغضبه باعتزالي مجلسه لربما تحسنت أحوالنا ووجدت لك خير الأطباء وأنفع الأدوية أخفف عنك ما ألّمّ بك من أوجاع يا حبيبتي... ولو أني قَبِلْتُ ما لا يكاد يُحصى من الأموال التي كانت تأتيني كل عام ولم أفرقها آلافا ومئين لا أمسّ منها درهما واحدا بيدي لكان وكان... ولو تركتُ العلم واشتغلت بمعاشي لما كلّفتُ أخي شرف الدين مؤنتي ونفقتي... لم أعتد البعد عنه يا أمي لا في دمشق ولا في القاهرة فكيف سأُطيق بُعَدهُ وهو يتجهز للحج مع قاضي القضاة ابن صصرى وغيره من الأفاضل، وقد أجزته يا أمي للتدريس بالمدرسة الحنبلية منذ مدة أسأل الله أن يكتب لكِ من أجره أجرا فهو من عملك وعمل أبي رحمه الله... ما أكثر ما أستعرض ما مضى يا أمي، لا أندم عليه، ولكنها النفس والشيطان يا أمي... ولو أني نزلت عند رغبتك يا أمي وتزوجت لربما أدخلت السرور إلى قلبك بأحفادك أولادي وبناتي يلعبون بين يديك تُقَبّلينهم ويقبّلونك.. ولكن لو لم أحبس نفسي للعلم يا أمي لم أحظ بتلاميذ هم بمقام أبنائي وأولادي أحبهم وأرعاهم يا قرة عيني... لو ترينهم يا أمي، منهم الصبي والفتى ومنهم الشاب والكهل، يلتفون حولي وقد بلغت الرابعة والخمسين من عمري، فهذا محمد بن عبد الهادي ذو العشر سنوات، وذاك إسماعيل بن

كثير مضى من عمره خمسة عشر عاما، وهذا محمد ابن قيّم الجوزيّة تجاوز العشرين من عمره، وذاك محمد بن أحمد الذهبي بالعقد الثالث من عمره، أحببتهم كأنهم أبنائي وإخواني يا أمي، وهذا ابن مفلح وابن الوردي وذاك ابن رشيق والصفدي وابن فضل الله، كل أولئك بمثابة أولادي وإخواني هم عُزوتي وعشيرتي، وتلكم أم زينب فاطمة البغدادية، كانت تلميذتي وتحضر مجلسي ثم أصبحت من العالمات، ولُقبت بسيدة نساء زمانها، كنت أكثر الثناء عليها لفضلها وعلمها، كانت تستحضر كثيرًا من كتاب (المغني) أو أكثره، وكنت أستعد لها من كثرة مسائلها وحسن سؤالاتها وسرعة فهمها، وقد ختَّمت نساء كثيرًا القرآن، توفيت قبل عامين في القاهرة رحمها الله رحمة واسعة.

كم تمنيت يا أمي يوم تَقَحَّمْتُ ميسرة جيش التتار في مرج الصّفّر لو أني لم أعد، لو شهدتني يا حبيبتي والسيوف تبرق حولي وخيل التتار أحاطت بي من كل جانب، أضرب بسيفي ذات اليمن وذات الشمال، كأني في وادٍ وجثث التتار حولي كالجبال، انتظر سيفا قاطعا أو رمحا طاعنا ألقى به ربي وأحبتي محمدا وصحبه. فلا سيف قَطَع ولا رمح طَعَن... هل تراني كنت محروما يا أمي؟ هل حالت ذنوبي بيني وبين مقصدي، أو أن عطبا أصاب نيتي؟ أو هي أقدار الله يا أمي كتبت عليّ أن أموت على فراشي... ها قد سبقتني يا أمي إلى لقاء ربك وأنا أنتظر، لا أدري ما الأيام فاعلة بي، وما يُدريني لعل الله يُحدث بعد كل ذلك أمرا... رحمك الله يا أمي وغفر لك.

(30)

المهدي المنتظر

دمشق (717) هجري

تراكمت الغيوم وأظلم نهار دمشق وخلى كل رفيق إلى رفيقه، تساقطت أوراق الخريف وملأت الأزقة تُحرّكها ريح خفيفة، في برودتها لسعة جافة تسفع الوجوه بغبار متطاير حمل معه ورقة توت سقطت على شرفة القصر الأبلق حيث اختلى نائب دمشق الأمير تنكز مع القاضي ابن الزملكاني يتبادلان أطراف الحديث:

- أيعقل أيها الأمير تنكز أن يتمادى تقيّ الدين ليفتى في أمور علم الهيئة كما يفتى في أمور الدين!
- أين تمادى يا ابن الزملكاني.
- لقد أصبح شيخكم هذا أدرى باتجاه الشرق والغرب أكثر من أهل الاختصاص ليحدد اتجاه القبلة في الجامع الذي عزمتم على بنائه على نهر بانياس ظاهر باب النصر.
- هو لم يتطوع لذلك، إنما تردد القضاة والعلماء في تحرير القبلة فطلبوا ذلك منه فحررها لهم، وعهدي به أنه خبير بهذه العلوم وإن لم يَعْلَم نَقَلَ عن أهل الاختصاص والعلم.

- والله لقد بالغتم في تعظيم شأنه.
- لقد سُئل ذات مرة بحضوري عن هيئة الأرض، فنقل عن ابن المنادي قوله: «لا خلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة، وكذلك أجمع أصحاب الاختصاص في فنون العلوم الدنيوية على أن الأرض بجميع حركاتها من البر والبحر مثل الكرة، ويدل عليه أن الشمس والقمر والكواكب لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد، بل على المشرق قبل المغرب». وعقّب قائلا «ولا أعلم في علماء المسلمين المعروفين من أنكر ذلك». ألا ترى يا ابن الزملكاني هو يُعيد الأمر إلى أهله.
- دعني من الأرض وكرويتها، وأرجو منك أن تُعيدَ النظر في قبلة الجامع أيها الأسير.
- لا نستطيع وقف البناء فقد أمر السلطان الناصر المباشرة به، وهو كما تعلم قد أطلق خطة عمران هائلة في كافة الأقاليم، ولئن تمت كما أراد ليكونن حجم ما بناه في فترة حكمه -أطال الله عمره- أكثر مما بناه سلفه منذ قيام الدولة.
- لا خلاف أيها الأمير، ولكن تأخير البناء بضعة أيام لن يؤثر على هذه النهضة العمرانية.
- وكأنك تجهل السلطان الناصر يا ابن الزملكاني، لقد أرسلت له أني بدأت بالبناء، فماذا تريد مني أنْ أخبره،

أني أوقفت البناء من أجل اعتراض القاضي ابن الزملكاني على صديقه الشيخ تقيّ الدين، أتريده أن يعزلني من منصبي لأسجن في قلعة الكرك مع المتردية والنطيحة وما أكل السبع من الأمراء المقصرين في أداء مهامهم.

- لم يعد الشيخ صديق السلطان كما كان.

- هذه الوحشة العابرة بينهما ستزول، وهي ليست لحدث أحدثه الشيخ إنما لعزلة الشيخ عن مجالس الحكم وبلاط السلطان.

- الشيخ... الشيخ!! ما لك أيها الأمير لا تخاطب تقيّ الدين إلا بلقب الشيخ وتناديني بلقبي مجردا، ابن الزملكاني.

- لأن للشيخ مكانته عند العامة والخاصة، ولم يبق من أعيان الشام وملوكها وعلمائها ومشايخها وصغيرها وكبيرها ولا تركيٌ ولا عربيٌ إلا واجتمع بالشيخ منذ عاد من القاهرة كما تعلم، وأنت صديقٌ مقربٌ أرفع الكلفة ما بيني وبينك. ثم ألست القائل فيه «لا يُعرف أنه ناظر أحدا فانقطع معه» وأنت بعينك كنت من أوائل من قال أنّ الشيخ اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها.

- نعم وأزيدك من الشعر ثلاثا لا بيتا، فقد علقت على أحد مصنفاته فقلت فيها شعرا:

مَاذَا يَقُولُ الوَاصِفُونَ لَهُ وَصِفَاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الْحَصْرِ
هُوَ حُجَّةٌ لِلَّهِ قَاهِرَةٌ هُوَ بَيْنَنَا أُعْجُوبَةُ الدَّهْرِ
هُوَ آيَةٌ لِلْخَلْقِ ظَاهِرَةٌ أَنْوَارُهَا أَرْبَتْ عَلَى الْفَجْرِ

كان ذلك قديما، أما الآن فإن كان للشيخ مكانة كما تزعم فلن تطول بإذن الله.

- ماذا تقصد يا ابن الزملكاني.

فقال بصوت كأنه فحيح:

- الخبر ما تراه قادم الأيام لا ما تسمعه، فهذا الرجل أهاننا بعد أن احترمناه واحتقرنا بعد أن قدمناه، ألم تسمع مقولته التي عنانا بها يوم وصف كلامه معنا بأنه «تلقيح ألباب السامعين إذا كان فيهم استعداد لنيل تلك المنازل الشريفة» وعندما احتججنا على ذلك قال: من لم يألف أكل البطيخ يُسهله أول مرة. يريدنا أن نعتاد على طريقته في التقريع، ويدعي أن كل من خالفه في شيء مما كتبه فهو أعلم بمذهبه منه.

لقد أصبح ابن تيمية أعلم بمذاهبنا منّا ونحن سادة المذاهب وأساطينها!! بل وقد أبطل ما اصطلح عليه أهل الاختصاص من تعريفات فزعم أنه استبدل لفظ تأويل بلفظ تحريف لأن اسم التحريف جاء القرآن بذمه واتهم ما تأولناه من كتاب الله بأنه تحريف وليس تأويلا. بل لا يعتبر أراءه بالعقيدة أراء مذهب والده الحنبلي ويقول هذا رأي الإسلام لا رأي ابن حنبل ولا الشافعي ولا غيره، وكلما سألناه من أين لك هذا الذي تدعيه علم الأولين، يرد علينا ومن أين لا تعلموه، أتعبنا باستطراداته يسأله السائل مثلا عن طريق مصر فيذكر له معها طريق مكة والمدينة وخراسان والعراق والهند، وأي حاجة للسائل إلى ذلك ...

يضحك الأمير ويرد مازحا:

- ألست أنت يا ابن الزملكاني من كان يسمعنا دائما مقولة الخليفة المأمون «لا شيء أطيب من النظر في عقول الرجال» وتقول لنا بلسانك أن رؤية العاقل تفيد ذا اللب وكيت وكيت من الأقوال، فانظر في حسن عقل الشيخ وتنوع أساليبه بالجوابات فكان يُسأل نثرا فيجيب نظما وكان يُس ...
- أنا أتكلم بجدية وأنت تهزأ أيها الأمير.
- على رسلك يا شيخ، الرجل ذو علم وقد شكره الناس في كثير من فتاويه التي رفعت الحرج عنهم على رأسها ما أغضبكم في مسألة الطلاق، وأفتى أيضا بقصر الصلاة إن طال السفر أو قصر، وفتواه بأن سجود التلاوة لا يشترط له وضوء، وأن لا قضاء على من أكل ليلا في رمضان فبان له أنه نهار، وأن المتمتع بالحج يكفيه سعي واحد، وجواز طواف الحائض، وجواز التيمم لمن خاف فوت العيد والجمعة، ومذهبه توسعة العذر للخلق. وقد سهّل كثيرا على النساء في فتاويهن، هل أحدثك بالمزيد أم اكتفيت؟
- لا حاجة أيّها الأمير، فأنا أعلم منك بما ذكرت.
- لكن طبعه حاد وفيه نزق، وقد اشتَطَّ على السلطان في النقاش أكثر من مرة والسلطان يأخذه بحلمه، فإن كانت هذه طريقته مع السلطان فهل تتوقع أنه سيعاملك بأفضل من ذلك وقد ناظرتَه وخالفتَه. وأنت تعلم أنّ من طبعه أن

يُعظِّم جليسه مرة ويُهينه في المحاورة مرات، فارفأ بنفسك يا شيخنا هي سجيّة جُبل عليها.

- بل خُلق سيء وعجرفة مقيتة، وإن غدا لناظره قريب.

يدخل الحاجب على الأمير ويتكلم بعد الاستئذان:

- هذا كتاب من بعلبك يحدد خسائر السيل الذي أصابهم كما أمرت أيها الأمير.

يطلب الأمير تنكز من القاضي ابن الزملكاني تأخير نقاشهما حتى ينظر في أمر بعلبك، ويقول للحاجب:

- اقرأ.

- ملخص ما حدث في بعلبك، «جاءنا رعد وبرق عظيم معهما برد ومطر، فسالت الأودية، ثم جاءنا بعده سيل هائل خسف من سور البلد من جهة الشمال شرقا مقدار أربعين ذراعا، مع أن سمك الحائط خمسة أذرع، وحمل برجا صحيحا ومعه من جانبيه مدينتين، فحمله كما هو حتى مر فحفر في الأرض نحو خمسمائة ذراع سعة ثلاثين ذراعا. وحمل السيل ذلك إلى غربي البلد، لا يمر على شيء إلا أتلفه، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فأتلف ما يزيد على ثلثها، ودخل الجامع فارتفع فيه على قامة ونصف، ثم قوي على حائطه الغربي فأخربه وأتلف جميع ما فيه من الحواصل والكتب والمصاحف وأتلف

شيئا كثيرا من رباغ الجامع. وهلك تحت الهدم خلق كثير من الرجال والنساء والأطفال...

- إنا لله وإنا إليه راجعون. وكأني بالدهر في إدبار والشرور في زيادة، أكمل أيها الحاجب.

- وغرق في الجامع جماعة من الفقراء، وهلك في هذه الكائنة من أهل بعلبك مائة وأربع وأربعون نفسا سوى الغرباء، وجملة الدور التي خربها والحوانيت التي أتلفها نحو من ستمائة دار وحانوت، وجملة البساتين التي جرف أشجارها عشرون بستانا، ومن الطواحين ثمانٍ سوى الجامع والأمينية وأما الأماكن التي دخلها وأتلف ما فيها ولم تخرب فكثير جدا».

- أيها الحاجب أرسل في طلب خازن بيت المال، واطلب من المنادي أن ينادي في الأسواق والمساجد بنجدة أهل بعلبك.

- أمرك يا خوند عالم.

يخرج الحاجب فيوجه الأمير كلامه إلى ابن الزملكاني:

- يا ابن الزملكاني هل لك أن ترافقنا إلى بلاد النصيرية في الساحل فإني خارج إليهم غدا بالاتفاق مع أمير طرابلس بأمر السلطان الناصر.

- وهل أحدثوا شيئا جديدا.

- نعم لقد خرج فيهم مهدي جديد وخرجوا عن الطاعة فأمر السلطان بتأديبهم.
- ومن هو مهديهم هذا؟
- هو محمد بن الحسن المسمى نفسه زورا المهدي القائم بأمر الله، وتارة يدّعي أنه علي بن أبي طالب فاطر السماوات والأرض والعياذ بالله، وكان قد ادعى من قبل أنه محمد بن عبد الله صاحب البلاد، وزعم أن النصيرية على الحق وكفّر من دونهم من المسلمين.
- لا حول ولا قوة إلا بالله.
- واحتوى هذا الرجل على عقول كثير منهم، وعيّن لكل إنسان منهم تقدمة ألف، وبلادا كثيرة ونيابات وعدهم بها حين يفتح لهم الشام، وحملوا على مدينة جبلة فدخلوها وقتلوا خلقا من نساء وأطفال المسلمين، وخرجوا منها يقولون «لا إله إلا علي، ولا حجاب إلا محمد، ولا باب إلا سلمان». وسبّوا أبا بكر وعمر، وصاح أهل البلد وإسلاماه، واسلطاناه، فبلغ استصراخهم السلطان الناصر فأرسل إلى نوابه بالشام تجريد العساكر على الفور.
- هذا كفر بواح.
- وخربوا المساجد واتخذوها خمارات، وكانوا يقولون لمن أسروه من المسلمين: قل لا إله إلا علي، واسجد لإلهك المهدي، الذي يحيي ويميت حتى يحقن دمك ومن لم يجبهم قتلوه. فأمر السلطان بعد كسرهم أن يتم بناء مسجد

في كل قرية من قراهم وإبطال الخمور والفواحش في بلادهم ووضع مكوس كبيرة عليهم بما أتلفوه من أموال المسلمين وزروعهم وقتل مهديهم حال مسكه والتمثيل به وحرقه.

جلبة خارج القصر وصوت أحد الحرس يشتبك مع أناس بالخارج، يصل الصراخ إلى مسامع ابن الزملكاني والأمير، يتوجهان إلى النافذة ويسمعان:

يا أهل تيمية العالين مرتبة ... ومنصبا فَرْعَ الأفلاك تبيانا

جواهر الكون أنتم غير أنكم ... في معشر أُشربوا في العقل نقصانا

إن تُبتلى بلئام الناس يرفعهم ... عليك دهرٌ لأهل الفضل قد خانا

فيقول ابن الزملكاني:

- تالله لقد بلغ السيل الزبى.

telegram
@yasmeenbook

(31)

ماردين

دمشق (717) هجري

أنهى الشيخ تقيّ الدين درسه في الجامع الأموي من أجل مقابلة وفد أعيان مدينة ماردين الذين حضروا لمقابلته واستفتائه، فأنهى درسه بتجديد فتواه بمسألة الطلاق رغم ورود كتاب ثانٍ من السلطان الناصر بمنعه من الفتوى بالمسألة لما أثارته من ضجة واتهمه القضاة والفقهاء أنه يتلاعب بأنكحة المسلمين، امتنع لبضعة أيام إثر الكتاب الأول حفظا للود بينه وبين السلطان وطاعة للأمير ثم ما لبث أن تراجع عن ذلك إذ اعتبر كتمان العلم معصية ولا طاعة للمخلوق في معصية الخالق، فقال مخاطبا الحضور:

- «يقولون أن أهل المذاهب الأربعة أفتوا إذا قال رجلٌ لامرأته بنفس واحد: أنت طالق ثلاثاً، فإنها تبين منه، سواء كان في حالة غضب أو لا، ولا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره، وهذه الفتوى خطأ، والصحيح أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام وأبا بكر وصدراً من خلافة عمر كانوا يجعلون طلاق الثلاث بلفظٍ واحد طلقة واحدةً

ولكن تتابع الناس على لفظ الطلاق واستهزأوا به، والكل يقول: عليَّ الطلاق وإذا امرأته طالق، أراد عمر أن يردعهم ويزجرهم، فقال: إن الناس قد تتابعوا في أمر كان لهم فيه سعة، أفلا ترون أن أضيقه عليهم عقوبةً لهم؟ فوافقوه، فصارت الفتوى كذلك».

ثم أخذ يُبيّن لهم الأدلة والاستنباطات التي تثبت أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد هي طلقة واحدة، فوقف له من بين الحضور بعض الفقهاء وقال مُحتجّا:

- وكيف تخالف المذاهب الأربعة في فتواك هذه؟
- العبرة بالدليل لا بالتقليد.

ثم وقف له آخر على اتفاق بينه وبين مجموعة من الفقهاء والقضاة بأن يتصدوا للشيخ تقيّ الدين في فتواه هذه:

- ألست تعصي السلطان بفتواك هذه؟
- «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ» هذا ميثاق بيني وبين ربي وليس بيني وبين السلطان حتى يكون له يد عليَّ.

فصاح ثالث:

- لقد تماديت كثيرا يا ابن تيمية.

فضجّ الناس وقام بعضهم ليسكت المتكلم فأشار إليهم الشيخ بأن يجلسوا وقال:

- الحجة بالحجة لا بالصياح.

فقام قاض آخر:

- أتدري ما أحدثت فتواك بالمسلمين، لقد انقلب القضاء رأسا على عقب، واختلطت أمور المواريث والتركات وعادت مطلقات إلى أزواجهنَّ وبطلت أنكحة واختلف الناس.
- عَرَضٌ مؤقت، سندفع ثمنه بسبب تقليد رأي قديم ثم ما تلبث الأمور أن تستقر عليه.

نهض فقيه خامس متخطيا الرقاب مقتربا من كرسي الشيخ يلوح بيده:

- سيقتتل الرجال كل يقول هذه زوجتي لم تبن مني وآخر يقول هي بائنة بينونة كبرى لا تحل لك وقد تزوجتها بحكم القضاء فماذا أنت فاعل بهم يا شيخ؟
- تلك مهمة القضاء ومهمتي الفتوى وسأفتي بالحق شاء من شاء وأبى من أبى.
- دائما تعتقد أنك على الحق وغيرك على باطل، وكأن الله لم يخلق من العلماء إلا أنت، أصبح الشيء الوحيد الذي ينقصك هو صكوك غفران توزعها على من تشاء.
- لا حول ولا قوة إلا بالله وأفوض أمري إليه.

فصاح سادس من باب المسجد حتى يثير جلبة أكبر من مسافة أبعد:

- ما هي إلا أيام وسنسجنك بتهمة إثارة الفوضى بين العامة ومخالفة أمر السلطان وما أراك تجرأت على هذه الفتوى إلا بعد وفاة قاضي قضاة مصر السابق ابن مخلوف والعلماء أمثاله لخوفك منهم.

كاد الشيخ أن ينتقم لنفسه ويرد عليه؛ أنه هو من عصم دم ابن مخلوف يوم همّ السلطان الناصر بقتله فأسرّها في نفسه وقال:

- رحم الله ابن مخلوف كان غزير المروءة والاحتمال والإحسان إلى الفقهاء والشهود ومن يقصده. أمّا أمركم هذا فيبدو لي إنه بُيّت بليل فحسبي الله ونعم الوكيل، وتذكروا كلامي جيدا فالحق دائما أدوم وإن حُورب، فسيأتي على المسلمين يومٌ يأخذون بهذه الفتوى من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، أتعلمون لماذا؟

فتعالت أصوات تلاميذ الشيخ ومُحبّيه:

- لماذا يا شيخنا؟
- لأن ما قاله الله ورسوله أدوم مما قاله البشر، يريد الله أن يخفف عنكم وتريدون التعسير على المسلمين، ما أنزل الله علينا القرآن لنشقى، وأراكم تتشددون في أحكام النساء تحديدا وجعل الله فيها سعة ورحمة فجعلتموها مشقة وعنتا لأن عقولكم طاشت وأحلامكم صغرت فقلدتم، وليتكم قلدتم السادة الأئمة الأعلام، بل اتبعتم

من خلف من بعدهم، فحفظتم الفرع ونسيتم الأصل، وسبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك، ائذنوا لي فقد حضر من ماردين وفد من فضلائها وهم ينتظرونني.

يطلب الشيخ من أحد تلاميذه جمع الرقاع التي ألقاها عليه الحضور للإجابة لاحقا عمّا ورد فيها من أسئلة واستفتاءات، يغادر مجلسه متوجها إلى الجهة الشرقية من المسجد بجانب بوابة زيادة حيث جلس عندها وفد مدينة ماردين، رَحّب بهم الشيخ ثم سألهم:

- أخبروني عن ماردين؟

فردّ عليه كبيرهم:

- هي مدينة عظيمة في سفح جبل من أحسن مدن الإسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقا، وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها من الصوف المعروف بالمرعز أي شعر الماعز، ولها قلعة شمّاء من مشاهير القلاع في قنّة جبلها، لكنها اليوم تئنّ تحت حكم التتار ...

حضر ناظر الجامع وقاطع مجلسهم لعلمه أن الناس ستبدأ بالتجمع حول الشيخ عند باب زيادة، وطلب من الشيخ بصوت خفيض رقيق الانتقال إلى مكان آخر لأن العمال سينصبون سقالة هنا، فيقف الشيخ ويشير بيده إلى الوفد للسير معه قائلا:

- لقد أمر السلطان الناصر بإعادة ترميم المسجد الأموي بالهوس، بعد الضرر والخراب الذي أصابه يوم نصب قازان المناجيق في ساحة المسجد ليدمر قلعة دمشق التي تحصنت بها العساكر الشامية مع الأمير آقوش، فأحرق أهل دمشق المناجيق فامتد جزء من الحريق إلى المسجد، وأعمال الترميم هنا على قدم وساق كما ترون، فلو انتقلنا إلى جانب قبر يحيى عليه السلام وسط المسجد يكون أفضل.

يبادر أحدهم ويسأل الشيخ:

- هل هو فعلا قبر نبي الله يحيى عليه السلام؟
- الله أعلم، ولكن يقال أنّ بعض العمال زمن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك عثروا أثناء بناء المسجد على مغارة بنفس هذا المكان حيث كانت كنيسة يوحنا المعمدان، فنزل إليها الوليد بن عبد الملك فوجد فيها صندوقاً فيه سلة بداخلها رأس سليم الجلد والشعر والملامح مكتوب عليه أنه رأس يحيى بن زكريا، فأمر الوليد بتركه على حاله وجعل عموداً قائماً على المغارة كعلامة مميزة ثم وضع فوقه تابوت ودوّن عليه اسم النبي يحيى ابن زكريا. ولكن كما ترون فخدم المسجد ومؤذنوه يمنعون التبرك بالقبر أو الدعاء عنده. تفضلوا بالجلوس وأكملوا كلامكم عن حال المسلمين في ماردين وكيف هي تحت حكم التتار؟

- الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، فهذا ما أتى بنا.
- أسأل الله أن يرفع عنكم ظلم وجبروت التتار وظلم شريعة جنكيز خان التي أظلت بلاد المسلمين منذ غزاها هولاكو، ها ... ما هي أخبار المسلمين في تلك البلاد؟
- لقد وصلنا حديثا أخبار من بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الشرق سنجار والموصل وتلك النواحي عن غلاء الأسعار وقلة النفقات وفناء شديد، وقلة الأمطار، وخوف التتار، وعدم الأقوات، وقد كان حكم خربندا لعنه الله شؤما وزوال نعمة، وحلول نقمة، فأكل الناس ما وجدوه من الجمادات والحيوانات والميتات. وباعوا حتى أولادهم وأهاليهم، فبيع الولد بخمسين درهما وكان المسلمون لا يشترون من أولاد المسلمين، فتصرخ المرأة بأنها نصرانية ليشترى منها ولدها لتنتفع بثمنه ويحصل له من يطعمه فيعيش، وتأمن عليه من الهلاك...
- إنا لله وإنا إليه راجعون.
- وقد ترحلت مؤخرا فرقة من المسلمين قريب الأربعمائة إلى ناحية مراغة هربا من الجوع فسقط عليهم ثلج أهلكهم عن آخرهم.
- لا حول ولا قوة إلا بالله.
- ووقعت أحوال صعبة يطول ذكرها يا شيخنا، وتنبو الأسماع عن وصفها والله المستعان وعليه التكلان.

- لو أن لي قوة بالسلطان، لأشرت عليه أن يغزو بلادكم ويعيدها إلى حاضرة الإسلام.
- لقد أرسلنا إليه الكتب فأسَرَّ إلينا أنّ سلطان خانيّة فارس الجديد بوالسعيد غير سلفه خربندا الذي أظهر الرفض بين المسلمين...

يقاطعهم الشيخ قائلا:

- الرفض وما أدراك ما الرفض والرافضة، أكذب الخلق في النقليات وأجهل الخلق في العقليات، سُئلت اليهود: من خير أهل ملتكم. قالوا: أصحاب موسى. وسُئلت النصارى: من خير ملتكم؟ قالوا: حواري عيسى وأصحابه. وسُئلت الرافضة: من شر ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. لقد رددت على جمال الدين ابن المطهر الحلي تلميذ نصير الدين الطوسي خادم هولاكو، وهو من فقهاء الرافضة وشيوخ خربندا ورجال حكمه في مصنف من أربعة مجلدات أسميته (منهاج السنة النبوية) لعليّ أزودكم بنسخة منه إلى أهل ماردين ليحذروا من مذهبهم الباطل.

ثم يلتفت الشيخ إلى المتكلم ويشير إليه بالمتابعة فيكمل:

- وجرد الهالك خربندا العساكر لغزو مكة والمدينة، وقال لنا السلطان في كتابه أنه يعتقد أنّ خانيّة فارس في آخر

أيامها، وطلب منا الصبر قليلا، فقد رسم للمسلمين في بلاد التتار خطة يرجو أن تؤتي ثمارها.

وكان من البشائر التي جاءتنا من تبريز أن السلطان بوالسعيد قتل وزيره رشيد الدين الهمذاني اليهودي الرافضي المتأسلم.

- السلطان أدرى بشؤون الحكم والسياسة سدد الله رأيه وخطاه، وأظنه في هذه يتمثل قول المتنبي:

الرَأيُ قَبلَ شَجاعَةِ الشُجعانِ هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ المَحَلُّ الثاني
فَإِذا هُما اِجتَمَعا لِنَفسٍ حُرّةٍ بَلَغَت مِنَ العَلياءِ كُلَّ مَكانِ
وَلَرُبَّما طَعَنَ الفَتى أَقرانَهُ بِالرَأيِ قَبلَ تَطاعُنِ الأَقرانِ

واعلموا أن التتار يقسمون الناس أربعة أقسام : يال وباع وداشمند وطاط، أي صديقهم وعدوهم والعالم والعامي، فمن دخل في طاعتهم الجاهلية وسنتهم الكفرية كان صديقهم، ومن خالفهم كان عدوهم ولو كان من أنبياء الله ورسله وأوليائه، وكل من انتسب إلى علم أو دين سموه داشمند كالفقيه والزاهد والقسيس والراهب ودنان اليهود والمنجم والساحر والطبيب والكاتب والحاسب فيدرجون حتى سادن الأصنام، ويدرجون في هذا من المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع ما لا يعلمه إلا الله ويجعلون أهل العلم والإيمان نوعا واحدا، فراقبوهم في بلادكم إن كانوا ما يزالون يعظمون شريعة جنكيز خان المسماة الياسق ويكسرون رقبة الخاروف ولا يذبحونه، ومن سرق منهم فرسا أعطى به تسعا فإن لم يجد أُخذ أحد أولاده فإن لم يكن له

ولد ذبح، فاعلموا أنهم ما زالوا على ملة جدهم الأكبر، فهذا نايان بن تولوي أخو هولاكو ثقب يديه بالصليب وادعى النصرانية من قبل ولم يغير ذلك من حقيقة سلوكه وعمله، فالعبرة بالأفعال لا الأقوال. وإن أردتم زيادة في التثبت من أمر التتار فعلامة ذلك، أن الخانات وكبار الأمراء يجتمعون يوماً في السنة يسمونه (الطوى) فمن وجدوه منهم خالف أحكام الياسق فخلعه واجب. ويأتي أولاد جنكيز خان وأحفاده والأمراء من كل الخانات ويحضر الخواتين وكبار الأجناد، وإن كان أي سلطان قد غير شيئاً من تلك الأحكام يقوم إليه كبراؤهم فيقولون له: غيّرت كذا وغيّرت كذا وفعلت كذا، وقد وجب خلعك. ويأخذون بيده ويقيمونه عن سرير الملك، ويقعدون غيره من أبناء أو أحفاد جنكيز. وما إسلامهم أو تنصرهم إلا من باب شريعة جنكيز خان التي تسمح لأي تتري أن يعبد الرب الذي يريد تحت سلطان الياسق. واستغل السلاطين ذلك لأسباب سياسية، إلا سلاطين مغول القفجاق فيبدو أن تسليمهم لشرائع الإسلام كان حقيقيا.

- إنهم مشهورون ببلادنا أنهم يكثرون من شرب الخمر وهي عادة عند صغيرهم وكبيرهم ويتناقل أمراؤهم مقولة عن جنكيز خان «جد لي رجلا لا يشرب الخمر وسيكون قائدا لجيوشي» لكثرة انتشاره بينهم.
- الخمر كبيرة وإثم لكن شربه ليس دليلا على عدم دخولهم الإسلام بل الدليل امتناعهم عن شرائعه، والحديث يطول. ... ها إيش جاء بكم؟ تفضلوا.

- نريد أن نسأل عن ماردين «هل هي بلد حرب أم بلد سلم؟ وهل يجب على المسلم المقيم بها الهجرة إلى بلاد الإسلام أم لا؟ وإذا وجبت عليه الهجرة ولم يهاجر، وساعد أعداء المسلمين بنفسه أو ماله، هل يأثم في ذلك؟ وهل يأثم من رماه بالنفاق وسبه به أم لا؟»

يخرج أحدهم قلما ودواة ويشرع في كتابة فتوى الشيخ، فيأخذ الشيخ الدواة من يده وينظر فيها ويسأله:

- ما نوع الحبر الذي تستخدمه أهو نباتي أم معدني؟ لأن خبرتي بالحبر المعدني أنه يُتلف الورق ويجعله يتقصف.
- هو حبر نباتي يا شيخنا فالفتوى بالحفظ والصون إن شاء الله، أملِ وأنا أكتب.
- «الحمد لله. دماء المسلمين وأموالهم محرمة حيث كانوا في ماردين أو غيرها. وإعانة الخارجين عن شريعة دين الإسلام محرمة، سواء كانوا أهل ماردين، أو غيرهم. والمقيم بها إن كان عاجزًا عن إقامة دينه، وجبت الهجرة عليه. وإلا استحبت ولم تجب. ومساعدتهم لعدو المسلمين بالأنفس والأموال محرمة عليهم، ويجب عليهم الامتناع من ذلك، بأي طريق أمكنهم، من تغيب، أو تعريض، أو مصانعة. فإذا لم يمكن إلا بالهجرة، تعينت. ولا يحل سبهم عمومًا ورميهم بالنفاق، بل السب والرمي بالنفاق يقع على الصفات المذكورة في الكتاب والسنة،

فيدخل فيها بعض أهل ماردين وغيرهم. وأما كونها دار حرب أو سلم، فهي مركبة: فيها المعنيان، ليست بمنزلة دار السلم التي تجري عليها أحكام الإسلام، لكون جندها مسلمين. ولا بمنزلة دار الحرب التي أهلها كفار، بل هي قسم ثالث يعامل المسلم فيها بما يستحقه، ويقاتل الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه».

ثم يلتفت الشيخ إلى الذي كتب الفتوى ويقول له:

- أرني ما كتبت.

فيناوله إياه فيتفحصه الشيخ ويقول:

- أردت أن أتأكد أن ما كَتَبْتَهُ هو عين ما أفتيتُ به، فأخشى أن يأتي من بعدي من يبطل فتواي بزعم التصحيف أو رداءة الخط، وهذا دأبي مع من يكتب عني، ألفِتُ انتباههم إلى ذلك.

ثم يلتفت الشيخ إلى أعيان الوفد ويقول لهم:

- هذه فتواكم قد أمضيتها لكم، فامضوا على بركة الله وأسأل الله أن يجعل لكم مما أنتم فيه مخرجا.

(32)

الأميرة طلنباي

القاهرة (721) هجري

حرص السلطان على استقرار أمر الدولة داخليا وخارجيا، فعلى الصعيد الداخلي أطلق حملة معمار ضخمة في القاهرة وفي غيرها، فبنى المدارس والجوامع والخلجان والخانات في كافة أقاليم الدولة وجرد العساكر لحماية الثغور، وكان همه الأول دولة مغول فارس التي كانت دائما مصدر التهديدات للدولة المملوكية، فانتصر عليهم في مرج الصّفّر وردهم عن الرحبة فما عادوا يتطلعون إلى الشام ومصر نهائيا، وأرسل حملة بحرية إلى جزيرة أرواد، يبدأ النصارى بالهجوم حتى لا يفكروا هم بذلك، ثم إن السلطان أرسل العيون وراسل أعيان العشائر العربية ونقباء الأشراف في العراق وفارس وخراسان ليعلم واقع خانيّة فارس، فأدرك بعد طول دراسة واضطلاع أن بوالسعيد سلطان الخانيّة الجديد قد أسلم وحسن إسلامه، لا كوالده خربندا وعمّه قازان، وأعاد البلاد إلى المذهب السني، والمعلومات القادمة من هناك تُشير أن الدولة في أيامها الأخيرة ولا وريث قوي لبوالسعيد إن مات، فحرص أن لا يستفزهم بحرب يتوحدوا فيها بعد أن اختلفوا واقتتلوا فيما بينهم، فالمرجح

أن تنتهي الدولة بموت بوالسعيد.

***

جلس السلطان في قصر قلعة الجبل على تخت المُلك بجانب المنبر في الإيوان الكبير المسمى إيوان يوسف نسبة إلى يوسف عليه السلام يوم حكم مصر، جلس مع أكابر الدولة والأمراء على نظام مضبوط، فجلس أولا قضاة القضاة من المذاهب الأربعة عن يمينه، أولهم الشافعيّ وهو الذي يلي السلطان ثم إلى جانبه الحنفيّ ثم المالكيّ، ثم الحنبليّ، وإلى جانب الحنبليّ الوكيل عن بيت المال، ثم الناظر في الحسبة بالقاهرة، وجلس على يسار السلطان بعد ذلك كاتب السرّ، ووقف أمام السلطان على بعد خمسة خطوات الوزير ونائب السلطنة وأرباب الوظائف وأرباب السيوف، ووقف وراء السلطان صفان عن يمينه ويساره من السلاحداريّة والجمداريّة والخاصكيّة، وجلس على بُعد خمسة عشر خطوة عن يمنيه ويساره ذوو السنّ والقدر من أكابر أمراء المئين وأمراء المشورة، وأسفل منهم أكابر الأمراء وقوفا وراء أمراء المشورة، ووقف خلف الحلقة المحيطة بالسلطان الحُجّاب والدواداريّة، استعدادا لإعطاء قصص الناس عند الطلب وإحضار الرُّسل وغيرهم من الشُكاة وأصحاب الحوائج والضرورات.

طلب السلطان من الوزير سيف الدين بكتمر التقدم:

- أيّها الوزير هات ما عندك، ما هي أخبار القتال بين بوالسعيد ونائبه سيف الدين جوبان.

- الأخبار تأتينا مُنَجَّمَة، وآخر ما وصل منها أن السلطان بوالسعيد انتصر على جوبان، وأمر بقتل حليفه الوزير رشيد الدين الهمذاني، أس البلاء والفتنة التي أصابت المسلمين في العراق وخراسان وفارس.
- لقد كان الهمذاني هذا طبيبا داهية يحسن شؤون الحكم وتدبير الأمور، لكنه كان سيء الطوية خبيث النفس، زَوَّر الأحداث في كتابه (جامع التواريخ) لصالح سلطانه قازان وخربندا من بعده. وقد أخبرني الشيخ تقيّ الدين عن مروق رشيد الدين الهمذاني عن الدين، وأنه من كبار ملحدي العصر وزنادقته، وأفتى حينها أن المغول الذين يحتفظون بمثل هؤلاء لا يستحقون إلا أن يكونوا من زمرة الملاحدة والرافضة.

يتوقف السلطان عن الكلام قليلا ويقف فتقف حاشيته، أخذ يمشي ذهابا وإيابا وكأنه تذكر شيئا وظهر على ملامحه القلق ثم مسح وجهه بيده وأكمل:

- وكيف سيكون المؤرخ صادقا وهو يكتب عن فترة، كان هو وزيرها الأول، فإن زَيَّنها زان هو، وإن شانها شان.
- لقد أمر السلطان بوالسعيد فقُطِّعت أعضاء الهمذاني وحمل كل جزء منها إلى بلدة، ونودي على رأسه بتبريز هذا رأس اليهودي الذي بدّل كلام الله، ثم أُحرقت جثته.

- أليس رافضيا؟
- هو يهودي زعم الإسلام وأظهر الرفض ودعا إليه.
- الحمد لله الأمور في خانيّة فارس تسير لصالح المسلمين، سنرسل إليه الهدايا والطُّرَف نهنئه بالنصر ونسعى عنده إلى علاقات حسنة ما لم يعتدِ ويفكر بما فكر به والده وعمّه من قبل.
- نعم الرأي رأي مولانا السلطان.

يلتفت السلطان إلى شادّ العمائر ويقول له:

- هات تقريرك أين وصلنا بالخطة؟
- لقد تم بناء خانقاه سرياقوس شمال القاهرة، وشارفت المدرسة الناصرية التي بدأ ببنائها زين الدين كتبغا بجوار القبة المنصورية على الانتهاء، أما جامع مولانا الناصر محمد بن قلاوون فقد عهدنا إلى المهندسين وضع مُخطّطه وسيباشرون فيه قريبا، وأمرنا بإعادة حفر خليج الإسكندرية لأن حركة السفن تعطلت فيه لارتفاع الطمي في قاعه عدة أذرع. أما في دمشق فقد تم تجديد القسم الجُوَّاني من حمام الزيت الذي في رأس درب الحجر، وبقي القسم البَرّاني، وقد جدد عمارته رجل ساويّ بعد ما كان قد درس ودثر من زمان الخوارزمية من نحو ثمانين سنة.

يعود السلطان إلى شروده ثم يقول:

- ذكَّرتني الشام بالشيخ تقيّ الدين فما هي أخباره أيها الوزير؟ والله لقد طالت غيبته ولم نره منذ سبع سنوات.
- ما زال في سجنه وتم ...

يقف السلطان غاضبا متفاجئا ويقطع كلام وزيره:

- ... في سجنه!! من سجنه ولماذا سجنه وكيف أكون آخر من يعلم بخبر مهم كهذا؟!
- عذرا أيها السلطان فقد سجنه نائب دمشق لأنه خالف أمر السلطان.
- أي أمر هذا؟
- ألم تمنعه يا مولانا من الفتيا بمسألة الطلاق، فلم يستجب حتى عندما جددت له الأمر.
- أمرته بعدم الفتوى ولم نأمر بسجنه.
- ....
- هل يريد نائب دمشق أن يلحق به إلى السجن، كيف لم يستأذنّا؟
- لقد أثارت فتوى الشيخ فتنة في دمشق وأربكت الناس، واختلط أمر القضاء في شأن الأنكحة والمواريث وما يترتب عليهما.
- نعلم أن الشيخ تقيّ الدين لا يقرّ لنائب في دمشق معه أيّ قرار، وأن الشكاوى والمكاتبات لم تتوقف بشأنه منذ

سلطنتنا الأولى، وليته يهدأ قليلا ويترك الأمراء للتفرغ لشؤون الحكم وتدبير حاجات الناس، لكن مع ذلك فلا يأمر بسجن الشيخ إلا نحن!

- يا مولانا السلطان لقد نَصَّب الشيخ نفسه محتسبا على العلم والفتوى، وعندما راجعه نائب الشام بذلك رد عليه بقوله: «يكون على الخبازين والطباخين محتسب ولا يكون على الفتوى محتسب».

- كم مضى عليه في السجن؟

- خمسة أشهر.

يلتفت إلى باب المجلس وينادي بصوت عال على الحاجب:

- أيها الحاجب.

- أمرك مولانا السلطان.

- أحضر لنا فورا أي بريديّ جاهز للانطلاق إلى دمشق.

يخرج الحاجب وقبل أن يصل إلى الباب ينادي عليه السلطان ثانية:

- بل أحضر لنا الأفوش فهو أسرع بريديّ لدينا.

يسير السلطان ذهابا وإيابا أمام كرسي الحكم وينظر إليه وكأنه أمير يحاسبه ويقول بصوت خفيض:

- هل ستُغني عني يوم أُسأل عن سجن ابن تيمية، لقد أنسيتني والله ماكنت عليه، لاحول ولا قوة إلا بالله.

- لا عليك أيها السلطان، سنُطيّب نفس الشيخ وهو كما تعلم يعفو ولا يحمل في نفسه.

يسكت الوزير قليلا حتى تهدأ نفس السلطان ثم يُكمل:

- هل يأذن مولاي، فبين يدي كتاب من محمد أوزبك خان مغول القفجاق.
- محمد أوزبك!! ذاك الذي طلبت الزواج من ابنته قبل ثلاث سنوات فَسَوَّف وتعذَّر.

يتوجه السلطان إلى الدكة التي عليها مخططات البناء والمشاريع، يتأملها بسرعة ثم يقول لشادّ العمائر:

- سنتابع غدا، فأعدّ لي تقريرا مفصلا عن بستان باب اللوق الذي أمرنا بزراعته، وعن الخانقاه الكبير الذي أمرنا ببنائه للفقراء والصوفية، وأمهلك ثلاثة أيام حتى تأتينا بالتكلفة المقدرة لمد الخليج المتفق عليه من القاهرة إلى سرياقوس وما يتبع ذلك من شق الترع وبناء القناطر والجسور عليه. وأفدنا غدا هل انتقل المسالحة إلى الدور الجديدة التي بنيناها لهم؟

يعود السلطان إلى سرير الملك، فيركز الحارسان على جانبي السلطان رماحهم في الأرض، يتنهد تنهيدة طويلة ويقول للوزير سيف الدين بكتمر، ها... إيش كنت تقول عن محمد أوزبك؟

- يبدو أنه تراجع عن رأيه بشأن زواج السلطان من ابنته.
- لأن دولتنا أصبحت ممتدة الحدود مهابة الجانب له معها مصالح وضرورات.
- لقد أخبرتنا العيون يا مولاي أن السلطان محمد أوزبك كان موافقا على زواجك من ابنته، لكنه لم يستطع الإقدام على خطوة مهمة كهذه دون إذن أكابر دولته، فاجتمع بأمراء سبعين تومانا وشاورهم في الأمر، فنفروا منه وقالوا: «هذا لم يحدث من قبل، أَنُجَهِّز ابنة ملك من ذرية جنكيز خان إلى مصر، وتقطع سبعة بحور؟»
- ما زال هؤلاء القوم يعظمون جنكيز خان رغم إسلامهم، أخبرني أيها الوزير ألم نرسل له الهدايا؟
- نعم يا مولاي لقد أرسلنا له جوشنا وخوذة، وبركستوان، وخلعة كاملة، وثياب أطلس مزركشة، وشاشا وكلفتاه ذهب، وحياصة ذهب، وفرسا مسرجة بلجام من الذهب المرصع، وجترا مرصعا بالذهب وسيفا بحلية من الذهب.
- وهل في كتابه هذا اعتذار أم أنه يستعلي علينا كعادته؟
- فيه اعتذار مُبطّن يا مولاي، فالكتاب جاء على مقدمة موكب ابنته الأميرة طلنباي التي أرسلها إليك لتتزوجها، بعد أن ألان جانب معارضي هذه الخطوة فوافقوا وقالوا: ما زالت الملوك تخطب إلى الملوك، وملك مصر ملك عظيم يلزم إجابته، لكن ذلك لا يتم

إلا بعد ثلاثة سنين؛ سنة كالم، وسنة مهاداة، وسنة خطبة ثم زواج، كما تقتضي عاداتهم ثم هو يقول في كتابه إن لم يستحسن السلطان الأميرة طلنباي فلا ضير، وردُّوا عليّ الأمانة.

- أوقد فعل؟

- لقد أصبحتَ يا مولاي من أقوى سلاطين الأرض، وهذا كتابه يلمح بذلك ولا يصرح، ويبدو أن الأميرة طلنباي قدمت بسبب ذلك في زينة وأبهة وفرسان وأمراء ومهرها معها.

- ومتى ستصل حفيدة جنكيز خان هذه؟

- في غضون أيام يا مولانا السلطان.

- استقبلوها في القصر ودع الأميرات والقهرمانات يُجهّزنها حتى أراها.

- إن أذن لي السلطان، لا بد من مراسم فحص العذرية قبل أن تشاهدها، فما ينبغي للسلطان أن يتزوج بكرا دون هذه المراسم، يشهد على عذريتها الشهود والثقات هكذا جرت العادة.

- افعل المطلوب.

يدخل الحاجب:

- لقد أحضرتُ الأفوش يا مولاي.

- أدخله.

يدخل الأفوش ويؤدي الخدمة بين يدي السلطان:

- السلام على مولانا السلطان أنا تحت أمرك فأمر.
- سمعت أنك أسرع بريديّ لدينا.
- ما سمعته صحيح مولاي السلطان.
- بكم تقطع المسافة إلى دمشق؟
- من أربعة أيام إلى خمسة.
- وبكم يقطعها البريد العادي؟
- من خمسة أيام إلى ستة.
- إذاً خذ كتابي هذا إلى نائب دمشق، ولا تتركه حتى يُخرج الشيخ تقيّ الدين من السجن، ولا تعد لنا إلا بأخبار عودة الشيخ إلى بيته معززا مكرما.
- أمرك مولاي.

يقف السلطان يرافقه الدردوان نائبه ويتوجه إلى الباب خارجا من الإيوان الكبير ويقول:

- جهزوا الموكب، أريد أن اقف بنفسي على الأضرار التي أحدثتها حرائق النصارى وليرافقنا من أرباب الوظائف من له صلة بالأمر وخمسة من كبار الأمراء مع جلبانهم متقلدين السلاح.

يخرج السلطان من قلعة الجبل بلباس المواكب، كامليّة من المخمل الاحمر يحيطها فراء السمور مع قلنسوة كلفتاة، فيأمر أمير

الطبلخانه الدبندار بدق الطبول بين يدي السلطان وينفخ المُنفرون الأبواق وتُضرب الكوسات وتُرفع المظلة فوق رأس السلطان، مزركشة بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلي بالذهب، ويسير خلفه ناظر الحسبة ورئيس الشرطة وأمامه الطرَّادون من الشرط يُبعدون الناس عن الموكب، وألف من أجناد الحلقة على جانبي الموكب يلبسون أقبية تترية ومعاطف البغلطاق يرفعون الأعلام الصفراء الصغيرة والسناجق وعلى مقدمتها الجاليش؛ راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب في رأسها خصلة من الشعر مكتوب عليها الناصر لدين الله أبو الفتح وأخرى مكتوب عليها الناصر لدين الله أبو المعالي.

كان قد وَقَعَ حريق عظيم في الدور الحسنة والأماكن المليحة المرتفعة في القاهرة، وبعض المساجد، وحصل للناس مشقة عظيمة من ذلك، وقنتوا في الصلوات، ولما بحث نائب مصر عن القضية تبين له أنها من قِبَل النصارى بسبب ما كان أُحرق من كنائسهم وهُدم، فقتل السلطان بعضهم تعزيرا وألزم النصارى أن يلبسوا الزرقاء على رؤوسهم وثيابهم كلها، وأن يحملوا الأجراس في الحمامات.

بدأ الأمر لمّا أمر السلطان بحفر بركة قريبا من الميدان وكان في جوارها كنيسة فأمر الوالي بهدمها، فلما هدمت تسلط الحرافيش وغيرُهم على الكنائس بمصر يهدمون على ما قدروا منها، فرد النصارى بحرق المساجد. ثم ثار النصارى لّما عُزّروا، فأخرج

السلطان من السجون جماعة من المسلمين ممن وجب عليه القتل سابقا فصلبهم، موهما أنه إنما عاقب من تعاطى تخريب الكنائس، فسكن الناس وأمنت النصارى وظهروا بعد ما كانوا قد اختفوا أياما. ثم خرّب السلطان كنيسة القرائين التي تجاه حارة اليهود بعد إثبات كونها محدثة وليست قديمة.

أكثر السلطان من الجولان في الأسواق بين الرعيّة راكبا أحيانا وراجلا في أخرى، يمشي بين الدور والبيوت والدكاكين إظهارا لهيبته من جهة وتواضعه من جهة أخرى. فكان يجتمع ويلتقي بكافة طبقات المجتمع ابتداء من أهل الدولة وأهل البزّ من الأغنياء، وأصحاب المعايش من السوقة، وأهل الفلح والزراعة، والفقراء من الفقهاء وطلاب العلم، وأرباب الصنائع والأجزاء، وأصحاب المهن وذوو الحاجة والمسكنة.

(33)

بوالسعيد

القاهرة (722) هجري

جُهِّزت الأميرة طلنباي للسفر إلى مصر، وكان في صحبتها جماعة من أمراء مغول القفجاق وقاضي مدينة صراي ومائة وخمسون رجلا وستون جارية فوصلوا بالسفن إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة، وكان معها رسلُ الخان محمد أوزبك حاملين معهم الهدايا من الجواهر والخيول المغوليّة الرشيقة. ومن أعجب ما قُدِّمَ بين يدي السلطان الناصر من الهدايا صخرةٌ وضِعت أمامه في قاعة الرسل وكبار الضيوف.

وقف السلطان مُتعجّبا والترجامدار الذي يُشَرِّد عنه الذباب بمِذَبَّته المُذهبة فوق رأسه، وقال مستنكرا:

- هل أصبحت الصخور هدايا السلاطين؟!

فيجيبه أمير الوفد المغولي:

- هذه ليست صخرة عادية يا مولاي السلطان، هذه صخرة سقطت من السماء.

يُقلّب الحضور نظرهم بين الصخرة التي يلمسها السلطان بيده وبين أمير الوفد متعجبين، فيكمل أمير الوفد:

- إننا يا مولاي نعيش في بلاد القفجاق أقصى الشمال، وتصل حدودنا إلى بلاد الفُلغار والروس وهي بلاد يكسوها الثلج في الشتاء ولا غير الثلج على سطح الأرض مسيرة شهرين، وهي مفازات خطرة لا نعبرها إلا بصعوبة ومشقة ويهلك أغلب من يسير فيها دون دراية، وهي لأنها كذلك فإننا أحيانا نجد فوق هذه الثلوج التي تمتد لعمق ذراع وأكثر، نجد هذه الصخور فوقها ولا مصدر لها إلا السماء، وقد شهد بعضُ سكان تلك المناطق لدى السلطان محمد أوزبك أنهم رأوها وهي تسقط، تكون في مُبتدأ أمرِها في السماء وكأنها كتلةُ نارٍ ولما يتتبعون أثرَها على الأرض يجدونها سوداء كالحة، كهذه التي أمام السلطان المُبجَّل.

يقول الوزير:

- عجيب أمر هذه الصخور أيها الأمير، ولكن كيف للسلطان أن يحتفظ بصخرة عادية في شكلها كتحفة في موجوداته النادرة ولا دليل على أنها من السماء.
- إن أذن لي السلطان أيمكنك إحضار المعاول والمهدّات ورجال أقوياء فإن استطاعوا كسر الصخرة فهديتنا مردودة.

ينادي السلطان على أمير السلاح ويسارّه ثم يقول:

- أيها الحاجب أحضر باي مظفر فهو أقوى الحرس في خاصكيّة القصر، وضربة يده بالسيف تفلق الهام، وتشق الرجل نصفين.

يذهب الحاجب فيحضر باي مظفر فيقول له السلطان:

- أيها الجندي هذه صخرة من السماء كما يزعم هؤلاء، وهي لا تُكسر ولا تُهدّ كما يقولون، فإن كسرتها وحطّمتها خيرتك بين جواري القصر تختار منهنَّ من تشاء، وهذه رقوق رِقّهُنَّ جاهزة.

يطلب السلطان من ناظر الخزانة أن يذهب إلى الخزانة السلطانية ويحضر الرقوق، ويمسك باي مظفر بالمهدّة ويثبت الصخرة على الأرض ثم يهوي عليها وكأن ضربته أغلى مهر لأجمل عروس، فترتد عليها المهدّة وبها هزّة عظيمة أرجعته للخلف خطوات وصدر عنها رنّة وكأنها جرس كنيسة.

- يبدو أنك زاهد بالجواري يا باي مظفر، أم أنك تحب عوضا عنهم التبر والجوهر، حطّمها واختر ما شئت.

يحاول باي مرة ثانية دون جدوى. فيُلِحّ السلطان:

- لعلك فارغٌ من شهوات المأكل والملبس والجماع يا باي مظفر.

يستأذن باي مظفر من السلطان أن يحضر أداة جُلبت حديثا من الهند، أضافها السلاحدار إلى عتاد وذخيرة القصر، تسمى القَتّارة وهي من الحديد المُقوى، شبه الدبسة في نهايتها، يلبسها الجندي في يده لغاية المرفق وتمتد ضعفي المسافة، فتكون ضربتها قاتلة من يد متمكنة تستفيد من طولها كي تهوي على الهدف فتفلقه وتُحطمه استخدمها الهنود لفلق رؤوس من يعارضهم.

يستمر السلطان في الحث والتشجيع:

- اكسرها يا باي ولك جارية تتميز بطيب الخَلوة ووفرة الحظ من اللذة.

يضرب باي بالقتّارة ضربة عظيمة فلا تضر الصخرة شيئا.

- وهي حسنة المعاشرة ورحمها بريء منذ ثلاثة أشهر.

أصبح كسر الصخرة بالنسبة للسلطان تحديا، فإما أن يكسرها ويثبت لمحمد أوزبك أن صخرته لم تعجز السلطان الناصر أبو المعالي، أو يَثْبُت لديه أنها صخرة من السماء، فيحتفظ بها في إيوانه ويضيفها إلى النوادر التي تأتيه من كل أصقاع الأرض. يضرب باي ضربة خامسة فتفت من عضده ولا تترك بالصخرة أثرا.

- اضرب يا باي فهي تتميز بالجمال الفائق وتُحسن من حركات الجماع ما لا يحسنه غيرها.

يضربها ضربة سادسة بكل ما أوتي من قوة فيقع على الأرض وتُكسر يده فيصرخ من الألم، فيشير السلطان إلى الحرس أن يحملوه خارجا ويقول له:

- سنرسل لك من الجواري من تُطببك يا باي لا من تُسَرِّيك، فقد عبتهنَّ بعجزك أكثر مما زَيَنتهُنَّ لك بوصفي، كان الأولى أن أُخَوّفك بسجن المِقْشَرة لا أن أُرَغِّبك بالجواري، ضعوا الصخرة في بلورة خاصة واعرضوها بمكان بارز مع رفيقاتها من العجائب والنوادر.

ينحني الوزير على السلطان يُذكّره أن رسل سبع دول وإمارات؛ صاحب برشلونة، وصاحب استنبول، وصاحب النوبة، وملك الكرج وجوبان وبوالسعيد وطغاي اجتمعت في قاعة الانتظار الملحقة بقاعة كبار الضيوف وهي تنتظر الإذن لها بالدخول، ثم يقول الوزير بصوت مسموع:

- اجتمع لمولانا السلطان من الرسل والسفارات في آن واحد أكثر مما اجتمع في بلاط الظاهر بيبرس البندقداري أيام الدولة الظاهرية، اجتمع له خمس سفارات واجتمع لمولانا ثمانٍ.

***

تستقر الأميرة طلنباي في القصر الأبلق وبعد أيام تبدأ مراسم كشف العذريّة، الجواري حولها يجهّزن المكان وينقلن

الأثاث ويضعن بدلا عنه مفارش وطيئة مخصصة، وهي تنظر إليهنَّ مستغربة لا تعلم ماذا يحدث فتسألُ أحداهنّ:

- ماذا تفعلن؟
- إنها مراسم فحص العذريّة.
- أيّ عذريّة؟
- عذريّتك أيتها الخاتون.
- عذريّتي أنا!!
- نعم سيدتي، فهذه مراسم لا بد منها لأي بكر يتزوجها السلطان.
- وما الداعي لذلك؟
- كيف سيضمن السلطان أن أول ولد لكِ هو ابنه، وكيف سيضمن أن زوجته شريفة عفيفة.
- معاذ الله، ماذا تقلن لم يخبرني أحد بذلك، ولست أرضاه.
- لا تنزعجي أيتها الخاتون، الإجراء بسيط وسيشهد عليه مجموعة من الأميرات وسيدات القصر.
- لا حول ولا قوة ألا بالله.

تسأل إحدى الجواري التي دسّتها زوجة السلطان الأولى خوند أردكين ضمن مجموعة من الكَنَّاسات اللواتي يكنُسن لها أخبار السلطان وجواريه، تسأل بخبث مُبطن:

- أهناك ما يُخيفُك يا مولاتي؟

تجيب الأميرة بطيبة وبراءة:

- طبعا لا يوجد، لكن هذه المراسم غريبة عجيبة ليست من عاداتنا.

تدخل قهرمانة القصر الأولى الست حدق وعليها الشادور الأسود مؤطرٌ بالذهب عند الكُمين وجيب الصدر وفي رجلها مَداس مُرصّع بالأحجار الكريمة، ومعها حريم كبار الأمراء وعليهنَّ الزُّناريات الموشّعة والجلال المُلَمّعة، فيدخلن غرفة الأميرة طلنباي وتطلب القهرمانة منها الاستلقاء على ظهرها والمباعدة بين أرجلها، فتفعل ذلك مكرهة خجلة والدمع يسح من عينيها، ثم تُشهد القهرمانة بعض الحريم ما شاهدته وما سَتَشْهَد عليه أمام مجموعة من الرجال خارج الغرفة، وتقول بصوت حنون بعد أن تغطي الأميرة وتربت على يدها:

- قومي يا خوندة، أميرة بنت أمراء وطاهرة بنت طاهرين.

تكحلت الأميرة وتعطرت بماء الورد وتلطخت بالغالية المجلوبة للقصر خصيصا من مقدشو، وقُدّمت في زينتها إلى السلطان ليعاينها، الجواري والقيان يغنين بين يديها والقناديل حولها مُضاءة والمشاعل مُسرجة، تجلس خلف غاشية من ستارة مرصعة بالجواهر، رفعتها الجواري من جوانبها، فرآها السلطان وبُهر بجمالها، ولمّا حدّثته أعجبه منطقها وشعر أنها رقيقة القلب رهيفة الروح، طيبة وبريئة لا خبث فيها.

تتحرك جارية خوند أردكين من فورها إلى سيدتها زوجة السلطان الأولى لتنقل إليها الأخبار الموكلة بجمعها فتدخل مخدعها وتسارّها: يبدو يا سيدتي أن السلطان كَلف بالأميرة طلنباي من أول نظرة وأحبها قبل أن يذوق عسيلتها وتذوق عسيلته.

تم ترتيب مراسم العرس وكان جهاز الأميرة طلنباي ألف ألف دينار، وذبح في هذا العرس من الأغنام والدجاج والإوز والبقر نحو من عشرين ألفا، وحُملت حلوى بنحو ثمانية عشر ألف قنطار، وحُمل لها من الشمع ثلاثة آلاف قنطار. ثم نادي الزُّعَاق في الأسواق أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون سيتزوج من الأميرة طلنباي بنت محمد أوزبك خان القبيلة الذهبية مغول القفجاق بن طغرلجا بن منگو تيمور بن طغان بن باطو بن جوجي خان بن جنكيز خان، وأن الخبز والعيش سيكون في يوم الزفاف مشاعا بين الناس غير مُتَمَلَّك تتحمل خزانة السلطان نفقته. وقرئ مرسوم السلطان على الناس: «عاهدنا الله تعالى ألا نردَّ من الناس آملاً، ولا نصدَّ عن مشارع كرمنا ناهلاً، ولا نُخيِّب من إحساننا راجيا، ولا نُخلي ظلِّ بِرِّنا لاجئا» سياسة عامة سيُعمل بها في كل الأقاليم.

زُفت الأميرة طُلنباي إلى السلطان في مماليكها وجواريها وفتيانها وخدمها، وهم نحو مئتين، عليهنَّ ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة بالجوهر، وعلى رؤوسهنَّ أكاليل الياسمين الأبيض والنسرين الأصفر، وعلى الأميرة حلة تترية مرصعة بما لا عين رأت من الأحجار الكريمة والجواهر،

وفرسها مجللة بالحرير المزركش بالذهب، وفي يديه ورجليه خلاخل الذهب، وفي عنقه قلائد مرصعة. وعظم السرج مكسو ذهباً، مكلل جوهراً.

***

دخل السلطان الناصر في ليلة الدخلة إلى مهجع الأميرة طلنباي فانقبض قلبه ولم يأنس بالجلوس معها كما أول مرة، و لم ير ما كان رآه من حسن وجمال ورقة، بل رأى حفيدة جنكيز خان أمامه لا الأميرة الطيبة الجميلة طلنباي بنت السلطان المسلم محمد أوزبك، لم يستطع الاقتراب منها وقد جال بخاطره أفعال جدّها الذي أراق دماء مائة ألف ألف من المسلمين واغتصب جنده المسلمات وبقروا بطون الحوامل وقتلوا الأطفال وهدّموا السدود وأغرقوا حواضر المسلمين ومدنهم وأحرقوها، حاول دفع وساوسه لكنها كانت تزداد كلما حاول الاقتراب من الأميرة، لاحظت الأميرة تردد السلطان فسألت برقة وغنج:

- هل ساء مولاي شيء فأزيله أو خُلقا فأعدله؟

نظر إليها وقد أخذته رقة وشفقة وقال:

- لا عيب فيك يا أميرتي، لكنه جنكيز خان جدّك الذي ما زلتم تعظمونه رغم إسلامكم.

قصد السلطان الناصر بهذا الزواج ترويض مغول القفجاق والتقرب منهم بعد أن هزم مغول فارس بانتظار تفكك دولتهم بعد بوالسعيد، وبذلك يكون قد بسط نفوذه بالحرب والسياسة والصلح على مساحات غير مسبوقة في عهد الدولة وأقام علاقات حسن جوار مع الممالك الإسلامية المجاورة والبعيدة، إلا أنّ للمشاعر الصادقة والفطرة السليمة سقف لا تستطيع السياسة خرقه، وللقلب حالات لا يستطيع العقل قهرها، وللمبادئ حد لا يمكن للمصالح تجاوزه، خرج السلطان من عند الأميرة طلنباي ولم يقربها، ففطر قلبها الرقيق وأسال عينيها البريئتين، تركها وخرج يمشي في رحبة القصر ذهابا وإيابا عدة مرات ثم ذهب إلى مخدع زوجته الأولى خوند أردكين وسط ذهول الخدم والحاشية.

***

جاءت الرسل من الحجاز إلى السلطان الناصر من عطيفة بن ابي نمّي أحد أميري مكة تخبره أن أخاه رميثة أمر بالخطبة لبوالسعيد في الحرم المكي بعد الخطبة للسلطان، فجنَّ جنونه وعقد مجلسا مستعجلا لنقاش الحادثة الخطيرة والتي قد تعني خروج مكة والمدينة عن حكم السلطان:

فبدأ الوزير بالحديث:

- لقد تأكدنا أن الخطبة لبوالسعيد كانت لجمعتين فقط ثم امتنع الخطيب عن ذلك لما وصلته تهديداتنا.

فقال السلطان:

- فما الذي دفعهم للخطبة له.
- لقد حسنت سيرة بوالسعيد بين المسلمين في العراق ووصلت الأخبار مع الحجاج العراقيين والخراسانيين إلى مكة، فأراد رميثة على خلاف رأي أخيه عطيفة تشجيع بوالسعيد على هذا النهج بعد الذي أصاب المسلمين من خانيّة مغول فارس على يد قازان وخربندا في العراق وخراسان وفارس.
- وما هي تلك السيرة الحسنة، هل من مزيد غير الذي نعرف؟
- لقد أعاد بوالسعيد المذهب السني إلى البلاد.
- لا جديد في ذلك؟
- وأراق الخمور وأبطل الحانات، وأظهر العدل والإحسان إلى الرعايا وخرّب البازار وزوج الخواطئ ومنع الزنا وحرم شتم الشيخين وعاقب في ذلك أشد العقوبة، وفرح المسلمون بذلك ودعوا له.
- وهل هذا يُسوِّغ لأمير مكة الدعاءَ له على منبر الحرم المكي، نحن من يرسم هذه السياسة لا العبد الآبق رميثة؟
- عفوا مولاي ربما تأخر السلطان فبادرت الرعيّة.

يجيب السلطان بانزعاج:

- بماذا تأخرنا؟

- أحببت أن أنقل لمولاي ما تتناقله ألسنة القاصي والداني، وليس بالضرورة أن يكون صحيحا.
- أليست سياستنا الحرص على حُسن القالة فينا وعدم حقد الرعيّة علينا؛ واضحة أيها الوزير، ردّوا الكلام السيئ بالأفعال الحسنة، بلا ضَعف ولا عَسَف.
- ذاك أمرٌ معمول به، لكن حديث الناس الطيب عن بوالسعيد ينحى منحى متصاعدا.
- إذاً لنرسل له الرسل والمزيد من الهدايا، ولنسعَ في الصلح مرة ثانية، وإن لم تكن رسل بوالسعيد قد غادرت القاهرة فأرسلوها لنا.
- أمرك مولانا السلطان.
- واجعل لي مجلسا كل يوم اثنين وخميس للنظر في المظالم، ونادوا بالأسواق أن قصص المشتكين سيقرأها السلطان بنفسه. ثم رتّبوا لحج السلطان خلال العامين القادمين، ورتبوا مع أمراء العرب لألتقي بهم في مكة.

نفذت الهدايا من السلطان الناصر إلى بوالسعيد وفيها خمسون جملا وخيول وحمار عتابي وفيها دعوة للصلح وافقت ما كان يخطط له السلطان منذ جاءته الكتب من أعيان ماردين، وبعد مدة وصل إلى دمشق من عند بوالسعيد الخواجة مجد الدين إسماعيل، وفي صحبته هدايا وتحف للسلطان الناصر، ونزل بدار السعادة يوما واحدا، ثم سار إلى مصر. ومعه الهدايا صناديق التحف والجوهر ولقي السلطان وتم الصلح.

(34)

عُطيفة ورُميثة

مكة (726) هجري

أولى السلطان اهتماما كبيرا بالخلجان وبنادر السفن والمراكب في البحر من حيث الحفر والصيانة وبالطرق البرية من حيث التعبيد والتأمين وبناء الحصون، واهتم بشكل خاص بطريق الحج المصري فقام بمشروع إنشائي كبير شيّد فيه عدة خانات ومنشآت مائية في منطقة العلائي وسط القريض، وبنى بركا لحفظ المياه على طريق الحج، فوفّر السقيا والطعام للحجيج والعلف لدوابهم. وكانت كسوة الكعبة المشرفة تمر بهذا الدرب، توضع في صناديق تحملها الجمال ترافق موكب الحجاج كل عام. تبدأ مراحل ومحطات الدرب من بركة الحج شمال القاهرة إلى السويس ثم الدار الحمراء، ومن عجرود إلى نخل إلى أيلة ثم إلى العقبة في سيناء، ثم يلتقي بدرب الحج الشامي في درب واحد إلى مكة.

تم تجهيز مَحْمَل الحج المصري بإطار مربع من الخشب هرمي القمة مغطى بستار من الديباج الأحمر، مطرز بخيوط من الذهب، ووُضِع بداخله مصحفان صغيران. طاف في القاهرة في

جولة استمرت لثلاثة أيام ضمن أجواء احتفالية واسعة في جميع أنحاء المدنية، وأحاط به حراس الموكب وشيوخ الطرق الصوفية بالإضافة إلى مهرجين يُسمون عفاريت المحمل. أوقف السلطان للمحمل خراج قريتين بالقليوبية، باسوس وأبو الغيط، من أجل النفقات المتعلقة به، وسار السلطان مع المحمل بالدرب في موكب مهيب يتقرب من الحجاج ويختلط بهم ثم ودّعهم عند بركة الحج شمال القاهرة وعاد.

قصد السلطان الحج بعد عدة أيام وله فيه مآرب أخرى، فيُرضي أمراء العرب بالهدايا والجواهر من جهة ويخوفهم من جهة أخرى بقدومه مع كبراء الدولة وأمراء العساكر والأجناد. أعدّ موكبه الخاص المكوّن من النُوق المهاري خفيفة الحركة سريعة المشي في الصحراء تُسرج كما تسرج الخيل، ومن النُوق البلخيّة السريعة التي يحضرها السلطان من مدينة بلخ، تقطع المسافة من القاهرة إلى مكة بعشرة أيام.

أرسل السلطان الرسل إلى مشرفة مكة تأمر أميري مكة عطيفة ورميثة بجمع أمراء العرب في الحجاز والبادية بعد الحج من أجل لقاء السلطان بهم، وأرسل على مقدمة موكبه الكهّارين والكيوانيّة للعناية بملابس السلطان وهندامه عندما يصل مكة ومعهم الفراشون والطباخون والدواديّة والسقاؤون والشربداريّة والخدم وأبقى قليلا منهم على النُوق المهاري يخدمونه في الطريق.

وصل موكب السلطان إلى مكة يوم الخميس كما هو مخطط

له لتكون صلاة وخطبة الجمعة أول ما يقوم به السلطان، فاستقبله أمراء البلد وأعيانها، وتوجه بملابس الإحرام إلى صحن الكعبة في اليوم الثاني لحضور الصلاة.

أُلصق المنبر المبارك إلى صفح الكعبة الشريفة، فيما بين الحجر الأسود والركن العراقي، ووقف الخطيب مستقبلا مقام إبراهيم ثم أقبل لابسا ثوب سواد، معتما بعمامة سوداء، وعليه طيلسان أسود. كل ذلك من كسوة السلطان الناصر الذي أسرع إليه بها قبل وصوله إلى مكة. أقبل الخطيب وعليه الوقار والسكينة، وهو يتهادى بين رايتين سوداوين، أمسكهما رجلان من المؤذنين، وبين يديه أحد القومة، في يده الفرقعة وهي عود في طرفه جلد رقيق مفتول، نفضه في الهواء فسُمع له صوت عال سمعه من بداخل الحرم وخارجه، إعلاما بصعود الخطيب إلى المنبر. وما زال كذلك إلى أن قرب من المنبر فقبل الحجر الأسود ودعا عنده، ثم قصد المنبر، ورئيس المؤذنين المؤذن الزمزمي بين يديه، لابسا السواد وعلى عاتقه السيف ممسكا له بيده، وتم ركز الرايتين عن جانبي المنبر. صعد أول درج من درجه فقلّده المؤذن السيف، فضرب بنصل السيف ضربة في الدرج سمِع بها الحاضرون، ثم ضرب في الدرج الثاني ضربة، ثم في الثالث أخرى. ولمّا استوى في عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة، ووقف داعيا بدعاء خفي، مستقبل الكعبة. ثم أقبل على الناس فسلم عن يمينه وشماله، ورد عليه الناس، ثم قعد. وأذّن المؤذنون في أعلى قبة زمزم في حين واحد.

ولما فرغ الأذان، خطب الخطيب خطبة أكثر فيها من الصلاة على النبي وقال: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف -وأشار بأصبعه إلى البيت الكريم- اللهم صل على محمد وآل محمد ما وقف بعرفة واقف. وترضى عن الخلفاء الأربعة وعن سائر الصحابة وعن سبطي النبي وأمهما وخديجة جدتهما، ثم دعا للسلطان الناصر واصفا إياه بأنموذج الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ثم دعا للسيدين الشريفين الحسنيين أميري مشرفة مكة. سيف الدين عطيفة وأسد الدين رميثة ابني أبي نمّي بن أبي سعيد بن علي بن قتادة. ولم يَدْعُ للسلطان بوالسعيد، ثم فرغ من خطبته وانصرف، والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة أمامه إشعارا بانقضاء الصلاة، ثم أعيد المنبر إلى مكانه الكريم.

منع السلطان الحُجَّاب من منع الناس الطواف معه، وطاف بالبيت مع عامة الناس يزاحمونه ويزاحمهم، وبعد أن خف الزحام مسح السلطان وكنس الكعبة والطواف بيده.

***

كان عطيفة ورميثة قد أعدّا للسلطان وحاشيته سماطا عظيما فحضره السلطان وأكابر الدولة والأمراء، وأرسل رئيس الطباخين الجاشنكير؛ الخبازين والطباخين والشوائين والحلوانيين والشربداريّة والسقائين المرافقين لموكب السلطان أرسلهم إلى مطبخ أميري مكة ليشرفوا على إعداد الطعام، ووقف الخاصكيّة بالخارج يحرسون.

استهل رميثة الحديث كنوع من الاعتذار للسلطان الذي تغيّر خاطره عليه بسبب ما بدر منه بشأن بوالسعيد وقال:

- السلام على مولانا السلطان الناصر سلطان المسلمين وخادم الحرمين الشريفين أبو المعالي محمد بن قلاوون.

تفاجأ السلطان الناصر بهذا اللقب الذي كان أول من تسمى به من المماليك الظاهر بيبرس البندقداري يوم أرسل الكسوة الشريفة للكعبة أول مرة، فلم يكن بالعادة أن يعترف أمراء مكة بهذا الشرف لغيرهم بسهولة فَسُرَّ السلطان بذلك وأزال ما ران على قلبه من رميثة فهشَّ بوجهه وبشَّ وردّ عليه:

- وعليكم السلام أيها الأمير.

فقال عطيفة:

- تشرفنا بكم وتشرفتم ببيت الله الحرام، فالسلام على سلطان المسلمين.

يجيب السلطان:

- وعليكم السلام، كلنا خدم لبيت الله ولدين الله ندين بذلك ونتشرّف.
- الحمد لله الذي أكرم المسلمين بسلطان أمره بين الحج وبين تجريد العساكر، فحفظ الله به البلاد والعباد.
- هذا من فضل الله علينا وعلى عباده الصالحين.

يدخل الخدم ويضعون على السماط طباهج اللحم المُطيَّب بالتوابل والبصل والرز المفلفل بالسمن، ومختلف أنواع الطعام الفاخر والنادر من الإسفيذباجات والبقول والكوافيح والمخللات والأطعمة الحارة ومعها خبز الأرز والقمح، ثم يتبعهم خدم آخرون بأنواع الأشربة من آنية زمزم وشراب اللبن المُنكّه والسويق الساخن والجُلّاب وماء الورد، والفواكه من البطيخ والبرتقال والأجاص، والحلويات من الكليجا والفالوذج وعصيدة مطبوخة بحليب البقر ومغطسة بالعسل وحلواء قمر الدين، ثم يضع آخرون على دكة بجانب السماط قِلال الماء والصابون غير المُطيب لغسل الأيادي والصابون الآجُري والمناشف، ويضعون العطور والأبخرة من رحيق الريحان و الزعفران على دكة أخرى لغير المحرمين.

يشير رميثة بيده إلى المائدة:

- تفضل مولانا السلطان فأنت صاحب البيت وسلطانه.

يتقدم جاشنكير السلطان إلى السماط ويتناول من كل طيفور وطبق لقمة، يأكل منها قبل أن تمتد إليه يد السلطان، أمر بذلك السلطان خشية السمّ بعد قتله للجاشنكير بيبرس والأمير سيلار وتحذير الشيخ تقيّ الدين له حينها بقوله: إن اخترت القتل للانتقام فيجب عليك أن تحفر قبرين أولا. فلا يأكل السلطان إلا مما أكل وشرب منه الجاشنكير للتأكد من سلامته.

يناول الجاشنكير السلطان ماء زمزم بقدح من خزف ليكون

أول ما يبدأ به إذ هو مبارك لا يضر معه شيء، فينظر عطيفة إلى رميثة مستغربان فيلاحظهما بعض حاشية السلطان فيقول:

- هذه مراسيم أكل سلاطين الدولة، لا يدعونها لا في حضر ولا في سفر، ولستما بذلك مقصودين من دون الناس.

يتدخل عطيفة ليرفع الحرج فيقدم للسلطان بعضا من الأطعمة التي أكل منها الجاشنكير:

- تفضل يا مولاي، هذه سمبوسك وهي من طعام أهل الهند ممن يقدمون بلادنا للحج، وهو لحم مهروس مطبوخ بالجوز واللوز والفستق والبصل والأبازير ملفوف برقاقة من الدقيق المقلي بالسمن.

يتناول السلطان قطعة منها ويذوقها ويبدي إعجابه بها.

- وهذه نسميها الكشري وهي من بلاد السند. وتلك الكرنبة.

ثم يمسك رميثة بصينية فيها ورق أخضر مطبوخ ومُتبّل ويقدمها للسلطان:

- وهذا يا مولانا اسمه التنبول يأتينا من مدينة ظهار في بلاد بنغلة، أعدّها لك التنبولداري على وجه خاص وبديع، ويُؤكل معها الفَوْفَل، ويقال يا سيدي أنها تكفي لقوت يوم كامل كما أنها تقوي الرغبة في الجماع.

ينظر السلطان إليه ويبتسم ويضحك الحضور فيتابع رميثة كلامه يتودد فيه إلى السلطان:

- وأزيدك يا مولانا من الشعر بيتا، فقد أخبرني محمد بن عبد الله اللواتى المعروف بابن بطوطة لمّا مرّ بديارنا للحج، أن في بلاد جونفين من جزائر الهند نوعا من السمك له قوة عجيبة في الباءة لا نظير لها، كان يأكله كل يوم فيطوف على زوجاته الأربع وبعض جواريه في ليلة واحدة، مكث على ذلك عاما ونصف.

يتدخل القاضي بدر الدين بن جماعة قائلا:

- «فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ» يا مولانا السلطان وهذا من الرفث.

يستغفر رميثة ويستغفر معه الحضور ويقول السلطان:

- ارفعه عن المائدة يا رميثة، وأحضر بدلا عنه الكافور فهو مُثبّط، وأحضر التنبول لنا وللقاضي بدر الدين ثالث أيام التشريق.

يضحك القاضي والجميع ثم يستأنف السلطان:

- أخبرنا يا رميثة هل حّدثك اللواتي عن عجائب أسفاره غير قصص الجواري والتنبول؟
- من أعجب ما سمعت منه يا مولاي قصة قَدَم آدم عليه السلام عند جبل سرنديب، وهو من أعلى جبال الدنيا

بين الهند والصين، قال لي ابن بطوطة أنه لما صعده كان يرى «السحاب أسفل منه وفيه كثير من الأشجار التي لا يسقط لها ورق، والأزاهير الملونة، والورد الأحمر على قدر الكف. وفي الجبل طريقان إلى القدم: أحدهما يُعرف بطريق «بابا»، والآخر بطريق «ماما». والمقصود بهما حسب أهل المنطقة آدم وحواء عليهما السلام. فأما طريق ماما فطريق سهل، عليه يرجع الزوار إذا رجعوا. ومن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر، وأما طريق بابا فصعب، وعر المرتقى. وأثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم عليه السلام في صخرة سوداء، مرتفعة بموضع فسيح. وقد غاصت القدم الكريمة في الصخرة، حتى عاد موضعها منخفضاً. وطولها أحد عشر شبراً».

- هل يعقل هذا يا رميثة؟

يسبق القاضي بدر الدين بن جماعة رميثة بالجواب ويقول:

- الأمر ممكن ومحتمل يا مولاي فقد ورد في الحديث أن طول آدم كان ستين ذراعا في السماء.

يتدخل عطيفة قائلا:

- يا رميثة دع السلطان يتناول الطعام ساخنا قبل أن يبرد ثم حادثه بما شئت.

***

أتم السلطان وأمراء العرب مناسك الحج وتم التحضير للاجتماع الكبير في دار مشرفة مكة والذي أراد منه السلطان أن يُجدد بالترغيب والترهيب ولاء الحجاز وما جاوره من قبائل العرب، بعد أن ضمن ولاء اليمن التي جرد لها قبل عدة أشهر خمسة آلاف مقاتل لنصرة أميرها الموالي لدولة المماليك على عمّه المخالف لهم.

اعتمد السلطان مباشرة أمور الحكم بالأصالة لا بالنيابة بين الفينة والأخرى، من أجل المحافظة على الأقاليم موحدة تحت سلطانه، فأي نيابة لا يتبعها متابعة ورقابة تعني بالضرورة الفرقة والخلاف وتشتت البلاد بين أصحاب الأغراض والأهواء، وكانت خشية السلطان من أن يمتد نفوذ مغول فارس إلى الجزيرة العربية في محلها، فلم يتهاون مع ما أحدثه رميثة من الدعاء لبوالسعيد حتى لو لجمعتين فقط، واعتبار ذاك خرقا خطيرا وهو يخالف ما خطط له بالسياسة والدهاء من الحد من خطورة بوالسعيد رغم ما يظهر من صلاحه.

اجتمع أمراء العربان من بني مهدي وأشراف مكة وأشراف المدينة وينبع وخليص وبني لام وعربان حوران وغيرهم ممن لم يتفق اجتماعهم لملك قبل السلطان الناصر. فقدَّموا بين أيديهم الهدايا النفيسة كان أكثرها من الخيول العربية الأصيلة التي اشْتُهر حب السلطان لتملُّكها، واستخدامها في الصيد وعنايته الشخصية بها.

جلس السلطان الذي سالمته الأيام وهادنه سائر الملوك والحكام، ولم يكن أحد من الأمراء والسلاطين يقصد الحج إلا ويرسل مستأذنا منه ومعلما له، جلس بطلعته البهيّة وحسن هندامه على أريكة سلطانية أُعدت خصيصا له، مُحلّاة بالصدف والأحجار الكريمة وعن يمينه أميرا مكة عطيفة ورميثة وعن شماله نقيب الأشراف وقضاة مكة وتوزعت حاشيته حوله وجلس أمراؤه؛ طقتمر وطوغان وزبيغرا وبيبغا وياياقا وإياق وسنجر وبكتمر وأيدغمش وصوصون وطغجي وبُغا وجركتمر وأرس وآقبغا خلفه شاكّين سلاحهم على هيئة ترهيب مرسومة، تُذكّر العرب بأيام وفودهم على كسرى وقيصر.

حضر الأمراء إلى دار الحكم وتقدموا بالخدمة بين يدي السلطان وجددوا له الولاء والسيوف مقلّدة على وسطهم لم ينزعها عنهم حرس السلطان كم جرت العادة، أراد السلطان بذلك كسب ثقتهم وولائهم، فللعرب من عزة النفس والأنفة ما لا يوجد لغيرهم من الأمم، حفظها لهم السلطان فحفظ بذلك احترامهم له وتقديرهم، ثم تقدم كبيرهم فقال:

الحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، لقد منّ الله على المسلمين إذ بعث فيهم من يجدد الدين وينصر الملة ويحفظ البلاد والعباد، فقامت دولة المماليك فأحيت الخلافة بعد موتها وأقيم للخليفة العباسي في القاهرة دار حكم وسعادة، والحمد لله الذي

نصر عبده السلطان الناصر لدين الله أبا المعالي محمد بن قلاوون ابن أبيه السلطان الكبير الجليل المنصور قلاوون فاتح طرابلس، وأخا السلطان الأشرف خليل فاتح عكا وطارد الصليبيين من ديار المسلمين، أبا الفتح الذي رفع سيفه وركب فرسه وهو ابن سبعة عشر عاما فهزم التتار في مرج الصّفّر وطردهم من بلاد الشام إلى الأبد

سَل المَرْج يوم الحرب عن حملاته

وقد شَخُصَتْ فيه إليه النّواظرُ

فلا رُمْحَ إلا وهو للصَّدرِ طاعنٌ

ولا سيف إلا وهـو للهام باترُ

قتل قازان غما وكمدا، وبدد جمع خربندا، وغزا النصارى في جزيرة أرواد فسيّر إليها المراكب البحرية وقطع فيها أطماع الصليبيين من ديار الإسلام. فعدم العدو التتري والصليبي حركته في البر والبحر، ما زالت أعاديه من هيبته مرتدين ضالين غير مهتدين، قد سُلّت سيوفه عليهم في اليقظة والمنام حتى عادوا لا يتلذذون بلذيذ المنام.

ملك البَرَّيْن الشام ومصر، وسلطان البحرين الروم والحبشة، وخادم الحرمين المكي والمدني.

نحمد الله أن أمد بأعمارنا فرأينا أفضال السلطان على

الحرمين، ذلل الطرق، وحفظ الأمن، وكسى البيت، عمّر البلاد والأقاليم، ورعى العلم والعلماء، ففاضت مكتبات البلاد بإنتاج وفير من الكتب والمخطوطات في شتى العلوم والتخصصات، وحّد المسلمين ممن امتد إليهم نظره من برقة على ساحل إفريقيّة والقيروان إلى الفرات، ومن قلاع الروم وبلاد الترك إلى اليمن والنوبة.

مولانا السلطان الناصر محمد بن قلاوون أبا المعالي نُجدّد لك البيعة.

ويلتفت إلى جمع العرب ويقول لهم: قوموا بايعوا سلطانكم الناصر.

فيتقدم الأمراء وعلى رأسهم عطيفة ورميثة يبايعون السلطان ويقبلون يده.

(35)

أردكين بنت نوكاي

القاهرة (726) هجري

هجر السلطان الناصر الأميرة طلنباي ولم يدخل بها، ثم إنّه طلّقها وزوّجها من أحد أمرائه وعاد به الحنين إلى زوجته الأولى خوند أردكين بنت نوكاي السلاحدار أم أولاده فأكثر من رفقتها والتردد إليها، فهي الوحيدة بعد الست حدق التي يُظهر ضعفه بين يديها، وردد على مسامعها كثيرا أنه رفض أن يجمعها وهي بنت السلاحدار المجاهد أمير السلاح في الدولة والزوجة السابقة لأخيه الأشرف خليل فاتح عكا وطارد الصليبيين من بلاد المسلمين تحت سقف واحد مع طلنباي حفيدة جنكيز خان كما رفض الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجمع ابنته فاطمة الزهراء تحت علي بن أبي طالب مع ابنة أبي جهل، فيُسعِدها كلامه ثم ما تلبث أن تتذكر كثرة جواريه وتنقله بينهنَّ ليلا فتعود إلى غمّها الذي لا تُظهره، لأنها خاتون مصر الأولى وما ينبغي للخاتون أن تقارن نفسها بالجواري، فهي سيدة وهنّ إماء، لكن الغيرة تغلبها فتتبع أخبار الجواري عند طريق الكنَّاسات اللواتي يأتينها بأخبار الجواري وأيهنّ أحب إلى السلطان، فتحاول أن تصرفها عنه بالمكر والخديعة دون أن يجدي

ذلك نفعا، لأن كثرة الهدايا والجواري التي تأتي السلطان من مغول فارس ومغول القفجاق وسلطان الهند وسلطان الصين وأمير الدولة المارينية وكافة ممالك الأرض تُغنيه عن أي جارية تُبعدها خوند أردكين، فعددهنّ يفيض عن حاجة السلطان لعام كامل لو طاف كل ليلة على واحدة منهنّ فقط، أما بالنسبة للسلطان فإن الجواري كنَّ للمتعة والتسرية، والخاتون أردكين كانت للأنس والود والمشورة يُسِرّ إليها ويسمع منها وتسمع منه.

جلست الخاتون على طرف سريرها المصنوع من الأبانوس يتدلى من الخيوط التي تصل بين أعمدته الأربعة المُتوجة بالعاج؛ الحرير المُحلّى بالذهب، وقالت للسلطان:

- «حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عليَّ» لقد أتم الله عليك نعمه يا محمد وبلغت الأربعين، وقد والله كسيت وأركبت وأطعمت وأحسنت وجئت بحميد الأفعال وجميل الأعمال، وأقمت العمائر وزينت البساتين بالعجائب أكثر ما أعجبني منها نوافير الماء على هيئة أسود تمجّ الماء مجّا من فمها...
- مضت وكأنها أيام قليلة.
- أطال الله عمر مولاي السلطان، ربما تكون قليلة بنظرك ولكنها بعيون أعدائك طويلة، فها هي البركات تحل علينا ترافق بلوغك الأربعين مع زيادة وفيضان نهر النيل لم يسبق لها مثيل منذ مائة عام، فلماذا أنت قلق ومُحتار؟

- حيّرني أمر نائب مصر الجديد هل أُعيّن سيف الدين قيدار أو لا؟
- أليس من أصحاب الشيخ تقيّ الدين؟
- كان يختلف إلى دروس الشيخ مدة إقامته بمصر وهو شهم وشجاع.
- فما المشكلة إذاً؟
- لا مشكلة فيه، لكن وكيلي السابق عبد الكريم بن هبة الذي بلغ عندي من المنزلة والمكانة ما لم يصل إليها غيره من الوزراء الكبار، فاستغل إطلاقي يده في شؤون مصر وثقتي فيه بظلم الناس وَبَلَصَ أموالهم، ووالله إني كدت أقتله خنقا على حبل المشنقة في وسط القاهرة، فقد انقلب إلى مَكَّاس أَشِرْ يغصب أموال الناس عوضا عن رعايتها وتنميتها، وبلغ به الأمر ألّا يستنجي إلا بإناء من فضة، وهذا ما لم أفعله أنا ... وأنا السلطان.
- لكنك مسكته ورسمت عليه فلا يغادر بيته إلا بإذن وإن فعل سيف الدين قيدار مثله نكّلت به كما نكّلت بعبد الكريم بن هبة.
- لا أظن أحدا من تلاميذ الشيخ يفعل ذلك وقد سمعت أنه توعد الشطّار وأنه سيريق الخمر ويحرق الحشيشة إن أصبح وزيرا.
- إذاً ستستقيم به أحوال القاهرة ومصر وسيفرح الناس بذلك ويدعون لك. فما داعي التردد؟!
- أصبحت كثير التردد بعد عبد الكريم بن هبة وثقتي بمن

حولي اهتزت، تأمّلي يا أردكين لقد أقنعني ابن هبة بزيادة أعطيات الجنود والبحارة في الأساطيل المملوكية واستشهد بكلام الملك الصالح أيوب في وصيته لابنه تورن شاه «فالأسطول أحد جناحي الإسلام. فينبغي أن يكونوا شباعاً. ورجال الأسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهما مستمرة راتبه، جاؤوا من كل فجٍ عميق» ثم اكتشفت أن هدفه كان من زيادة النفقات سرقة جزء منها.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- سأعمل على توزيع مهام الوزير إلى ثلاثة مناصب على كل منصب شخص مستقل حتى لا يستفرد بأمر الدولة شخص واحد، فأولا سيكون إلى ناظر المال وشادّ الدواوين أمرِ الأموال والنفقات والكلف، وإلى ناظر الخاص تدبير جملة الأمور وتعيين المُباشرين، وإلى كاتب السر التوقيع في دار العدل، فلا يقدر أيّ من الثلاثة الاستقلال بأمر الدولة وحده، ويلزمهم دائما الرجوع إليّ.

- خطة محكمة، وقد عاقبت عبد الكريم بن هبة وأحسنت اختيار البديل، فدعك من القلق والتردد فزواج ابنتك خوند من الأمير أرغون التتري سيكون بعد أيام فبماذا أمرت وماذا ستفعل؟!

- سيبدأ إستدار القصر بعد أيام بترتيب عقد قرانها على الأمير أرغون، وقد رتبنا لحفل ختن جماعي لجماعة من أولاد الأمراء، وسنمد سماطا عظيما، وأمرت بنثر شكائر الفضة على

رؤوس المطهرين. وطلبت من الخازندار أن يعطي الإستدار ما يلزمه من نفقات لذلك.

***

شهدت مصر والشام والعراق هدوءًا واستقرارا حرص خلالهما السلطان على الإشراف بنفسه على إعداد المماليك في قلعة جزيرة الروضة في النيل وكان دائما يقول: «يبلغ الأستاذ قصده في مملوكه، ويبلغ المملوك قصده في أستاذه، إذا رأى المملوك سعادة تملأ عينيه وقلبه، نسي بلاده، ورغب في أستاذه» وكان السلطان حريصا على شراء المماليك وهم صغار لم يتأصل فيهم حب أوطانهم حتى يُنشؤوا كما يريد، فيتم إعدادهم على خطة الملك الصالح أيوب في إعداد العساكر والأمراء والتي تطورت لمّا أصبح الحكم بأيدي المماليك أنفسهم، أول ما يبدأ به تعليم المملوك وهو صغير ما يحتاج إليه من القرآن ومعرفة الخط والتَّمرن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار. ثم يتخصص كل مملوك بالدور المناط به فيتلقى من العلوم والتدريب ما يناسب موقعه، فمنهم المماليك السلاطنيّة: وهم على أربعة أقسام، الخاصكيّة الذين يلازمون السلطان في كل أوقاته وخلواته، والنوبة، والحرس السلطاني خارج القصر، والقراصنة وهم قدامى المحاربين. ثم يأتي بعد ذلك أجناد الحلقة وهم جيش الدولة ثم أجناد الأمراء وهم جُلبان كل أمير وجنده.

تبادلت السفارات بين السلاطين والملوك وتابع السلطان

الناصر ذلك بعينه الثاقبة للمحافظة على التوازن الذي أحدثته سياسته، فما إن بدأت مملكة التكرور بالنهوض في إفريقيّة حتى حرص على لقاء ملكها الشاب الأشرف موسى بن أبي بكر وتبادل السفارات معه، واستغل السلطان خروج الأشرف موسى إلى الحج فرتب للقائه أثناء مروره بالقاهرة، ولموسى هذا مملكة متسعة مسيرة ثلاث سنين. وتحت يده أربعة وعشرون ملكا، كل ملك تحت يده خلق وعساكر، وتجاور بلاده الشاسعة بلاد السلطان من جهة النوبة والسودان، فقدم القاهرة ونزل بالقرافة ومعه من المغاربة والخدم نحو من عشرين ألفا، ومعهم ذهب كثير بحيث إنه نزل سعر الذهب في القاهرة درهمين في كل مثقال، ولما دخل قلعة الجبل ليسلم على السلطان. أراد السلطان اختباره فطلب من الحاجب أن يطلب منه تقديم الخدمة للسلطان الناصر وتقبيل الأرض بين يديه فامتنع، فأدرك السلطان أن لا سبيل لمد نفوذه إلى وسط إفريقيّة، فأكرمه السلطان واعتذر إليه بأن هذا خطأ الحاشية لما جرت عليه العادة في بلاطه ولم يكن يعلم به، وأحضر له حصانا أشهب بِزْنَارِي أطلس أصفر، وهُيِّئت له هجن وآلات كثيرة تليق بمثله. وأرسل هو إلى السلطان أيضا بهدايا كثيرة من جملتها أربعون ألف دينار، وإلى النائب سيف الدين قيدار بنحو عشرة آلاف دينار، وتحف كثيرة.

***

قرئ كتاب السلطان بمقصورة الجامع الأموي بحضرة نائب السلطنة تنكز والقضاة، يتضمن إطلاق مكس الغلة بالشام،

فكثرت الأدعية للسلطان الذي أمد الشام بالغلة بعد الغلاء المفرط في دمشق بلغت فيه الغرارة مائتين وعشرين، وقلت الأقوات، ورغم ضيق الحال إلا أن دمشق تزينت لاستقبال أصهار السلطان الناصر من مغول فارس حيث قدم جماعة من حجاج الشرق وفيهم بنت الملك أبغا بن هولاكو، وأخت أرغون زوج ابنة السلطان الناصر خوند وعمّة قازان وخربندا، فأُكرمت وأنزلت بالقصر الأبلق، وأجريت عليها الإقامات والنفقات إلى أوان الحج.

***

حضر الشيخ تقيّ الدين خطبة جلال الدين القزويني في الجامع الأموي مع الشيخ شمس الدين محمود الأصبهاني الذي لازم الشيخ منذ قدومه من الحج في العام الفائت، وبعد الخطبة اجتمع ثلاثتهم فقال الشيخ تقيّ الدين:

- لابد لنا من الذهاب إلى الأمير تنكز فحال البلد بعد الغلاء لا يحتمل هذه الاحتفالات بقدوم حفيدة جنكيز خان من أجل الحج.

فيجيبه الشيخ القزويني:

- هؤلاء أصهار السلطان الجدد.
- وهل ذلك يبرر إنفاق الأموال عليهم وهم من هم في غناهم وسلطانهم؟

يتدخل شمس الدين الأصبهاني ويتحدث على سبيل المداعبة:

- يبدو أنك يا شيخنا تصرّ على المشاكسة رغم بلوغك الرابعة والستين.

فأجاب القزويني:

- وهل تظن أن الأمير سينصت إليك بشأن أصهار السلطان، وقد تكلم الناس بنية السلطان الزواج من ابنة الأمير تنكز.
- الخير باق، وهم ينصتون، ألم تعلم ما حل بالزنديق ناصر بن الشرف الهيثي؟

يسأل الأصبهاني الشيخ تقيّ الدين متحفزا:

- وماذا حدث له.
- لقد ضُربت عنقه بسوق الخيل على كفره واستهانته واستهتاره بآيات الله، وصحبته الزنادقة كالنجم بن خلكان، والشمس محمد الباجريقي، وابن المعمار البغدادي، وكل فيه انحلال وزندقة مشهور بها بين الناس. وقد حضرت ضرب عنقه مع مجموعة من العلماء والأكابر والأعيان، وقد أتيته وقرّعته وقلت له: لقد كنت في أول أمرك تقرأ في الختم بصوت حسن، وعندك نباهة وفهم ثم انسلخت من ذلك جميعه.

القزويني:

- تلك زندقة يسمع لك فيها الأمير والسلطان، أمّا السرف والترف والنفقات فهي دون ذلك ولن يسمعوا لك.
- أتريد أيها القزويني أن نكتفي من الأمير الرسم بإخراج الكلاب من دمشق لما زادت وتكاثرت وآذت، أو نقتصر بمسك المنجمين وتسليمهم إلى النائب.
- ألم تعلم يا تقيّ الدين أن قاضي القضاة بمصر منع شهاب الدين المري من الكلام على طريقتك في القاهرة بموضوع الاستغاثة.
- نعم أعلم ذلك وقد أحضروه بين يدي السلطان وأثنى عليه جماعة من الأمراء.
- لكنهم نفوه إلى الشام رغم ذلك، ثم نزح إلى بلاد الشرق وأقام بسنجار، الإنسان يا تقيّ الدين لا يدوس نفس المكان في النهر مرتين لأن الماء يجري كما الأيام تجري، ألا يدلك هذا على شيء؟
- على ماذا يدل؟
- يدل على أن الوحشة بينك وبين السلطان زادت، فالأُذن مجَّاجة والقلب حمض، ولم يعد كما كان معك في الأيام الخوالي فقد جرت تلك الأيام ومضت كما تجري مياه الأنهار.
- وهل هي قصة حب حتى يكون فيها أيام خوالٍ وأيام بواقٍ، هو حكم شرعي يتحمل السلطان مسؤوليته أمام الله، يوم يسمح للناس الاستغاثة بغير الله، والأسوأ أن يُمنع العلماء من الكلام في ذلك.

- أصلحك الله يا تقيّ الدين، ما قصدته أن السلطنة انشغلت بامتداد مساحتها وتعدد أقاليمها فما عاد السلطان يعبأ كثيرا بهذه الأمور، ونائب دمشق سيف الدين تنكز ليس الأمير آقوش صديقك القديم. دعك من أحلامك القديمة بإصلاح الراعي والرعيّة يا تقيّ الدين، وإن لم تستطع فادفن الواقع فذلك أبسط بكثير من إزالة الأحلام.
- عندما تسابق يا شيخنا، وتصل إلى آخر خمسين خطوة، جسدك كله يخبرك بالتوقف، عضلاتك مشتعلة، وأنفاسك المتعالية تصرخ فيك، كل شيء بداخلك يريد أن يستقيل، ويزيل الألم، ولكن إن أردت الفوز فهذا عندما تتجلد أكثر وتسرع أكثر.
- تمثيل جميل.
- لاحول ولا قوة إلا بالله إنما علينا البلاغ حتى آخر رمق.

يلتفت الشيخ إلى شمس الدين الأصبهاني ويسأله:

- هل عاد سَمِيّك شمس الدين ابن قيّم الجوزيّة من زيارته إلى فلسطين؟

يبتسم الأصبهاني ويرد ضاحكا:

- وهل تظنّه سيأتي بابي أولا، أو سيأتي بابك؟
- الله أعلم.
- هو يا شيخنا يحبك حبا جمّا، ولا يطيق فراقك والتَّلَقي عنك، فأنا أولى بسؤالك عنه لا أنت.

(36)

مات الشيخ

دمشق (728) هجري

عُدّتُ إلى دمشق من جولة في فلسطين زرت فيها نابلس ولم أزر فيها الخليل، وارتقيت منبرا في حرم القدس الشريف، وقلت بعد أن بيّنتُ للناس فتوى الشيخ تقيّ الدين في الزيارة «ها أنا من هنا أرجع إلى دمشق ولا أزور قبر إبراهيم عليه السلام في الخليل». فدخلت دمشق فوجدتها خبط عشواء بسبب فتوى الشيخ بشأن زيارة قبور الأنبياء رغم أنها قديمة أفتى بها قبل عشرين سنة، وسبقني إلى دمشق كُتب الناس تشكوني إلى الأمير بسبب موقفي الذي كاد أهل نابلس أن يقتلوني لأجله لولا حماية مُتولِّيها.

كانت فرصة انتهزها خصوم الشيخ لزجه في السجن للمرة السابعة، إذ ما زالت آثار مناظراته القديمة معهم التي أظهر فيها أن بضاعتهم في العلم مزجاة أمام علمه، وكان التحدي الذي أمهلهم فيه ثلاث سنوات بشأن إثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات دون نفي أو تعطيل أو تشبيه أو تحريف؛ بأن يأتوا بأي نص أو قول

لأي فقيه من فقهاء المذاهب الأربعة أو أي عالم معتبر في القرون الثلاثة الأولى يقول بما يقوله هؤلاء المُحَدِّثون المُحْدِثون خاصة بشأن التأويل الذي أصبح يسميه الشيخ تحريفا، وكان دائما ما يذكرني بذلك على رأس كل سنة قائلا:

- يا ابن قيّم الجوزيّة مضى الآن كذا وكذا سنة على التحدي ولم يأت أحد منهم بنص.
- كان ذلك بعد ميلادي بست سنوات يا شيخنا، وعمري الآن خمسة وثلاثون سنة والحال على ما هو عليه.
- وسيبقى كذلك إلى يوم الدين، لأنه لا يوجد نص يؤيد ما ظنّوه إعمالا للعقل في أمر غيبي أُمرنا أن نؤمن به يوم عرفنا بعقولنا أنه من عند الله العزيز الحكيم، وقد قرأت كل كتب تلك الفترة في المسألة وحفظتها، وكنت أعلم من هؤلاء بأصول مذاهبهم لكنهم يكابرون.
- لعلك لو تلطفت معهم لربما آمنوا بما تقول يا شيخنا.
- لا أنكر أن طريقتي في الكلام لا تقبلها النفوس مرهفة الحس، ولكن ما علاقة ذلك باتباع ما ثبت عن الله ورسوله في أمر خطير يتعلق بالعقيدة والإيمان.
- إن سمح لي شيخي، فقد ورد في الأثر أنّ «النصح ثقيل فلا ترسله جبلاً، ولا تجعله جدلاً، والحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان». وقد أكثر عليك الناس يا سيدي فلو احتجبت قليلا حتى تهدأ النفوس.

رفع الشيخ كفه إلى فيه ونفخ فيه قائلا:

- إن هم إلا كالذباب.

كانت فتوى الشيخ بمسألة الزيارة واضحة بيّنة قام عليها الدليل، لكنهم حرّفوها وسعوا لدى السلطان بذلك حسدا على الشيخ لما كان له من مكانة بين الناس، تتقاطر إليه الجموع أينما حلّ أو ارتحل، تسمع كلامه وتحضر دروسه وتقرأ على يديه ومجالسهم فارغة خاوية، الشيخ وكما سمعت منه بأذني لم يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل، بل يستحبها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك ويستشهد عليها بحديث «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة» إنما كان تحريمه لشد الرحال إلى القبور، فزوّروا عليه أنه يحرم زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فحضر إليه من جهة نائب دمشق تنكز مشد الأوقاف، والحاجب ابن الخطيري، وأخبراه أن مرسوم السلطان بسجنه، وأحضرا معهما مركوبا ليركبه، وكان من عجيب أمر الشيخ أنه أظهر السرور والفرح بذلك، وقال: «أنا كنت أنتظر ذلك، وهذا الحبس خير كثير ومصلحة عظيمة»، وركبوا جميعا من القصاعين إلى باب القلعة، وأخليت له قاعة وأجرى إليها الماء ورسم له بالإقامة فيها، وأقام معه أخوه زين الدين يخدمه بإذن السلطان، ورسم له ما يقوم بكفايته. وقرئ كتاب السلطان بالجامع الأموي فضجّ الناس وانزعجوا لحبس شيخهم. أما هو فكان يقول: «لا أُحب أن يُنتصر لي من أحد بسبب كذبه عليّ أو ظلمه وعداوته فإني قد حلّلت كل مسلم وأنا أحب الخير لكل المسلمين وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي»

وقد حدثني الأمير قطلوبغا الفخري لاحقا أنه حضر مجلس السلطان الذي قرر فيه سجن الشيخ، وأنه لم يكن له رغبة في ذلك ولكنه خضع للضغوط المتوالية من القضاة والفقهاء ومن نائب دمشق بأن الشيخ أثار عليهم العامة، وما زالت فتواه في مسألة الطلاق تضرب بآثارها دواوين القضاء والمواريث والتركات رغم أن الفتوى انتشرت في بلاد المسلمين وأخذت بها عموم الأقاليم داخل الدولة وخارجها لما فيها من مصلحة عظيمة قام عليها الدليلُ في حفظ أُسرِ وبيوتِ الناس والتخفيف عنهم، ثم جاءت فتوى الزيارة فصوّرها خصومُ الشيخ للسلطان وكأنها تحقير للرسول خالف فيها إجماعَ الأمة وحرَّم زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال أعداء الشيخ في حضرة السلطان ما أزعجه واتهموا الشيخ أنه حطّ على بعض سلف العلماء، وحلَّ قواعد كثيرة من نواميس القدماء، وقلَّ توقيره للكبراء، وكثر تكفيره للصوفية الفقراء، وزيَّفَ غالب الآراء، وقرَّب جهلة العوام وأهل المراء. فكان من كلام السلطان الذي لم يفرغ بعد من الحزن على وفاة زوجته خوند أردكين: لقد أشغلنا والله الشيخ، ومع ذلك هو أعلم منكم بأمور الدين، لكنه بفتاويه أقام علينا الدنيا ولم يُقعدها، فأغضب أكابر الدولة والقضاة، ولست أملك أن أرضيه وأغضبهم، فالدولة امتدت والأشغال كثرت ولا وقت لدينا لمثل هذه الأمور، فاسجنوا الشيخ ولا تهينوه وأكرموه في سجنه وأجروا عليه النفقة وأرسلوا معه من يخدمه فقد بلغ السابعة والستين من عمره، وإني ليحزنني سجنه ولكنه لم يترك لي الخيار، ثم إني أوكل النواب والقضاة بالتعامل معه بما تقتضيه

الشريعة، سامحه الله لو رضي أن يكون منّا بمنزلة القاضي أبي يوسف من هارون الرشيد لصدرت فتاواه باسمنا وألزمنا الناس بها ولعله بذلك يكون إمام مذهب خامس جديد تنشره الدولة بين الناس وفي الأقاليم، لكنه أبى ولم يترك لنا من خيار إلا سجنه. فإن فتر عن خصومه وقصر عن بسط لسانه وقلمه فيهم ... فأطلقوه.

ثم تنهد السلطان تنهيدة طويلة وقال: «ليتكم لأصحابكم مثله لأعدائه وخصومه، بَشَّرته يوما بموت أكبر أعدائه فنهرني وأنا السلطان، وقام من فوره إلى بيت أهله فعزَّاهم وقال لهم إني لكم مكانه. ولمّا وقع بيد صاحب قبرص أسارى من المسلمين كتب له رسالة أمره فيه بالرفق فيهم وتخفيف الوطأة عنهم وقصّ عليه أقوالا من كلام المسيح عليه السلام مثل قوله من ضربك على خدك الأيمن فدر له الخد الأيسر، وعلمتُ أنّ صاحب قبرص خفف عنهم وعمَّرَ لهم جامعا. فأين أنتم منه».

فقال الشيخ تقيّ الدين السبكي وكان من الذين حضروا المجلس:

- أطال الله عمر مولانا السلطان، كنت قد عظّمت من شأن الشيخ ولكن ألا يدُلُّ كثرة أعدائه من السادة العلماء على فساد منهجه.

فيقول الشيخ ابن قوّام بعد أن يستأذن السلطان:

- والله ما أسلمت معارفنا إلا على يد ابن تيمية، وهو شجيً

في حلوق أهل الأهواء المبتدعين، وإمام قائم ببيان الحق ونصرة الدين، طنَّت بذكره الأمصار، وضنَّت بمثله الأعصار.

يُسكتهم السلطان بإشارة من يده ويرد غاضبا على بعض من حضر من القضاة والمشايخ:

- ما جاء أحد بمثل ما جاء به محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام إلا عودي. اغربوا عن وجهي لا أبا لكم.

فينظر ابن قوّام إلى جمع من الحضور من أعداء الشيخ وهو خارج من المجلس ويقول:

- آه من الأقران، طوائفُ كُلُّها أو بعضُها التَّتَرُ، فكم من جليل غدا من ذمّ عصْرِيّه يبكي.

تتعالى أصوات همهمة ممن حضر المجلس احتجاجا على كلام ابن قوّام، فينظر إليه السلطان شزرا وقد نوى نية سوء ثم يتدارك ويسكت حتى يخرج من المجلس ثم يقول: «إن الله منذ ملَّكنا أمور خلقه، ألهمنا أن ندور مع الحق حيث دار، واستطردنا في إبطال كل فاحشة، من مكوس أبطلناها، وجهات سوء عطّلناها، ومظالم رددناها إلى أهلها، وظلمة زجرناها، ومعروف أقمنا دعائمه» كلُّ ذلك بإشارة من الشيخ ابن تيمية يوم عدنا إلى ملكنا معززين مكرمين، وكان أغلبكم يا من هَمْهَمْتُم ونفختم إما غائبا وإما مخالفا، وصنّف لي بذلك مصنفا في سياسة الراعي والرعيّة، فما لكم كلما

ذكر اسمه ملأتم الدنيا علينا صريخا وصخبا، سأسجنه حتى تهدأ النفوس ويُحفظ الأمن وتسكن نار الفتنة ... تبّت يدا أبي لهبها.

مع أنّ الشيخ كان يجيز شد الرحال إلى المسجد النبوي ويجيز زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أنّ بعض خصوم الشيخ اعتبر فتواه بعدم شد الرحال إلى قبور الأنبياء تحقيرا للرسول عليه الصلاة والسلام، وكَفَّره بعضهم وسعوا لدى السلطان تكرارا بقتله لكنه رفض ذلك رفضا قاطعا واكتفى بحبسه، ثم صادروا كتبه ومنعوها من التداول، وأمر قاضي القضاة في دمشق بحبس جماعة من أصحاب الشيخ في سجن الحكم، وذلك بمرسوم نائب السلطنة تنكز فيما تقتضيه الشريعة في أمرهم، وعزر جماعة منهم على دواب ونودي عليهم ثم أطلقوا، فتفرقت أتباعُه وتفرقت كتبُه وذهب كلّ واحد بما عنده من كتب الشيخ وأخفاها، حتى إن منهم من تُسرق كتبه أو تُجحد فلا يستطيع أن يطالب بها خوفا من المُساءلة، وظهرت الخبايا التي كانت تُكنُّها الضمائر، وتبين أنّ البَهرج من الأقوال كشفته الفتنة فظهر على حقيقته، وضعف من أصحاب الشيخ من كان عنده قوة، وجبن منهم من كانت له همّة، أمّا أنا فكان لهم معي شأن آخر، إذ اعتبروني أكثر طلاب الشيخ خطورة، فأركبوني حمارا وطافوا بي البلد وراحوا إلى الصالحية ثم أمروا بسجني مع الشيخ في سجن القلعة. وكان أول كلام الشيخ معي لمّا رآني قوله تعالى «فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ» يواسيني بذلك ويقول: يا ابن القيّم داخل سور السجن خير ورحمة إن شاء الله.

اطّلعت على نسخة من الكُتب التي أرسلها علماء العراق إلى السلطان عن طريق دمشق يشفعون في الشيخ، لكن أعداءه حجبوها ومنعوا وصولها إلى القاهرة، وكان منها: «لما قرع أسماع أهل البلاد الشرقية والنواحي العراقية التضييق على شيخ الاسلام تقيّ الدين أحمد ابن تيمية سلمه الله، عظم ذلك على المسلمين وشق على ذوي الدين وارتفعت رؤوس الملحدين وطابت نفوس أهل الأهواء والمبتدعين، ولما رأى علماء أهل البلاد عظم هذه النازلة من شماتة أهل البدع والأهواء بأكابر الفضلاء وأئمة العلماء، أنهوا حال هذا الأمر الفظيع والأمر الشنيع الى الحضرة الشريفة السلطانية زادها الله شرفاً، وكتبوا أجوبتهم في تصويب ما أجاب به الشيخ سلمه الله في فتواه وذكروا من علمه وفضائله بعض ما هو فيه وحملوا ذلك بين يدي مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره وضاعف اقتداءه، غيرة منهم على هذا الدين ونصيحة للإسلام وأمراء المؤمنين». وحدثني ابن شيخ الحزَّامين البغدادي أنه حاول إيصال الرسالة للسلطان كونه من الفقراء الذين تحولوا إلى مذهب الشيخ وطريقته ونبذ ما عليه خصوم الشيخ فلم يستطع، وقال لي: «لم يُر تحت أديم السماء مثل شيخ الإسلام». فكيف يفعلون به ذلك.

حض الشيخ تلاميذه وأتباعه على الهدوء فسكنت القاهرة بسكون دمشق، وتفرغ السلطان لما هو أهم، فرسم إلى نائبه بمكة إخراج الزيديين من المسجد الحرام لما أحدثوا فيه من فتن، وألّا يكون لهم فيه إمام ولا مجتمع، وأرسل على حذر منه وترقب تهنئة إلى دولة العثمانيين الفتيّة لفتحها مدينة بورصة وانتصارها هنالك على ما جاورها من التتار.

وصلنا في السجن خبر وفاة ابن المطّهر الشيعي العراقي

وهو شيخ الروافض في تلك النواحي واشتغل على نصير الطوسي، وكان من شأنه أنّه لمّا ترفّض خربندا حظي عنده وساد جدا وأقطعه بلادا كثيرة، وقد كان يحلو للشيخ تسميته ب (ابن المنجّس) ورد على كتابه (منهاج الاستقامة في إثبات الإمامة) الذي خبط فيه في المعقول والمنقول، وخرج فيه عن الاستقامة. في مجلدات أسماها (منهاج السنة النبوية) أتى فيها بما يبهر العقول من الأشياء المليحة الحسنة، وهو كتاب حافل وقد دارسه الشيخ معي في السجن.

أسوأ ما وصل الشيخ من أخبار بعد سبعة أشهر وفاة أخيه، الشيخ شرف الدين عبد الله الذي كان شديد الخوف والشفقة على الشيخ تقيّ الدين، كان كثير العبادة والتألّه والمراقبة والخوف رحمه الله، فحزن الشيخ عليه حزنا شديدا، وأذن له الأمير تنكز أن يحضر جنازته وَدفنه في المقبرة الصوفية.

ندم الأمير على السماح للشيخ بالظهور لما أحدثه ظهوره من ضجة لدى العامة ولم يكن ذلك في محله حيث عاد الشيخ إلى السجن بنفسه ولو أراد أن يستعصم بالناس لاستعصم وامتنع، كان السجن بالنسبة له خلوة عكف فيه على صلاة القيام وقراءة القرآن وتدبر معانيه وعلى الكتابة والتصنيف وكان قد شرع في الرد على ابن الأخنائي في مسألة الزيارة، فاستجهله بطريقته المعهودة وأعلمه أنّه قليل البضاعة في العلم.

طلع الأخنائي بنفسه إلى السلطان وشكا الشيخ، فرسم السلطان بإخراج ما عند الشيخ من الكتب والأوراق والأقلام، ومنع من الكتب والمطالعة فكان ذلك مبدأ مرضه ومنشأ عَرَضِه، كأنه حوت أُخرج من بحر، وحُملت كتبه في مستهل رجب إلى خزانة

الكتب بالعادلية الكبيرة وكانت نحو ستين مجلدا، وأربع عشرة ربطة كراريس، فنظر القضاة والفقهاء فيها وتفرقوها بينهم، وعزم حينها القاضي ابن الزملكاني على أمر سوء بعد عودته من القاهرة حيث سيُنَصّبه السلطان قاضي قضاة الشام.

لم يمنع ذلك الشيخ من الكتابة رغم أن إحدى عينيه نقص نورها، وكان معمودا تأتيه آلام شديدة في معدته وأمعائه ولم ينفع معه نقيع الشعير الذي كان يحضره له آمر السجن، فكتب على جدران السجن بالفحم وأخرج أوراقا مكتوبة به وكان من أشهر ما كتبه بالفحم «ومن سنة الله إذا أراد إظهار دينه أقام من يعارضه، فيحق الحق بكلماته، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق» وكان يقول لي: يا ابن قيّم الجوزيّة «أكثر الناس شكّا عند الموت أصحاب الكلام»، وها أنا ألقى وجه ربي سيفا مصلتا عليهم راضيا مطمئنا. كم رأيته ليلا في السجن وعلى صلاته رقّة حاشية تأخذ بمجامع القلوب، وصحوت عليه في آخر أيامه ينشد خفية ويقول:

أنا الفَقيرُ إلى رَبِّ البَريّاتِ
أنا المِسْكينُ في مَجْموعِ حالاتي
أنا الظّلومُ لنَفْسي وهِيَ ظالِمَتي
والْخَيْرُ إنْ يَاتِنا مِنْ عِنْدِهِ ياتي
لا أسْتطيعُ لِنَفْسي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ
ولا عَنِ النّفْسِ لي دَفْعُ المَضَرّاتِ
وليْسَ لي دونَهُ مَوْلىً يُدَبّرُني
ولا شَفيعٌ إذا حاطَتْ خَطيئاتي

إلا بِإذْنٍ مِنَ الرّحْمنِ خالِقِنا
إلى الشّفيعِ كَما قَدْ جا في الآياتِ
ولسْتُ أَمْلِكُ شيئاً دونَهُ أبَداً
ولا شَريكٌ أنا في بَعْضِ ذَرّاتي
ولا ظَهيرٌ لَهُ كَيْ يَسْتَعينَ بِـــــهِ
كما يَكونُ لأرْبابِ الوَلايـاتِ
والفَقْرُ لي وَصْفُ ذاتٍ لازمٌ أبَداً
كما الغِنى أبَداً وَصْفٌ لَهُ ذاتي
وهذهِ الْحالُ حالُ الخَلْقِ أجْمَعِهِم
وكُلُّهُمْ عِنْدَهُ عَبْدٌ لَهُ آتي
فَمَنْ بَغى مَطْلَباً مِنْ غَيْرِ خـالِقِهِ
فَهْوَ الْجَهولُ الظّلومُ المُشْرِكُ الْعاتي
والْحَمْدُ للهِ مِلْءَ الْكَوْنِ أجْمَعِهِ
ما كانَ مِنْهُ وما مِنْ بَعْدُ قَدْ يَأتي
ثم الصلاة على المختار من مضر
خير البرية من مـاض ومـن آتي

فقلت له:

- رأفة بنفسك يا شيخنا.
- أخشى من ذنوبي وتقصيري يا ابن القيّم.
- قدّس الله سرّك يا شيخنا، أيّ تقصير هذا وأيّة ذنوب!
- لقد حمَّلَنَا الله أمانة أبت السموات والأرض والجبال حملها.

- وأنا أشهد بين يدي الله أنك أدَّيتها، فقد جدّدت للناس دينهم، وأعدت الإسلام إلى ما كان عليه يوم نزل، وأزلت عن المسلمين ركام مئات السنين من البدع والجهل والتأويل...

رفع الشيخ رأسه المتدلي ونظر إليَّ، فرأيت في وجهه تواضع المُخبتين وفي عينيه الدامعتين شفقة المُقبل على ربه، وصحّح لي قائلا:

- التحريف وليس التأويل يا ابن القيّم.
- ... والتحريف، وأزلتَ ما بين الناس وما بين كتاب ربهم وسنة نبيهم من أقوال الرجال والتعقيب على أقوالهم والتعاقيب على التعقيب، وأحييت ما درس من أقوال القرون الثلاثة الأولى في اعتقادات الناس، ووقفت حائطا صلبا أمام دين قازان الجديد، شكله شكل الإسلام وحقيقته حقيقة الكفر، خليط من الأديان ومن زبالة أفكار الناس ومّما تقيأ به الهالك جنكيز خان على البشرية، راجت سوقه في بلاد الإسلام وخُدع به العوام، ولولا ردّك عليه بالحجة والبرهان لكان الآن دينا مُتّبعا من الصين إلى الأندلس.
- كفى يا ابن القيّم

أنا المُكَدّي وابن المُكَدّي وهكذا كان أبي وجدي

- لن أكتفي يا شيخنا فهذا أوان إحسان الظن بالله، وهذه شهادتي التي سأشهد بها أمامك في الدنيا كي تلقى ربك مُطمئنا، وسأشهد بها في الآخرة أمام الله، فقد قوَّمت معوجَّ الناس وأصلحت فسادهم ولممت شعثهم، وأنت من فتح لي باب العلم كما فتحته لجمع كبير من تلاميذك الذين أصبحوا الآن مُحدّثين عظماء وعلماء أفذاذ، ما إن تزول عنهم هذه الفتنة حتى ينتشروا في أصقاع الأرض يبشرون بدين محمد صلى الله عليه وسلم وقد جدّدته فعاد أبيض ناصعا كالمحجة البيضاء التي تركنا عليها صلوات ربي عليه، إن الأوثان التي طال عليها الأمد فاستحكمت في عقول الناس وترسّخت في نفوسهم وأُشربت قلوبهم حُبها في دمشق وغيرها من بلاد المسلمين، لم يجرؤ على تحطيمها كبار العلماء والفضلاء، كالعمود المخلّق ومسجد الكف وصخرة مسجد النارنج وقدم النبي وما ماثلها من أوثان أخرى في الحكم والسياسة وفي المعاش والاجتماع فكنت أنت من حطّمها بيده وبدّدها بقلمه .
- الفضل لله وليس لي، كنت آمل أن يكون السلطان الناصر هو مجدّد الدين في هذه المئة وخاطبته بهذه الصفة مرّات، وحرصت أن يكون لقاء العلم بالحكم، والمشيخة بالسلطنة ممّا يقربنا من حكم الخلفاء الراشدين، ولست أعلم بعد هذه السنوات ما يفعل الله بي وبه، الغاية عزيزة يا ابن القيّم والجهد مُقل والطريق طويل، وملك الموت

لنا بالمرصاد وأظنّه على وصُول.

- أطال الله عمرك يا شيخنا، الفضل لله أولا وآخرا؛ بأن أرسلك على رأس هذه المئة حتى تقوم بما قمت به، ألجم الله بك الملاحدة والحلوليّة والمبتدعة والرافضة والنصيرية وأهل الجبل والنصارى واليهود وأهل الكلام، وكنت حربا على الفلسفة التي فَلَّسْتَ أصحابها وتَيَّستهم وهتكت أستارهم وكشفت عوارهم، ورفعت الحرج وأحييت من الشريعة ما جاءت به من التخفيف عن الناس ...

- أقلني يا ابن القيّم، قصدتُ أكبر من هذا الذي تقول، فقد أنزل الله الكتاب وأنزل معه الحديد ليقوم الناس بالقسط، فلا رسالة بغير قوة تحميها وتحملها إلى الناس كافّة ولا قوة بغير شريعة تضبط حركتها، فباجتماع الشيخ والسلطان يكون القسط والعمران وبفراقهما يكون الخراب والخسران.

يَشُدّ الزهدُ العلمَ من طرف، كما الطغيانُ يَشُدّ الحُكمَ من طرف مقابل، لِيُبقياهما على مسافة تسمح للعالم بالزهد وللحاكم بالطغيان، فإن التقيا؛ احتنك الزهدُ الطغيانَ فَرَوَّضَهُ، وأخرج السلطانُ الزهدَ من العجز فحرَّرهُ، فيلتقي بذلك العلم بالحكم والشيخ بالسلطان، يعود بالبشرية إلى أفضل أيامها يوم تجسّد العلم والحُكم في شخص واحد، فتخرج الأرض كنوزها بالعدل والعمران، كسالف أيام حُكم نبينا محمد وسليمان وداود وكلاحق أيام عيسى آخر الزمان عليهم أفضل الصلاة والسلام، وفيما بينهما

اجتمع العلم والحُكم في شخص الخلفاء الراشدين ثم انفكا عن بعضهما إلا لماما من الزمن، كأيام الخليفة عمر بن عبد العزيز والسلاطين من أمثال يوسف بن تاشفين، وبقيا يقتربان ويبتعدان في شخصين لمئات من السنين. وقد تعبت في هذه الغاية وحانت راحتي يا ابن القيّم، لم أخلُ من فتنة إلا إلى فتنة، ولم أنتقل طوال عمري من محنة إلا إلى محنة، كما قال المثل «ما سَلَّم حتى ودّع»، وأظن أجلي حان وأريد أن أكمل مع أخي زين الدين ختمة القرآن التي نحن بصددها ...

- فَسَّحَ الله في مُدَّتكم يا شيخنا، سأقيلك ولكن ليس قبل أن أكمل، لقد ألان الله لك العلوم كما ألان لداود عليه السلام الحديد، وقد سعيت في إصلاح الراعي والرعيّة وصنفت في ذلك وكتبت وعملتَ به على طوع من الناس والأمراء وعلى كرهٍ منهم، وجاهدت في سبيل الله تبتغي الموت مظانّه في مرج الصفر والكسروان وغيرهما، وبلغت مُصنَّفاتك ومُجلَّداتك وكراريسك أكثر من خمسمائة، قال أولو النهى فيك «ما رأينا في عصرنا هذا من تُستجلى النبوة المحمّديّة وسنتُها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل بحيث يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقة» ولعل من يأتي بعدك يستدرك الفارطات الفائتات ويكمّل الغايات والنهايات، ويصل بحضرة العلم إلى سدة الحكم كما أملتَ، فيتحقق من صلاح الأمة ما ظنه الناس لا يصلح إلا بمهدّيٍ أو نبي ...

يقف الشيخ بصعوبة وهو يسعل ويتألم ويربت بيديه على كتفي وتخرج الكلمات من فمه بصعوبة:

- دعك من ذلك يا ابن القيّم فالله أعلم بالنوايا والأعمال، وإني والله لأرجو أن أخرج من الدنيا كفافا لا لي ولا عليّ، فقد خالفت الرسول في أمور، إذ لم يُحبّب إليَّ من الدنيا إلا الصلاة، وحُبّب إلى الرسول الصلاة والنساء والطيب فأستغفر الله وأتوب إليه، وإن كان ما قلتَهُ صحيحا فها هي الراية أضعها بيدك فتابع بها المسير من بعدي عَلّكَ أو من يخلفك يُجدد فينا سيرة الشيخين وعثمان وعلي رضي الله عنهم وعن الصحابة أجمعين، فما أظن الشمس ستشرق عليَّ غدا فالحُمّى لم تتركني منذ سبعة عشر يوما فاتركني وشأني ...

سالت مدامعي ونظرت إلى شيخي آخر النظرات وكأن وجهه شمع يجلوه، مثل العروس رغم ما فيه من مرض، ثم ذهبت إلى مهجعي فاستيقظت واستيقظ أهل دمشق سحر ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة من عام ثمانية وعشرين وسبعمائة من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم على صوت مؤذن قلعة دمشق ينادي بأعلى صوته من على منارة القلعة:

مات تقيّ الدين أَبُو الْعَبَّاسِ أحمد بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْن عَبْدِ السَّلَامِ النُّمَيْرِيُّ الْحَرَّانِيُّ

مات شيخ الإسلام

مات ابن تيمية

(37)

الخليفة

القوص (731) هجري

في صعيد مصر على مسيرة عشرة أيام من القاهرة على الضفة الشرقية لنهر النيل في بيت فسيح وبين الخدم والحشم والجواري، جلس الخليفة المستكفي بالله تحت عريش رحبة البيت في ليلة قائظ حرّها ساكنة ريحها مع نديم مسامرته وصاحبه القديم في القاهرة سهيل بعد أن نفاه السلطان الناصر مع أهله وذويه، وكانوا قريبا من مائة نفس إلى القوص، مغموما لما فاته من نعيم قصره في القاهرة ومهموما خائفا من بطش السلطان به، يُقلّبُ نظره بين خدم غير مأموني الجانب وبين صاحبه سهيل، فلمّا تأكد من خلوتهما وحدهما تحت العريش بعيدا عن الدار مسافة تسمح لهما الكلام بحرية وصراحة لا تصل إلى من وُكِّلَ بجمع أخباره وإرسالها إلى السلطان، قال لسهيل:

- ها... أكمل ما كنت تقول.

- ما الذي أغضب السلطان ليقلب لكَ ظهر المجن، لا بد أنّ هناك من ألقى في أذنه كلاما عنكم يا مولانا بأنكم تطالبون

بإعادة الخلافة لما كانت عليه أيام آبائكم المنصور وهارون والمعتصم.

- وهل بقي لنا منها إلا رسمها، وهل لنا بها حيلة أو لنا عليها طاقة.

- إذاً الأمر لا يتعدى الوشايات والإشاعات.

- إن أردت الحق، فالخلافة في قريش ونحن أحق بها من هؤلاء العبيد المماليك.

يفتح سهيل عينيه على اتساعهما ويُشنف آذانه ويقول:

- صدقت الإشاعة إذاً.

- خليفة بلا خلافة، هكذا انتهى بنا الحال بعد عزّ الدولة العباسية التي بلغت الصين شرقا والأندلس غربا، والله لقد جار علينا الزمان.

- لا تسبوا الدهر يا مولانا.

- أستغفر الله، بل جرنا على أنفسنا، فالمُلك لا يذهب هكذا عبثا دونما أسباب ودونما أحداث اجتمعت واستحكمت، فهذا السلطان الناصر قد عزّ حكمه وامتدّ، بينما خلافتنا غدت مجرد رسوم وتاريخ زاهر، يتغنّى بظله المماليك ويفرح بها عوام المسلمين والرعاع، ونحن فيها مثل المساخر والمُهرّجين.

- أنعم بكم سادة لقريش وأنعم بالخلافة العباسية من خلافة.

- ضعفت همّتنا يا سهيل وقلّت حيلتنا، ونحن من نحن، نحن من اصطفانا الله لهذا الأمر دون الناس، كل ذلك لأن آخر أجدادنا في بغداد أخذوا من الخلافة مغانمها وتركوا مغارمها.

- صدقت يا مولانا.
- هي كذلك الأيام دُوَل.
- ألا تخشى يا مولانا أن يسمعك أحد من الخدم أو الحرس، فالكثير منهم للسلطان أعينٌ وآذان.
- وممّ أخشى، وعلى ماذا أخاف وقد ذهب كل شيء.
- لم يذهب يا مولانا، فأنت ما زلت خليفة المسلمين. ودارك هنا لطيفة المساحة بها رحبة فسيحة مليئة بشجر الجمّيز ومعرشات وافرة الظلال، وعندك من القِيَان ما يُبَدِّدُ بصوتهنَّ الحزن ومن الجواري ما تُطْفَأُ بحسنهنّ الرغبة.
- أيّ خليفة وأيّ مسلمين!! كانت دار الخلافة فأصبحت دار جواري وشجر جمّيز.
- يكفي أنك المستكفي بالله العباسي.
- أعلم من أنا يا سهيل، ولكن هل يُغني عني هذا الاسم شيئا وأنا لا أمتلك حتى داري، ولا تتقرب إليّ جواريّ بالغنج والمتعة إلا لتسمع منّي في حالة سُكر اللذة ما لا أقوله في حالة الصحو، لتنقله إلى السلطان الناصر.

تدخل جارية إلى العريش الذي تُغطي جوانبه أغصان أشجار أُحيطت به تعزله عن الرحبة وعن أعين من فيها، تحمل بيدها صينيّة فضة عليها طبق حلواء قمر الدين وأقداح شراب الخَرُّوب، فيسكت الخليفة ويشير إلى سهيل بذلك، ولمّا تأكد سهيل من ابتعادها عنهما مسافة أمان كافية قال:

- أليست الإقامة هنا في القوص أقصى الصعيد أفضل لك من الإقامة في القاهرة، فالواجبات أخف والنفقات أقل.
- وهل تلك مكرمة يا سهيل أو هي مذمّة القاعد الكاسي؟
- إنما أُرَوّح عنك وأُسَرّي يا مولانا، فإني أرى الحزن قد أحاط بك وإن تركته فهو مُقعدك ومُهلِكُكَ.
- ....
- أراك لا تجيب يا مولانا
- جوابُ ما يُكره السكوت يا سهيل.
- فأنت تخشى الهلكة إذاً.
- ليت الأمر وقف عند الحزن يا سهيل، إنما هو العجز، عجز الحزم وعجز العزم.
- لقد بذلتم جهودكم يا مولانا.
- جهد الاستمتاع بالسماع ومسامرة الندماء وجماع الإماء.
- معاذ الله يا مولانا، ألم يخرج أول خليفة عباسي في القاهرة المستنصر بالله في العساكر التي جردها له السلطان الظاهر بيبرس البندقداري لاستنقاذ بغداد من أيدي التتار؟
- وهل يُعتبر أربعمائة مقاتل كافيا لاستعادة عاصمة الخلافة العباسية!
- هم أكثر من عدة أهل بدر،
- جيشهم ليس ذلك الجيش وأميرهم ليس ذلك الأمير.
- ولكن بغداد لم تكن محصّنة حينها وكان نصفها مهجورا خربا.

- كانت كذلك، لكن تبريز عاصمة مغول فارس الإيلخانيّين التتار لا تبعد عن بغداد أكثر من مسيرة عشرة أيام وستأتيها النجدات من كل مكان بمجرد الدخول إليها.
- وفي المقابل كان يمكن أن يلتفَّ حولكم أهل بغداد عندما تدخلونها وتعيدون لها ذاك التاريخ المشرق لأجدادكم يوم كانوا سادة العالم. فالتاريخ مُلهم والسيادة حاثَّة.

أمسك الخليفة بالقدح وشربه جملة واحدة وهو يضحك وقال:

- مضى على الحادثة عشرات السنين وفشل المستنصر وتفرقت من حوله العساكر قبل أن يصل بغداد.

ثم قهقه بصوت عال وقال:

- وهل بهذا الوقت وبهذا المكان وبهذا الحال تذكرني بأمجاد الدولة العباسية يا سهيل؟
- السلطان الناصر ما زال يحكم باسمك واستمد سلطانه ومدّ نفوذه تحت ظل الخلافة العباسية.
- من المضحك المبكي، أن سلطان الهند قد بعث لوالدي بالبيعة قبل وفاته رحمه الله.
- لعل امتداد نفوذكم والبيعات التي أتتكم أو قد تأتيكم هو ما أخاف السلطان الناصر منك، ثم ألم يكن ذلك الحال في كثير من فترات خلافة العباسيين، خليفة واحد وممالك تحته مستقلة؟

- أتقصد مدة السفاح والمنصور أم فترة هارون والمعتصم؟!
- بالتأكيد لا أقصد أولئك العظماء، إنما أقصد غيرهم ممن جاؤوا بعدهم ووكّلوا الحُجَّابَ والوزراء إدارة أمور البلاد...
- ثم استقلّوا بالحكم عن بغداد وأصبحت الدولة دُوَلا، كل يوم بيعة جديدة وسلطنة مستقلة جديدة.
- وبدونكم لا وجود لهم.
- وبدونهم لا خلافة لنا.
- أنتم العرب وأنتم القرشيّون، وأنتم الأحق بها شرعا ومنعة، ولولا هذا الحق لما ملك المماليك رقاب العباد.
- في أول أمرهم نعم أمّا الآن فلا، فالسلطان قوي لا حاجة له بنا.
- ربما يا أبا الربيع.
- بل على التأكيد، فالسلطان مُستغنٍ عني ويتلاعب بي كيفما شاء. ألا ترى ذلك يا سهيل.
- بل أراه، وأعلم أنه من أقوى سلاطين الأرض وله من الولد ثمانية، عماد الدين والمنصور والصالح والناصر بدر الدين والمظفر والكامل والأشرف والناصر شهاب الدين، إن مات أحدهم خلفه آخر.
- صدقت، لقد سمعت أن فليب الرابع ملك فرنسا كان يهدد خصومه بأنه سينزل بهم عذابا أشد من وقوعهم تحت حكم السلطان الناصر لشدة خوفهم منه. وقد كنت حاضرا في

القاهرة لمّا أرسل ملك قشتالة في الأندلس إلى السلطان هدية فيها ثوب وسيف وطارقة مستطيلة تشبه النعش، غرّه بعد بلاده عن بلاد السلطان، ففهم السلطان الناصر سوء نيته ومرماه من الهدية، وكأنه يقول له أقتلك بهذا السيف وأكفنك في هذا الثوب وأحملك في هذا النعش، فأرسل اليه السلطان هدية عبارة عن حبل أسود وحجر، وهو يعني أنه كلب يُرمى بهذا الحجر أو يُربط بهذا الحبل. ولو كانت بلاده قريبة لغزاه السلطان.

يتقدم الخادم إلى العريش وقد أحضر معه طعاما وشرابا:

- تفضل يا مولاي، هذه فطائر مُرققة مطيبة بالزبد كما تحبها.

يتناول الخليفة قطعة ويعطي أخرى لصاحبه الذي انتظر خروج الخادم وأكمل قائلا:

- مجدهم مجدك يا مولاي.
- أخطأت يا سهيل، بل مجدهم عاري.
- معاذ الله أن يلحق بك العار يا أبا الربيع.
- قد لحق وانتهى الأمر، ألستُ منفيّا هنا في القوص مع الجواري لا أملك من أمري شيئا، وهذا ما سيكتبه التاريخ عني.
- لقد كاد لك الحسّاد والوشاة في بلاط السلطان وتلك حقيقة سيكتبها التاريخ أيضا.

- بل أصابت الريبة السلطان فهو يشكّ بكل شيء وبكل أحد بعد أن قتل ابنه أحمد لمّا حاول الخروج عليه.
- هل ترى أن السلطان متزن في أحكامه المتعلقة بالسلطنة بعد تلك الحادثة أو أن الريبة هي ما تحركه، وهل بسبب ذلك سجنَ الشيخ تقيّ الدين ابن تيمية سِجنَهُ الذي مات فيه؟

- لم يكن حينها قد دب فيه داء الريبة والشكّ بعد، إنما سجنه لأسباب أخرى رغم الصداقة القوية التي كانت تربطهما معا. غفر الله للسلطان لقد كان والله الشيخ رحيما بأعدائه حلو المعشر لطيف الصحبة معي ومع السلطان رغم قسوته في الحديث أحيانا. رحمه الله وهل مثله في الخُلق والعلم، لقد كان مفرط الذكاء وقّاد الذهن حسن السيرة. ولقد أخبرني رجل ممن كان يغشى مجلسنا في القاهرة ممن اختلف إلى دروس الإمام الحافظ شمس الدين الذهبي الشافعي في الإسكندرية، أن الذهبي شهد لابن تيمية شهادة غير مسبوقة وقال فيه «كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث» وهي عبارة ما قِيلت إلا في إمام المسلمين أحمد بن حنبل، وأنشد قصيدة من نظمه ختمها بقوله:

مضى ابن تيميةٍ وموعِدُه ... مع خصمه يومَ نفخةِ الفزعِ

لقد كان الشيخ أكبر من تقليد مذهب بعينه، وبلغت منزلته أن تلاميذه أصبحوا من سادة المذاهب الأخرى، وكانت رحمته بعامة المسلمين وخاصّتهم ظاهرة وجليّة رحمه الله.

- رحمه الله سمعت أنك التقيت به في معركة مرج الصّفّر.

- نعم اللقاء كان، ونعم الرجل هو، رغم عتبي عليه.
- وبما عتبت عليه؟
- كتب الشيخ حين كان في القاهرة كتاب (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعيّة) وأهداه للسلطان وأهداني نسخة أخرى، تكلم فيه عن حال الرعيّة ووجوب طاعتها للسلطان في المعروف، وحال الراعي ووجوب أخذه بالشرع والعدل، وتكلم بأحوال الملك والوزارات والدواوين والجند والأمراء، وعن أهمية التدبير الأمثل لشؤون الولايات ابتداء من السلطان ونائبه وإمارة الجند والقضاء والحسبة وانتهاء بولاية الأموال.
- هل قرأت الكتاب؟
- نعم فالفراغ أعطاني من الوقت ما يكفي لأكون عالما متفرغا.

يضحك الخليفة ملء شدقيه ثم يكمل:

- وقد تكلم الشيخ أيضا عن تسع ولايات كبرى تخص كيان الدولة، وسبعة عشر من ولايات المجتمع، وأوجب على السلطان البحث عن المستحقين للولايات من نوابه على الأمصار من الأمراء، والقضاة، ومن أمراء الأجناد ومقدمي العساكر، وولاة الأموال والكتّاب، والشادّين، وسُعَاة الخراج والصدقات. ولقد اعتمد السلطانُ الكتابَ وعمد إلى تطبيق ما فيه.
- وأين وجه عتبك إذاً؟

- ألم يكن بإمكان الشيخ أن يخبر السلطان أن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا ظالم، تذكر كل شيء ونسي رأس الأمر وسنامه، لعله إن أقنعه بذلك كان السلطان لنا بمثابة الأنصار من المهاجرين، نصرة نستعيد بها ملك آبائنا.
- لقد ابعدت النجعة يا مولانا، وهل سيُسلِّمكم السلطان إيّاها على طبق من ذهب، وقد تغلبوا عليها بالسيف وسالت دماؤهم لأجلها، هذا أمر لا يكون، إلا إن كان السلطان من العشرة المبشرين بالجنة ليتنازل لكم عن الملك، أمّا الأنصار فقد سلّموا للمهاجرين بذلك، لأن المهاجرين أخذوا الأمر على عاتقهم وقاتلوا قريش دون الإسلام وتركوا بلادهم وهاجروا لأجل ذلك وتقدموا الصفوف ولم يطلبوه من الأنصار وهم بين الكتب والمصنفات أو في القصور مع الجواري والقِيان.
- أراك تجاوزت الحد يا سهيل.
- أرجو المعذرة يا أبا الربيع، فإنما هو حديث الأخ للأخ والصديق للصديق.
- لا عليك يا سهيل. ورغم ما قلت فنحن أحق بها منه ومن قرعة أبيه، هو مجرد مملوك أعجمي ونحن العرب بل سادة العرب، ولا ينازعنا في هذا الأمر أحد إلا هلك، نحن أحفاد إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام ونحن أحفاد عبد الله بن عباس رضي الله عنه قرابة النبي صلى الله عليه

وسلم وابن عمه، ونحن قريش التي لا تدين العرب إلا لِحَيّها.

***

خرج سهيل من عند الخليفة وما لبث أن أرسل كتابا إلى السلطان الناصر مع البريد المتجه من النوبة إلى القاهرة كتب فيه: أماني رجل عاجز لا حول له ولا قوة، ولا تُغني الأماني عن طلب المعالي، لا هو ميتٌ فيُنعى ولا هو حيٌ فيُرجى، يتغنى بأمجاد آبائه ويَتَعزّى بصلته الشريفة، دَعْهُ فالموت أقرب إليه منك.

وبعد مدة أصبح الناس وقد نادي المنادي على مئذنة المسجد الجامع في القوص:

مات المستكفي بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أحمد بن حسين بن أبي بكر بن الحسن بن علي القبي ابن الخليفة المسترشد بالله ابن المستظهر بالله... مات الخليفة

telegram
@yasmeenbook

(38)

مات السلطان

القاهرة (741) هجري

أخذت السنون من السلطان ما أخذت فأصبح شارد اللب كثير الريبة لا يثق بأحد بعد أن قتل بالسمّ ابنه أحمد الذي وُلِدَ له من جاريته الحامل منه دون علمه بعد أن أهداها إلى صديقه المقرّب ووزيره الأمير سيف الدين بكتمر الذي كان له كخشداش المملوك روحا واحدة في جسدين.

زاد نفوذ بكتمر عند السلطان حتى غدت الطبلخانة تُضرب عند بابه صباح مساء وكأنه السلطان، وتربى ولد السلطان أحمد بكنف بكتمر لا بكنفه، فتآمر الأمير بكتمر وربيبه أحمد على السلطان وهما معه في طريق الحج إلى مكة قبل عشر سنوات، فكَشفَ أمرهما وفتك بهما، وكانت صدمة السلطان بالأمير بكتمر الذي باشر عدة جهات كبار في الدولة أكبر من صدمته بابنه أحمد وأثّرت في اتزانه.

سيطرت الهواجس على السلطان الناصر وأمسى نومه مشقة وعذابا، وعادت إليه ذكرى وفاة الشيخ تقيّ الدين في سجنه، فبات

يحلم به بين الفينة والأخرى، ويسمع صوتا يتردد في أذنه «يا قاتل الشيخ ... يا قاتل الشيخ» فغدا دائم الترداد لشعر الإمام زين الدين ابن الوردي الشافعي:

سيظهر قصدكم يـا حابسيه
وننبئكم إذا نُـصـبَ الصراط
فها هو مـات عنكم واسترحتم
فعاطوا مـا أردتـم أن تُعاطوا
وحـلـوا واعـقـدوا مـن غير ردٍّ
عليكم وانـطـوى ذاك البساط

كانت زوجة السلطان المتوفية خوند أردكين قد حذّرته من الاستماع إلى الوشايات، فإنّها تُورث الريبة وتسبب الكره، والكره يأكل من قلب الكاره أكثر مما يضر المكروه، وأنّ السماع يفتك بالروح، ويقتلُ المرء بالإكثار منه أقرب الناس إليه، وقد فعل.

زاد من بلة طين السلطان؛ موت صديقه الخليفة المستكفي بالله بالقوص بعد أن نفاه إليها خوفا من قفزه على الحكم رغم ضعفه وعجزه البادیین، وقتل السلطان صديقه ووالد زوجته الثانية الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام، وكان ممن وَطَّدَ له الحكم يوم قدم إلى دمشق من قلعة الكرك وسار معه بعساكره إلى القاهرة، ورغم استقرار حكمه ومرور ما يقارب نصف قرن على مقتل أخيه الأشرف خليل إلا أنه بدأ بحملة تطارد كل من شارك بقتله خوفا من تكرار ذلك معه.

رأى الأمير قراسنقر المنصوري وكان من الذين شاركوا بقتل الأشرف خليل تبدل حال السلطان وجنون الارتياب الذي أصابه ففر لاجئا إلى بوالسعيد، وفشلت كل محاولات السلطان تسخير الفِداويّة الإسماعيليّة لقتله، فقام بمقايضة رأسه برأس الأمير تمرتاش ابن جوبان الذي هرب من بوالسعيد والتجأ إلى السلطان الناصر، فسلم رأسه لبوالسعيد بعد الأمان الذي أعطاه إياه. ووصل الخوف بالسلطان مبلغه يوم قام بتسفير علي ومحمد ابني داود بن سليمان بن داود بن العاضد آخر خلفاء الفاطميين إلى الفيوم رغم ضعف حالهما وقصور همتهما ومرور مائة وسبعين سنة على نهاية دولتهم.

بلغ السلطان ما كان من عبيد مكة ومعهم بعض الهاشميين إذ وثبوا على الحجاج، وقتلوا أميرين من المصريين، فعظم عليه الأمر ووقع عليه كما تتابع الدواهي على عزيز قوم قد ذل، فامتنع من الأكل على السماط أياما وتعذّر لأولاده بقوله: «مشغول البال لا يشعر بالجوع»، ثم جرد ستمائة فارس وأرسل إلى نائب الشام بمثل ذلك فالتقيا في أيلة وساروا جميعا إلى الحجاز لتأديب العبيد ومن تحالف معهم من الهاشميين. ثم ما لبث أن ندم على فعله وأراد تطييب خاطر أهل مكة خوفا من خروجها عليه ومبايعتها لبوالسعيد، فأرسل إليهم باب حديد رُكّب على الكعبة مرصعا من السبط الأحمر كأنه آبنوس، مركب عليه صفائح من فضة زنتها خمسة وثلاثون ألفا وثلاثمائة وكسر، وقلع الباب العتيق، وهو من خشب الساج، وعليه صفائح سلّمها لبني شيبة، وكان زنتها ستين رطلا فباعوها كل درهم بدرهمين، وترك خشب الباب العتيق داخل الكعبة.

لاحظ قاضي القضاة عز الدين بن جماعة ابن قاضي القضاة السابق بدر الدين بن جماعة حرص السلطان على إغلاق مصاريع الأبواب وتفقد درَف النوافذ بنفسه فوجدها فرصة ليبوح له بما لم يجسر أحد على قوله مما بدا على سلوكه من ريبة واستعجال في القتل:

- أراك يا مولاي تخشى الغيلة والغدر.
- ألا ترى ما يفعله أصحاب الأهواء والأغراض.
- أطال الله عمر السلطان، لقد أصبح يستطيب القتل والفتك، ولو تمهّل لكن أسلم له في دينه ودنياه، ولربما فتح الله عليك بما هو أفضل، فالعقوبات متعددة من نفي وحبس وعزل وضرب.
- لابد للحكم من حزم وقتل، وبغيره لا تستقر الأمور.
- ولماذا لا تُغلِّب جانب اللين يا مولانا تتقرب به إلى قلوب الأمراء والرعيّة؟
- وهل يصلح ذلك مع الخارج على السلطان والباغي عليه والخائن الغادر الذي يُكاتب العدو أو يعمل معه؟
- ليس كل من قتل مولانا من فئة هؤلاء.

يجيب السلطان بغضب:

- بل هم منهم، وإنّ قتل الخارج على السلطان جائز بحكم الشرع، إنما العبرة بالمناط المتعلق بنوع السلطنة والحُكم، هل هو حُكم الملّة والدين أم حكم الشخص والقوم، فإن كانت الأولى

ففيها النجاة أما الثانية فهي المهلكة، أخبرني بذلك الشيخ تقيّ الدين.

تخرج الكلمات من فم القاضي وتعود خوفا من بطش السلطان ثم يقول مترددا:

- ألا يخشى مولانا، أن السلطان ينازعه في هذه المسألة حالتان يفصل بينهما جدار رقيق، فربما لا يُميَّز بين الغاية من القتل حتى لو ثبتت التهمة التي تستوجبه، هل هو قتل للحُكم ولِلمِلّة أو قتل لذات السلطان ونزواته.

***

مضى من عمر السلطان ستون سنة وكان كلما كبُرَ كَبُرَت في عينه صغائر الأحداث فأصبحت عظيمة، قلّ حلمه وزاد قلقه، تتابعت عليه الأحداث وكان آخرها أنّ جماعة من رؤوس النصارى اجتمعوا في كنيسة في دمشق وجمعوا مالا فدفعوه إلى راهبين قدما من بلاد الروم، يُحسنان صنعة النار الإغريقية، ووضعا منها في دكاكين التجار في سوق الرجال ولم يشعر أحد بهما، وأشعلاها بالليل فلم يشعر الناس إلا والنار قد عملت في تلك الدكاكين حتى تعلقت في درابزينات المنارة الشرقية التي ينزل عليها عيسى عليه السلام آخر الزمان، ففزع الناس وأمراء الألوف وصعدوا المنارة وهي تشتعل نارا وحاولوا إطفاء الحريق، واحترسوا عن الجامع فلم ينله شيء من الحريق وتفجرت أحجار المئذنة واحترقت

السقالات والسلالم. تحقق نائب السلطنة في دمشق أن هذا من فعل النصارى، فأمر بمسك رؤوسهم وأرسل الرسل بذلك إلى السلطان فاستشاط غضبا وأمر بحبس ستين رجلا منهم، وأخذهم بالمصادرات والضرب والعقوبات وأنواع المثلات، ثم بعد ذلك أمر بصلب عشرة على الجمال، وطاف بهم في أرجاء البلاد فجعلوا يتماوتون واحدا بعد واحد، ثم أمر السلطان بإحراقهم بالنار حتى صاروا رمادا. ورسم بعد ذلك بغلق الكنائس التي استُحدثت في الإسلام في كل من مصر والشام.

عادت الشكوك تساور السلطان الناصر بشأن بوالسعيد الذي تحسنت خانيّة مغول فارس على عهده وعزّ أهل السنة فيها وذلت الرافضة بخلاف حكم والده خربندا الذي سعى في بلاد المسلمين فسادا، وتعاظمت سيرة بوالسعيد الحسنة بين المسلمين في الشام ومصر والحجاز. وقالت العامة: هو من خيار ملوك التتار وأحسنهم طريقة وأثبتهم على السنة وأقومهم بها.

***

مات بوالسعيد بن خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولى بن جنكيز خان، بدار السلطنة بقراباغ، منزل إقامته في الشتاء، ونُقل إلى تربته بمدينة أبيه التي أنشأها قريبا من مدينة السلطانية ودفن هناك، فوقع خبر موته على السلطان الناصر بردا وسلاما، فقد انتهت مخاوفه من منازعته له على قلوب المسلمين، ونفد احتمال أن يصبح بوالسعيد سلطان المسلمين الأقوى. ونجحت سياسة

السلطان التي رسمها بتفكك خانيّة فارس بعد موت بوالسعيد، إذ لم يقم بعده للتتار في فارس وخراسان والعراق وما تحت حكمه من بلاد قائمة، بل اختلف الأمراء من بعده وتفرقوا شذر مذر وذهب كل ملك وأمير بما تحته من بلاد.

وقف السلطان الناصر فرحا على شرفة قصره الأبلق وصاح: مات بوالسعيد وماتت بموته دولة خانيّة مغول فارس.

***

دخلت عجوز كبيرة على السلطان في قصره، فرح بقدومها فرحا أنساه بعض ما فيه من همّ وغمّ. تبادلا أطراف الحديث ثم ذَكَّرَتْهُ بوعد وعدها إيّاه إن أعاد الله له سلطانه يوم غصب الجاشنكير بيبرس مُلكه؛ بأن يبني لها مسجدا صدقة جارية باسمها، فقال: والله يا أمي نسيت. فقالت: وكذلك أنا، أما وقد تذكّرنا فأوف بوعدك. فرد عليها وقد عادت إليه ذكرياته القديمة معها عندما خبّأته من الأمراء تحت السرير وعمره ثماني سنوات: بل أنتِ تأمرين يا أمي، فهل سأعجز عن بناء مسجد الست حدق وقد بنيت تسعة وثمانين جامعا، وثلاثة وسبعين مدرسة، وثلاثة وثلاثين مسجدا، وخمسا وعشرين زاوية، واثنتين وعشرين خانقاه، واثنين وعشرين رباطا، وخمس بيمارستانات. فقالت له: أراك تتذكّرها جميعها وتعدّها يا بُنيّ. فردّ عليها والأسى يعتصره: من مدة وأنا أشعر بدنو أجلي، فأصبحت أتوسل بعملي الصالح بين يدي الله، فأخذت أتذكّر أعمالي علّها تشفع لي عنده ويغفر لي ذنوبي، وما زلت يا أمي أخاف من موت الشيخ ابن تيمية في سجني.

دمعت عين السلطان وأنشد يقول:

يَا دُموعي سِحِّي كَسُحْبِ الْغَمَامِ
هاطلاتٍ على الـخُـدودِ سِجامِ

اقتربت الست حدق منه فسكنت جوارحه وخبا صوته، فعاد طفلا يبحث عن حضن دافئ وقال لها: أتأذنين لي يا دادة مِسْكَة أن أضع رأسي في حجرك. فقالت: كم غسلت هذا الرأس بالطُفْل ودعكته بيديّ هاتين... هاته يا محمد.

جَلَسْت على دكة الشرفة وخلعت عمامة السلطان وأمسكت برأسه وقبّلته ثم ضمته إلى حضنها ومسحت عليه، والسلطان مستسلمٌ في حضنها كالميت بين يدي مغسله وقالت: كنت صغيري محمد، فأصبحت السلطان الناصر، وها أنت تعود محمدا كما كنت.

مسكت بعمامته وألقتها بعيدا عن الشرفة خارج القصر الأبلق، فجفلت يمامة عشّشت بالقرب منهما وطارت بعيدا ولم تعد أبدا.

لم يمض وقت طويل حين وقف على تلكم الشرفة منادٍ في ليلة شديدة البرد هوجاء الرياح والعواصف، تردد صدى صياحه في أهل القاهرة:

مات أبو المعالي الناصر محمد بن قلاوون

مات أبو الفتح

مات السلطان

(39)

قطلوبغا الفخري

دمشق (742) هجري

خلت الدنيا من الشيخ والسلطان، أكل التراب ما بقي منهما وكتب الرواة ما بقي عنهما، حلَّلَت الأرض أجسادهما فكانا مادتها، مَرَّت بهما القرون فنبت من سمادهما ما اخْضّر قبل أن يُقطف ويُصنع من زيته حبر تناقلته الأجيال جيلا بعد جيل لسبعمائة سنة انتهى به المطاف قلما بيد كاتبٍ غاص في بحر تاريخهما فاستخرج منه جوهرا وزَبَدَا، فَسَطَّرَ فيه تَسْرِيَةً لكل محب ومادة لكل كاره، فقال:

خرج الشيخ البالغ من العمر ثمانيا وسبعين سنة، زين الدين عبد الرحمن ابن تيمية مسرعا من بيته لا يسعفه الوهن الذي أصاب عظامه بعد أن جاءه رسول نائب السلطنة في دمشق سيف الدين قطلوبغا الفخري، متوجها إلى بيت شمس الدين عبد الرحمن ابن قيّم الجوزيّة، وهو يضرب أخماسا في أسداس، لبس عمامته ووضع الجبّة على كتفيه وشد ما تحتها من لباس احتياطا لحبس جديد أو ربما جلد بالسياط لوشاية هنا أو ريبة هناك، فالبلاد تمر بفترة من

التقلبات بعد وفاة السلطان الناصر وتعيين ابنه الملك المنصور سيف الدين أبي بكر سلطانا جديدا، وما زال الصراع على السلطنة كالرماد يخفي ما تحته من جمر أجّجه تمرد دمشق رغم البيعة التي أخذها الأمير قطلوبغا الفخري للسلطان الجديد قبل عام.

في ظهر يوم الأربعاء السابع والعشرين من ذي الحجة من العام الفائت قدم الأمير قطلوبغا على خيل البريد إلى دمشق فخرج نائب السلطنة وعامة الأمراء لتلقيه، فأخبر بوفاة السلطان الملك الناصر وتعيين ابنه سلطانا جديدا ودقت البشائر بالقلعة المنصورة بدمشق صبيحة يوم الخميس الثامن والعشرين منه، وفرح الناس بالسلطان الجديد، وترحموا على السلطان القديم ودعوا له وتأسفوا عليه. لكن التمرد الذي حصل بها بعد ذلك استدعى السلطان المنصور توجيه سيف الدين قطلوبغا الفخري مرة أخرى إلى دمشق نائبا عليها، فدخلها مرة أخرى بعد عام من البيعة مع عساكر الكرك التي أدانت للسلطان بعد تململ وتردد حسمه الأمير قطلوبغا الفخري بدهائه وحزمه. وفي مستهل رجب من هذا العام ركب الفخري في دست النيابة بالموكب المنصور في دمشق، وهو أول ركوبه فيه، وإلى جانبه قماري وعليه خلعة هائلة، وكثر دعاء الناس للفخري يومئذ، وكان يوما مشهودا.

استتب الأمر للسلطان المنصور ملكا على مصر والشام والحجاز واليمن وللأمير سيف الدين قطلوبغا الفخري نائبا على دمشق، لكن الشيخ زين الدين الأخ الشقيق لتقيّ الدين ابن تيمية ما

زال خائفا من الأيام وما تخفيه في جعبتها، فقد اعتاد منذ أكثر من أربعة عشر عاما مرت على وفاة أخيه أنْ يتم استدعاؤه وأهل بيته على عجل إلى قلعة دمشق بسبب وشايات لم تنقطع منذ أضاء قمر أخيه الشيخ ابن تيمية ليل الشام ومصر قبل أكثر من خمسين سنة، وهذه الدعوة التي جاءته من نائب السلطنة تستدعيه هو وشمس الدين ابن قيّم الجوزيّة للمثول أمام الأمير قطلوبغا أثارت في نفسه الشجون وأعادت له ذكريات سجن القلعة التي مات فيها أخوه الشيخ تقيّ الدين.

وصل إلى بيت شمس الدين ابن القيّم وطرق الباب طرقا عنيفا أفزع أهل البيت، فخرج له شمس الدين وقد علت وجهه علامات الجزع:

- السلام عليكم يا شيخنا زين الدين، خير إن شاء الله، ما الذي أتي بك هذه الساعة على غير العادة.

تسارعت أنفاسه مع خطواته فأجاب وهو يلهث:

- وعليكم السلام يا ابن القيّم، أحضر لي كوب ماء وأمهلني حتى أستردّ أنفاسي.
- تفضل إلى الداخل.

يدخل إلى وسط البيت وينادي ابن القيّم على جاريته:

- يا بركة أحضري كأس ماء للشيخ الحبيب أخو الحبيب،

لقد أخفتني والله يا زين الدين أرجو أن يكون حضورك هذه الساعة بشارة خير لا نذارة شر.

- ما عاد صدري يحتمل أن تُطبق عليه أحمالٌ جديدة، وأخشى أن يكون الأمر نذارة، لقد استُدعينا إلى القلعة وطُلب منا الحضور الساعة دون تأخير.

- وما الضير في ذلك؟

- ما الضير في ذلك!! لم يمض على قدوم الأمير قطلوبغا يوم واحد إلى دمشق نائبا عليها حتى قام باستدعائنا.

- هو الأمير وله حق الطاعة.

- الخَطْبُ أكبر من ذلك، ألا تخشى أن يكون سعى أحدهم بوشاية لديه، وربّما اتهمونا أننا نخطط للخروج على السلطان، فسلطنةٌ لم يستتب أمرُها بعدُ تكون مرتعا للوشاة المُتَسلِّقين.

- وهل فعلتَ ما يريب يا شيخنا الجليل زين الدين؟

- لا والله ما فعلت.

- ولا أنا، فلماذا الخوف؟

- خفاء سبب الطلب مدعاة للتوجس والخيفة.

يبتسم ابن الواحد والخمسين عاما ويقدم للشيخ زين الدين حلواء الخروب التي أتته من نابلس قبل أيام:

- تفضل يا زين الدين هدئ من روعك، وتناول هذه الحلواء فهي مصنوعة من خروب نابلس لا نظير لها، وسأخبرك إن

شاء الله بما أتوقّعه من حضورنا بين يدي الأمير.

- طعمها لذيذ، لم أذُقها من قبل.

- أكلتها يوم زرت نابلس قبل أكثر من عشر سنوات، وأوصيت من ذهب إلى هناك مؤخرا فأحضروا لي بعضا من أنواعها المتعددة.

- يبدو أنك لا تأبه كثيرا بالأمر، ولا تستعجل الذهاب إلى الأمير، وكأنك تعرف ما لا أعرف؟

- المعلومة الوحيدة التي أعرفها، أن الأمير سيف الدين قطلوبغا الفخري كان تلميذا للشيخ تقيّ الدين، فقد حدثني أخوك رحمه الله بذلك، وأخبرني أن الأمير قطلوبغا كان ممّن يختلفون إليه ويحضرون دروسه في القاهرة وكان قد تفرّس به أنه سيكون فخريّ الأيام القابلة.

- لم أكن أعلم ذلك.

- فلا تخف يا شيخنا، المُثول بين يدي الأمير لن يأتي إلا بخير، فنحن خاصّة الشيخ تقيّ الدين وأحباؤه، وحبيب الحبيب حبيب كما يقولون.

- والله لقد هدّأت من روعي يا شمس الدين.

- انتظرني حتى أتجهّز للخروج وسأوافيك بعد قليل.

كان الأمير قطلوبغا قد استدعى قبل طلب الشيخين زين الدين وابن القيّم، قاضي القضاة وألح عليه في إحضار كتب الشيخ تقيّ الدين الموجودة في سلة الحكم التي كانت أُخذت من عند الشيخ تقيّ الدين من القلعة التي كان مسجونا فيها سجنه

الأخير، كما طلب من كافة القضاة والفقهاء إحضار ما عندهم من كتب صادروها يوم مُنع الشيخ من الكتابة، فأُحضرت جميعها بين يديه، أما قاضي الشافعية فقد أحضرها بعد جهد ومدافعة، لكنه خاف على نفسه من الأمير قطلوبغا الذي هدّد وتوعد من يخفي أي شيء منها، فقبضها منه الأمير بالقلعة وأذن له في الانصراف من عنده، وهو متغضب عليه، وربما همّ بعزله لممانعته إياها، ورد الأمير على من تعذر وتأخر بإحضار الكتب بذريعة أنّ فيها كلاما يتعلق بمسألة الزيارة قائلا: «كان الشيخ تقيّ الدين أعلم بالله وبرسوله منكم».

استبشر الأمير قطلوبغا الفخري بإحضار كتب الشيخ تقيّ الدين إليه، واستدعى أخاه زين الدين عبد الرحمن، والشيخ شمس الدين ابن قيّم الجوزيّة، فدخلا عليه واستبشر زين الدين خيرا لمّا رأى وجه الأمير متهللا، فبادله الابتسامة بأحسن منها وبشّ بوجهه وهشّ وزالت كربته وتبددت شكوكه.

- السلام عليكم أيها الأمير.
- وعليكما السلام ورحمة الله وبركاته، حيا الله الأحبة بقية الشيخ تقيّ الدين، الأخ العزيز والتلميذ النجيب.
- نسبتنا للشيخ فخر ومكرمة أيها الأمير.
- هذا الظن بكما، حدثني الشيخ عنك يا زين الدين وكم أنك وشرف الدين رحمه الله كنتما له عونا وسندا فيما مرّ به من محن وابتلاءات.

أجاب زين الدين:

- أقل ما يقدمه الأخ لأخيه.
- أما أنت أيها الشيخ ابن القيّم فلم يحدثني عنك الشيخ في القاهرة لأنك لم تكن التقيت به بعد، أليس كذلك؟

أجاب ابن القيّم:

- صدقت أيها الأمير.
- لكن سمعتك الطيبة وعلمك الغزير وصلا القاهرة.
- الفضل لله وحده.
- وقد سألت ساعة قدومي دمشق عن خاصّة الشيخ فأخبروني أنّك من خاصّة خاصّته.
- إنه لشرف لي أن أكون من خاصّة الشيخ رحمه الله، فإنّه كان لنا كالوالد لأولاده ينصحنا نُصح المحب ويعلمنا تعليم المؤدب المربي.
- أَصِدْق ما سمعتُ عن فراسته في تلاميذه، وأنه كان يحدّثهم عن خبايا أنفسهم، أم هي شائعات ترافق سيرة العظماء وتتبعهم بعد موتهم كظل يتبع حاجبه عن الشمس؟
- أطال الله عمر الأمير، هي حقيقة عايشناها، ولو حدثتك ببعض حالات الشيخ لربما كذّبت بها ولكن ما شهدنا إلا بما علمنا.
- بل أنا إلى أخبار الشيخ لفي شوق، خاصة ما خفي منها لا ما عُلم، فما عُلم قد عُلم، أما المخفيّ منها فلا يعلمه

إلا الخاصّة، لقد أحببت الشيخ حبا جما، وأشغلني شأن الدولة والعسكر عن الشيخ وعلمه وأحواله.

في محاولة أخيرة منه لدفع القلق، قال زين الدين:

- في الوقت متسع للكلام عن الشيخ بقدر ما يسمح به وقت الأمير، ولكن إن أذنت أن تخبرنا سبب استدعائنا في هذا الوقت من النهار وبعد يوم واحد فقط من قدومك أميرا على دمشق، فقد أقلقنا الاستدعاء بادئ الأمر.
- لا تقلق يا زين الدين، أردت أن أناقش معكما موضوع كُتب الشيخ تقيّ الدين ومصنفاته، وفي الوقت متسع، وهذا الوقت الذي أمضيه معكما هو أهم ما على الأمير القيام به، فالعلم والعلماء والكتب والتواليف هي ركائز الحكم، وبها يُزان الميزان، لا القِيان والجواري والوشاة، أليس كذلك يا ابن القيّم؟
- بلى أيها الأمير، نِعْمَ ما ذكرت.
- إذاً فحدِّثاني عن خاصّة حوادث الشيخ وغرائبه وأخبراني عن موته، فقد حضرت موت مولانا السلطان الناصر رحمه الله رحمة واسعة وقد ...
- رحمه الله وغفر له.
- ... وقد كان حريصا أن يعرف آخر أخبار الشيخ بعد الجفاء الذي حصل بينهما بعد سجنه الأخير، كم كان السلطان يردد على مسامعي ما دار بينه وبين الشيخ في القصر يوم

عادا من الكرك ومن الإسكندرية والتقيا بقلعة الجبل، وكيف أن السفن سارت بما لا يشتهيه السلطان من قرب الشيخ منه، وكان دائما يقول لي: إن نصر مرج الصُّفّر هو نصر ابن تيمية فهو الذي جمع الجيش وثبت العساكر وهو من أقنعني بتحريك العساكر المصرية لتلتقي بمن حضّهم الشيخ من متطوعة وعساكر نيابات الشام السبعة، دمشق وحلب وطرابلس وغزة والكرك وصفد وحماة، وكان على رأسهم وقدّم نفسه رخيصة وألقى بها في إعصار ميسرة التتار بشجاعة خالديّة يفرّ منها قسورة وإقدام يتأخّرُ عنه عنترة، فثبّت الجند وانعكست مجريات المعركة من الهزيمة إلى النصر . وكان يلوم نفسه ويقول: ها قد بلغتُ الواحدة والستين من عمري فماذا أريد بعد من الدنيا وأنا سلطان مصر والشام والحجاز واليمن والنوبة وساحل إفريقيّة أما كان يغنيني ترك الشيخ بحاله. وسمعته عدة مرات يردد همسا: «يا قاتل الشيخ يا قاتل الشيخ». وأوصاني أن أتأكد من عفو الشيخ عنه، وإن لم يكن قد عفا عنه، فطلب مني أن أطلب منك يا شيخنا زين الدين أن تحلّله من ذلك فأنت الباقي الوحيد من أولاد عبد الحليم ابن تيمية ولعلك تنوب عن الشيخ في ذلك بعد وفاته.

قال زين الدين:

- اطمئن أيها الأمير، فقد سمعت الشيخ بنفسي يقول: «قد

أحللت السلطان المعظّم الملك الناصر من حبسه إيّاي، كونه فعل ذلك مُقلِّدا غيره معذوراً، ولم يفعله لحظّ نفسه، بل لما بلغه ممّا ظنّه حقًّا من مُبلِّغه، وقد أحللتُ كلَّ واحد مما بيني وبينه، إلا من كان عدوًّا لله ورسوله». وأنا كذلك أيها الأمير قد حلّلته، فالسلطان طاهر الدَين عفيف، فَبَشِّر بذلك ابنه السلطان المنصور.

- الحمد لله إذاً فالأخبار التي وصلت السلطان كانت صحيحة.
- يبدو أن الكلام سيطول إن كنا سنتكلم بكل هذه الحوادث فهل وقت الأمير يسمح بذلك؟
- لقد فرّغتُ نفسي لوقت المغرب، وعزمت عليكما الغداء معنا اليوم.
- لك ذلك أيها الأمير.
- أخبرني يا ابن القيّم، أراك دون الناس تقول «قدّس الله سرّ الشيخ» هي عبارة غريبة لم أسمعها من قبل، لعلك أول من استخدمها في وصف شيخه.
- قدّس الله سرّه ونَوَّر ضريحه ... صدقت، فالشيخ له سرّ مع الله لا يعلمه إلا هو، حضرت معه مرة صلاة الفجر فجلس يذكر الله إلى قريب انتصاف النهار ثم التفت إلي وقال: «هذه غَدْوتي، ولو لم أتغدَّ هذا الغداء لسقطت قوتي». وكان إذا أحرم بالصلاة يكاد يخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام يميد بصلاته يمنة ويسرة لشدة

خشوعه، وظهر لنا من أسرار الشيخ ما شاء الله أنْ يُظهره، لنعرف مكانته ونُحدِّثَ بها.

- ها ... حدِّثنا.

- من هذه الوقائع ما حصل معنا، ومنها ما حدّثنا به الشيخ، ومنها ما أحتفظُ به لنفسي، فبعض الأشياء لا يُحَدَّثُ بها لصعوبة تصديقها، وأغلبها كشفها الله لنا ولم يحدّثنا بها الشيخ، فمن حدّث بكرامته فليس بصاحب كرامة، فالكرامة تكون لأشد الناس إخلاصا، والكلام عنها يخرج المخلص عن إخلاصه، وكان لا يحدّثنا بها إلا على سبيل الخطأ وفلتات اللسان لط ...

- كلامك عجيب يا ابن القيّم، فهؤلاء الفقراء في الزوايا والخاقانات مادة حديثهم عن كراماتهم التي خصّهم الله بها، بل يتفاخرون بها، ومنهم من يزعم الخوارق ويفعلها أمام الناس، كالسير على النار أو إدخال أسياخ الحديد في اللحم دون ألم ودون سيلان دماء.

- ... لطالما كنت أخرج مع الشيخ أو ألحقه بالخفاء إلى الصحراء أو المساجد المهجورة لمّا تعضل عليه مسألة بالفقه أو التفسير حتى لو كانت من الأمور الثانوية، ويسجد هناك لله ويمرغ وجهه بالتراب يسأل الله أن يفتح عليه ويبقى على هذا الحال ويقول «يا معلم إبراهيم علّمني، يا معلم إبراهيم فهّمني» ويستغفر أكثر من ألف مرة حتى يفتح الله عليه وينشرح صدره، وسمعته يوما يردد:

وَأَخرُجُ مِن بَينِ البُيوتِ لَعَلَّني
أُحَدِّثُ عَنك النفس بِالسرِّ خالِيا

أما ما ذكرت من أخبار الفقراء، فقد حاججهم الشيخ وأثبت بطلان أعمالهم، لذلك كثر حاسدوه وكارهوه. وقد سَبَقَ له وهو صغير أن حضر معهم مجلسا، فلمّا رآهم يتراقصون بالذكر ويتمايلون كالسكارى عافت نفسه طريقتهم رغم صغر سنه وبساطة علمه حينها، لذا تراني أقول دائما «قدّس الله سرّه». ففي ذلك رفع لمكانته وإجلال لشأنه، والسرّ الذي بين الشيخ وبين الله يجب أن يبقى مخفيا ومقدّسا، أظهرنا بعضه وأخفينا بعضا، فإنما الغاية ظهور ثمرة هذه الكرامات التي انعكست على الواقع علما وتعلما وتدريسا وإفتاء وجهادا بالنفس وقول كلمة الحق وإنكار المنكر والأمر بالمعروف. ذاك هو الشيخ تقيّ الدين وتلك هي كرامته الظاهرة.

- وهل تظن أني سأكتفي بهذا يا ابن القيّم، لن أدعكما حتى تُخبراني بأمر لا يعرفه غيركما عن الشيخ، ابدأ أنت يا شيخنا زين الدين فأنت أكبرنا قدرا وسنّا.
- كان حالنا معه في البيت عجيبا، كنا نجلس بحضرته كأن على رؤوسنا الطير! وكنّا نهابه كما يُهاب السلطان، وكما تعلمون فإن من العُرف والعادة أنّ أهل الرجل لا يحتشمونه كالأجانب، بل يكون انبساطهم معه فضلاً عن الأجنبي لكننا كنا نرى منه أشياء لا يراها غيرنا! أوجبَتْ علينا أنْ نكون معه كذلك.

ومن غرائب قصصه أنّه لمّا وصل إلى دمشق قاضي قضاة حلب ابن الزملكاني على البريد وأقام بها أربعة أيام، وكانت له خلافات شديدة مع الشيخ تقيّ الدين يوم كان قاضي دمشق، ثم سار إلى مصر ليتولى قضاء قضاة الشام بحضرة السلطان الناصر، كان من نيّته الخبيثة إذا رجع إلى الشام أن يؤذي الشيخ تقيّ الدين، وقد صرح إلى جمع من أصحابه أنه بمجرد توليه منصبه الجديد سيقضي بقتل الشيخ، فوصل خبر ذلك إلى تقيّ الدين وكنت معه، فقال بعد أن حوقل واستعاذ الله من الشيطان الرجيم «إنّ الله لن يُمكّن ابن الزملكاني من ذلك وسيدخل مصر ميتا»، فمرض ابن الزملكاني وهو سائر على البريد تسعة أيام، ثم عقب المرض بحراق الحمام فقبضه هادم اللذات، وحال بينه وبين سائر الشهوات والإرادات ولم يبلغ أمله ومراده، واتفق موته قبل وصوله إلى مصر، وحُمِلَ إلى القاهرة ميتا.

- سبحان الله، أذكر ذلك وتم دفنة بالقرافة، رحمه الله.

ابن القيّم:

- رحمه الله وغفر له.
- وأنت ما عندك من قصص وغرائب يا ابن القيّم؟
- قدّس الله سرّ الشيخ لو بحنا بسرّه لكذّبنا الناس.
- أنا أصدقك، فهات ما عندك ولا تتأخر علينا.
- أظنُّ الشيخ كان يعلم نتيجة معركة مرج الصّفَر مُسبقا، لذا جزم بنتيجتها قبل أن تبدأ.

يتدخل زين الدين للتخفيف على الأمير من وطأة ما ألقاه ابن القيّم على مسامعه:

- إنما كان يتأول قوله تعالى «ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ».
- ذلك ما تداوله الناس، لكن تلاميذه المقرّبون يظنّون غير ذلك.

يقول قطلوبغا:

- أعلمٌ بالغيب بعد رسول الله؟!
- معاذ الله فلا يعلم الغيب إلا الله، ربما كانت رؤية صالحة أو كشفا أو إلهاما أو ربما كان الشيخ مُحَدَّثا.
- قدّس الله سرّه.
- قدّس الله سرّه، فقد كان يخبرنا عن أنفسنا أشياء لا يعلمها غيرنا، فربما كانت فراسة المؤمن، فالمؤمن ينظر بنور الله، قال لنا مرة: يدخل عليَّ أصحابي وغيرهم فأرى في وجوههم وأعينهم أمورا ولا أذكرها لهم. فقلت له: لو أخبرتهم. فقال: أتريدون أن أكون معرِّفا كمعرِّف الولاة. فقلت: لو عاملتنا بذلك لكان أدعى لنا إلى الاستقامة والصلاح. فقال: لا تصبرون معي على ذلك جمعة.
- زدنا يا ابن القيّم ولا تبخل علينا.
- «جرى بيني وبين بعض الفضلاء منازعة في عدة مسائل، وطال كلامنا فيها، وجعلنا نقطع الكلام في كل مسألة، بأن نرجع إلى الشيخ وما يرجحه من القول فيها، ثم إن الشيخ رضي الله عنه حضر، فلما هممنا بسؤاله عن ذلك سبقنا

هو، وشرع يذكر لنا مسألة مسألة، كما كنا فيه، وجعل يذكر غالب ما أوردناه في كل مسألة، ويذكر أقوال العلماء، ثم يرجح منها ما يرجحه الدليل، حتى أتى على آخر ما أردنا أن نسأله عنه. وبين لنا ما قصدنا أن نستعلمه منه، فبقيت أنا وصاحبي ومن حضرنا أولا مبهوتين متعجبين مما كاشفنا به، وأظهره الله عليه، مما كان في خواطرنا».

- سبحان الله، والله صدقتما، ذكرتماني بأبيات شعر قالها أبو حيّان الأندلسي النحوي يوم اجتمع بالشيخ في مصر، ما زلت أحفظها لغاية الآن.
- أتحفنها بها والله لقد أثرت أشجاننا أيها الأمير أسأل الله أن يُلحقني بأخي قريبا.
- أطال الله عمرك يا زين الدين، أما الأبيات:

لَما أَتينا تقيّ الدين لاحَ لَنا
داعٍ إِلـى الـلَـهِ فَـردٌ ما له وَزَرُ
عَلى محياه مِن سِيماً الأُلى صحبوا
خَـيـرَ البريةِ نـورٌ دونـه القَمرُ
حَبرٌ تَسربل مِنهُ دَهـره حِبراً
بَحر تَقاذف مِن أَمواجه الـدررُ
قـامَ ابـنُ تيميةٍ في نَصرِ شرعتنا
مَقامَ سَيِّد تيم إِذ عصت مُضَرُ
وَأَظهَرَ الحَقَّ إِذ آثاره اندَرَسَت
وَأَخمَدَ الشرَ إِذ طارَت لَهُ شَرَر

كُنا نُحَدِّثُ عَن حَبر يَجيء فَها
أَنتَ الإمـامُ الَّذي قَد كانَ يُنتَظَرُ

قال ابن القيّم:

- لكن أبو حيّان قاطع الشيخ بعد ذلك وذكره بسوء في تفسيره (البحر) وفي مختصره (النهر).
- لم أعلم بذلك.
- «ذكر أبو حيّان كلاما لسيبويه أمامه، فقال الشيخ: فشر سيبويه. فغضب له أبو حيان، فقال الشيخ: ما كان سيبويه نبيّ النحو، ولا كان معصوما بل أخطأ في الكتاب في ثمانين موضعا ما تفهمها أنت. فصّيَّر أبو حيّان ذلك ذنبا لا يُغفر للشيخ».

يدخل الخادم ويخبر الأمير أن الطعام قد جهز

- دعونا نتناول الغداء ونصلي العصر ونكمل حديثنا بعدها.

(40)

وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا

دمشق (742) هجري

اعتدل الشيخ زين الدين في جلسته وقال مخاطبا الأمير قطلوبغا وعيونه تغرورق بالدمع:

فرغنا من غسل الشيخ وخرجنا به، فاجتمع الخلق بالقلعة والطريق إلى الجامع وامتلأ الجامع وصحنه والكلاسة وباب البريد وباب الساعات إلى باب اللبادين والغوارة، وحضرت الجنازة في الساعة الرابعة من النهار ووضعت في الجامع، والجند قد احتاطوا بها يحفظونها من الناس من شدة الزحام، صلّينا عليه بالقلعة أولا، ثم صلّى عليه الشيخ محمد بن تمام بالجامع الأموي عقيب صلاة الظهر وكنّا مرصوصين رصا لا يتمكن أحد من السجود إلا بكلفة جوَّا الجامع وبرَّا الأزقة والأسواق.

وقد تكاثر اجتماع الناس وتزايد الجمع إلى أن ضاقت بهم الرحاب والساحات، ثم حُمل بعد أن صلّي عليه على الرؤوس والأصابع، وخرج نعش تقيّ الدين ابن تيمية من باب البريد واشتد الزحام وعلت الأصوات بالبكاء والنحيب والترحم عليه والثناء والدعاء له.

وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم وثيابهم تبركا، وذهبت النعال والقباقيب من أرجل الرجال ووقعت الطيالس والعمائم لا يلتفت إليها أحد لشغلهم بالنظر إلى الجنازة، وصار النعش على الرؤوس تارة يتقدم وتارة يتأخر، وتارة يقف حتى تمر الناس، واشتد الزحام على أبواب الجامع الأموي كلها وخرج الناس يركب بعضهم بعضا، ثم خرجنا من أبواب البلد جميعها مكتظين متزاحمين، أكثرها ازدحاما باب الفرج الذي أُخرجت منه الجنازة، وباب الفراديس، وباب النصر، وباب الجابية.

وعظم الأمر بسوق الخيل وتضاعف الخلق وكثر الناس، ووضعت الجنازة هناك وتقدمتُ للصلاة عليه هناك مرة ثانية وصلى خلفي من فاته الصلاة عليه، ثم حملنا النعش بصعوبة إلى مقبرة الصوفية فدفن إلى جانب شقيق روحه أخي شرف الدين عبد الله رحمهما الله جميعا.

وحضر أهل البساتين وأهل الغوطة وأهل القرى، وأغلقت الأسواق والحوانيت والمدارس ولم يطبخ أهل الأسواق شيئا ولم يتخلف عن الحضور إلا المُخَدَّرات ومن هو كاره وهم قليل أو عاجز مع الترحم والدعاء له، وأنه لو قدر ما تخلف، وحضر أهل العلم كلهم إلا ثلاثة نفر من أعدائه خافوا على أنفسهم، ابن جملة والصدر والقحفازي، فقد علموا أنهم إن خرجوا من بيوتهم قُتلوا وأهلكهم الناس. وحضرت تلميذات الشيخ وهنّ كُثر وحضر نساء كثيرات بحيث حُزرن بخمسة عشر ألف امرأة، وباقي نساء

دمشق كنّ على الأسطحة يترحمنّ ويبكين عليه كما رأيت بأمّ عيني وشاهدت.

وأما الرجال فالمُقلّ يقول ستين ألفا والمكثر يقول مائتي ألف، وسمعت أنّ جماعة من الناس شربت الماء الذي فضل من غسله، واقتسم آخرون بقية السدر الذي غُسل به، ودُفع في الخيط الذي كان فيه الزئبق الذي كان في عنقه لوقايته من قمل الحبس مائة وخمسون درهما، وأُخبرت أن الطاقية التي كانت على رأسه دُفع فيها خمسمائة درهم.

وحصل في الجنازة ضجيج وبكاء كثير لم تشهد مثله دمشق من قبل، وتعالت أصوات تقول «لا فُقدتَ من غائب» وأخرى تنعى أقلامه النافعة «لا أبعدكنَّ الله من شجرات» وتضرّع الناس وختموا له ختمات كثيرة بالصالحية وبالبلد، وتردد الناس إلى قبره أياما كثيرة ليلا ونهارا يبيتون عنده ويصبحون، ورؤيتْ له منامات صالحة كثيرة، وقيل أنّه لم يشاهد جنازة مثل جنازته منذ جنازة أحمد بن حنبل في بغداد وأهل دمشق لا يعشرون أهل بغداد كثرة ولكنهم اجتمعوا لجنازة الشيخ اجتماعا لو جمعوا بالقهر ما بلغوا هذا العدد.

تدمع عين الأمير قطلوبغا ويقول:

- وصلتنا الأخبار في القاهرة أنه صُلّي عليه بالمدينة النبوية صلاة الغائب ووصلت أخبار إلى السلطان من أقصى الصين مفادها أنه نودي للصلاة عليه يوم الجمعة «الصلاة

على ترجمان القرآن». وصلوا عليه في اليمن وفي بلاد كثيرة من بلاد الإسلام.

لم يستطع الشيخ زين الدين إكمال حديثه فقد أثقلته الذكرى وأقعدته فيكمل ابن القيّم الحديث:

- هيهاتَ لا يأتي الزمانُ بمثلهِ ... إنَّ الزمانَ بمثلهِ لبخيلُ

كنت مسجونا في القلعة ليلة وفاته في سحر ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة بقلعة دمشق بالقاعة التي كان محبوسا بها، فجئته وكشفت الغطاء عن وجهه ونظرت إليه وقبّلته وشعرت وكأن القيامة قد قامت، ولم يعد لي في الدنيا صحبة بعد الشيخ وبكيت عليه مثل النساء، «وحضر جمع كثير إلى القلعة لما أُعلنت الوفاة، وأذن لهم آمر القلعة في الدخول عليه، وجلس جماعة عند رأسه قبل الغسل وقرؤوا القرآن وتبركوا برؤيته وتقبيله، ثم انصرفوا، ثم حضر جماعة من النساء كذلك ثم انصرفن واقتصروا على من يغسله. وصاح مؤذن القلعة على المنارة بوفاة الشيخ ونادى به الحراس على الأبرجة، وتسامع الناس صباحا بهذا الخطب الجلل والأمر العظيم، فاجتمعوا حول القلعة من كل مكان أمكنهم المجيء منه»، وأخبرنا الشيخ زين الدين...

ينظر ابن القيّم إلى الشيخ زين الدين الذي غطى رأسه بثوبه وأجهش بالبكاء ثم أكمل:

- ... وأخبر الحاضرين أنه قرأ هو والشيخ منذ دخل القلعة

ثمانين ختمة وشرعا في الحادية والثمانين، فانتهوا فيها إلى سورة القمر. فشرع عند ذلك الشيخان الصالحان الخيّران عبد الله بن المحب وعبد الله الزرعي الضرير وكانا ممن يحب الشيخ قراءتهما في قراءة ما بقي حتى ختموا القرآن وأنا حاضر أسمع وأرى. وكان معهما شيخنا الحافظ المزي صديق الشيخ المقرّب الذي كان يكثر القول للشيخ «ما رأيتُ مثلك ولم تر أنتَ مثل نفسك».

وكان من آخر ما قرأه الشيخ ابن تيمية من القرآن قوله تعالى «اقتربت الساعة وانشق القمر»

حاول الشيخ زين الدين لملمة نفسه وجمع خاطره فقال بصوت متحشرج:

- والله لقد انشقّ القمر... قمر حرّان.

فيرد عليه الأمير قطلوبغا وهو يمسح دمعه بيده:

- بل قد بزغ، ولذلك أحضرتكما، فها هي كتب الشيخ جمعتها من عند أعدائه قبل أن أجمعها من عند أصدقائه، وسأُبيّتها في خزانتي تبركا بما فيها من قول الله وقول رسوله.

يشعل الأمير القنديل بعد أن يصلح فتيلته بالمقراط ويناول ابن القيّم إناء فيه زيت زيتون ويطلب منه أن يصبّه في السراج قبل أن يُشعل فتيله الجاف فيتلفه، ويقبل بوجهه على غرفة مجاورة لمجلسهم مُقَبَّبَة السقف فيها كتب الشيخ ويقول:

- ها هي كتب الشيخ تقيّ الدين وتواليفه.

يقف ابن القيّم وبيده السراج ويركض باتجاه الغرفة وكأنه وقع على كنز نادر، يمسك الأمير قطلوبغا بيد الشيخ الكبير زين الدين ويساعده على الوقوف ويسير معه نحو مجموعة من الكتب في زاوية الغرفة:

يتناول ابن القيّم كتابا ويقول:

- هذا كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم).

فيسأله الأمير:

- وما موضوعه؟
- في مسائل التشبه باليهود والنصارى.

أمسك زين الدين بكتاب ونفض عنه الغبار فتهلل وجهه لما قرأ عنوانه:

- هذا الكتاب (الرسالة الأكملية) كان من أكثر الكتب التي منعها القضاة والفقهاء ولقد ظننا والله أنه ضاع للأبد.

يتقدم الأمير قطلوبغا من الشيخ زين الدين فرحا مزهوا بأنه هو من أنقذ هذه الكتب النفيسة من التلف والضياع ويسأل:

- ولماذا يا شيخنا؟

- لما فيه من تعرية لمعتقداتهم الباطلة، وفيه تبيان كمال صفات الله تعالى، والرد على عمى الشبهات وحيرة الضلالات التي أثاروها بين الناس، ورغم ما فعلوه به فقد أنصفهم الشيخ وأحسن إليهم، فقد سألته عنهم فقال بعد أن عدد مناقبهم: «الأشاعرة هم أهل السنة في مصر أيام الدولة الفاطمية ولهم الفضل بالوقوف أمام البدع المغلظة».

يطلب الأمير من الشيخ زين الدين الاستراحة على الدكة المجاورة للكتب ويقول:

- لقد حدثني قاضي القضاة ابن مخلوف لما زرته في مرض موته بالقاهرة فقال: «ابن تيمية أفضل منا، قدرنا عليه فحبسناه وقدر علينا فعفا عنا، ويوم عرض عليه السلطان الوظائف التي كنّا نتقلدها والمرتبات والأعطيات التي كنا نأخذها رفضها جميعا».

لاهيا عما يتحدث به الأمير والشيخ زين الدين يستعرض ابن القيّم الكتب واحد تلوا الآخر:

- وهذا (بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية) في سبع مجلدات رد فيه على كتاب تأسيس التقديس للرازي.

وهذا (رفع الملام عن الأئمة والأعلام) في سيرة أئمة المسلمين وآرائهم.

وهذا من أنفس الكتب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) في تبيان تحريف الإنجيل.

يمسك الأمير بكتاب ويناوله لابن القيّم ويسأله:

- يُقال أنّ الشيخ ترك مذهبه الحنبلي هل هذا صحيح؟
- ليس كذلك، فالشيخ بلغ مرتبة المجتهد المُطلق المُستقل، وبقي عدة سنوات لا يُفتي بمذهب معين بل بما قام الدليل عليه عنده. وقال لي يوما: «اجعل المذهب ثلاثة أقسام، قسمٌ الحق فيه ظاهر بيِّن موافقٌ للكتاب والسنة فاقض به وأنت طيب النفس منشرح الصدر، وقسم مرجوح ومخالفُه معه الدليل فلا تفت به ولا تحكم به وادفعه عنك، وقسم من مسائل الاجتهاد التي الأدلة فيها متجاذبة فاجتهد به ما استطعت».
- وما هذا الكتاب الذي بين يديك أراك عظمته لما ناولتك إياه؟
- هذا كتاب عظيم (درء تعارض العقل والنقل) في مناقشة الفلاسفة وأهل الكلام.

يتناول ابن القيّم الذي شعر وكأنه يسبح في بحر من الدرر النفيسة والجواهر كتابا آخر ويقول:

وهذا (العقيدة الواسطيّة) في تبيان أصول العقيدة ومسائل أصول الدين والمعتقدات عند أهل السنة والجماعة.

ينظر الشيخ زين الدين إلى مئات الكراريس التي كان الشيخ يدوِّن فيها الآلاف من فتاويه المتعددة ويقول:

- لعل الله يُسخر لأشتات المسائل هذه من يجمعها في كتاب جامع واحد فيه كل (الفتاوى) التي أفتى بها الشيخ وما أظن عشرين مجلدا تسعها.

سأل قطلوبغا:

- سمعت أن الشيخ رد على الملعون هولاكو في مُصَنّف.

ابن القيّم:

- صنّف (الهُولاكُونيّة) وهي جواب سؤال ورد على لسان هولاكو في مجلد كامل.
- وإلى ماذا تُنسب الكتب التي أسماؤها مثل (الحمويّة) و(الواسطيّة)؟
- نسبة إلى المُدن التي كان أهلها يثقون بالشيخ أكثر من ثقتهم بمن عندهم من العلماء، ف(الواسطيّة) كانت ردا على أسئلة من أهل واسط في العراق و(الفتوى الحمويّة) نسبة لمدينة حماة و(الرسالة التدمريّة) نسبة إلى تدمر وكذلك (المسائل الإسكندريّة) و(المرّاكشيّة) و(البعلبكيّة) و(البغداديّة) و(الصفديّة) و(الصعيديّة) فقد كان الشيخ محبوبا ومرجعا في كافة بلاد المسلمين.

صوت أذان المغرب يعلو فوق أسوار قلعة دمشق الشماء فيتوجه الجميع إلى مكان أعد خصيصا لهم للصلاة فيتابع الأمير الكلام:

- هذه الكتب ومئات المصنفات الأخرى من كتب الشيخ في مكتبتي سأبعث بها من الغد إلى الورّاقين والنُّساخ ثم سأرسلها إلى مُتَمَلِّكي النسخ والكتب ليرسلوها بأمري إلى كافة المدن والحواضر والأقاليم.

زين الدين:

- وكنا ظننا أنها درست.

قطلوبغا يضع يده بكل رفق على كتف الشيخ زين الدين ويقدمه للصلاة:

- تفضل يا شيخنا زين الدين ابن تيمية صلّ بنا المغرب.

يصطف ثلاثتهم ومن حضر ويرفع الشيخ يديه مكبرا ويتلو بعد الفاتحة قوله تعالى:

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ...

ثم يرفع يديه مُكبّرا:

الله أكبر

ويخرّوا ساجدين

***

«أخبرنا الشيخ أبو عبد الله محمد بن رُشَيِّق المغربي المالكي أنّ علاء الدِّين بن أيدُغْدي من أصحاب الشيخ تقيّ الدين رأى في المنام الشيخَ قبل موته بمدَّة، وأنّ القيامة قد قامت، والناسُ مجتمعون، ونزل من السماء كهيئة بُقْجَة، فقيل: ما هذه؟ فقالوا: هذه براءة ابن تيمية من النار».

«تمت بحمد الله»



telegram
@yasmeenbook

الفهرس

مقدمة الكاتب 7
موقف الموت 11
حرَّان 21
الشيخ 26
دمشق 31
البسملة 48
السلطان 55
فتح عكا 61
بغداد 69
الست حدق 78
الصارم المسلول 85
الحمويّة 95
قازان 106
القاهرة 119
إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني. 139
مرج الصُّفَّر 150
النصوص على الفصوص 166
الجَبَلِيَّة 174

اللهم أقم لدينك رجلاً يكسر العمود المُخلّق ويخرب القبر الذي في جيرون 180
بن تومرت 186
ابن كثير 195
الكرك 202
الإسكندرية 215
شيئا مليحا 218
الشيخ والسلطان 224
الجاشنكير 235
مشهد الحسين 244
القدس 253
ابن القيّم 263
ست النعم 281
المهدي المنتظر 285
ماردين 294
الأميرة طلنباي 306
بوالسعيد 318
عُطيفة ورُميثة 330
أردكين بنت نوكاي 343
مات الشيخ 353
الخليفة 369
مات السلطان 380
قطلوبغا الفخري 388
وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا 404